

حُرَّاسُ الْهُوِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ  
وَالْعَقِيدَةِ السَّافِيَّةِ

obeikandi.com

## حُرَّاسُ الهويَّةِ الإسلاميَّةِ والعقيدة السلفية

✽ شيخ الإسلام ابن تيمية:

﴿ مرّ ذكر شيخ الإسلام فيما سبق، وفي نظري أن شيخ الإسلام ابن تيمية هو المثل الجميل للهوية الإسلامية والعقيدة السلفية، والشخصية السلفية في أسمى شمولها، لقد كان الهدف الأساسي لدعوة شيخ الإسلام ابن تيمية هو تنقية العقيدة الإسلامية من رواسب البيئة، وتهويلات أهل البدع والأهواء، حتى تبقى واضحة نقية طبق الكتاب والسنة، كما كانت في عهد الإسلام الزاهر.

﴿ وصلت دعوته إلى القارات الخمس الآن، وعمّت مشارق الأرض ومغاربها، [ وفرضت هيمنتها العقدية والفقهية والجهادية على المخالفين قبل الموافقين، واعتبرت شخصيته ميزاناً لمعرفة الخطأ والصواب فيما بعده من العصور. وكان علماء البلاد يُعرفون باتجاهاتهم بالميل إليه، أو الميل عنه حتى بدأ يُذكر هذا الوصف في تراجمهم فيقال «كان من المائلين إلى ابن تيمية، أو المائلين عنه»<sup>(١)</sup> ]<sup>(٢)</sup>.

لقد كرّس ابن تيمية جهده وقلمه وحياته لاقتلاع الشركيات ومظاهرها، والبدع والخرافات وأساطيرها، والعودة بالأمة إلى الكتاب والسنة على فهم السلف الصالح، في العقائد والأحكام والعبادات والمعاملات، والمعيشة والاقتصاد والسياسة والاجتماع، والسلطة والحكم وغيرها من نواحي الحياة الإنسانية. أوقف حياته على تصحيح العقيدة، واتباع الدليل لتسير الأمة على

(١) «طلب العلم وطبقات المتعلمين» للشوكاني (ص ١٤).

(٢) «دعوة شيخ الإسلام» للشيخ صلاح الدين مقبول أحمد (ص ٣٣٦).

الدرج السليم الذي يؤدي إلى منهج الأنبياء في الدعوة والإرشاد.

□ يقول الشيخ محمد خليل هراس: «هذه هي دعوة ابن تيمية: إصلاح وإحياء وتجديد. فهو بحق أبو النهضة الإسلامية، وواضع أساسها. وجميع دعاة الإسلام من بعده إنما بهديه اقتدوا، وعلى كتبه تخرّجوا»<sup>(١)</sup>.

□ وقال الأستاذ أبو الحسن الندوي: «كان القرن الثامن بحاجة إلى مثل هذا الرجل الكامل الذي يسع نشاطه كل مجال من مجالات الحياة، من غير أن تنزوي جهوده وأعماله في زاوية واحدة، أو تتركز على جانب واحد. كان ذلك الرجل هو شيخ الإسلام الحافظ ابن تيمية الذي ملأ العالم الإسلامي بنشاط وحياة وتحركات علمية وعملية، لا تزال آثارها خالدة باقية على مرّ القرون والأجيال»<sup>(٢)</sup>.

لقد حارب ابن تيمية التصوف الفلسفي وعري أصحاب الكلام، ونقد الأشاعرة والمعتزلة والشيعة، وحارب التقليد، وجاهد في الله حق جهاده.

□ قال الأستاذ المودودي: «لكن نداءه لاتباع الإسلام الخالص المنحصر كان نفخة صور أحدثت في العالم حركة دائمة لا تزال نسمع صداها في أقطار الإسلام بين حين وآخر»<sup>(٣)</sup>.

□ لقد وقف شيخ الإسلام ابن تيمية سدّاً منيعاً ضد رواهب التعصّب والتحيّز، ومفاسد الجمود والركود، وعقد المنطق والفلسفة وأوخال الحلول والاتحاد؛ حتى تعيش الأمة حياة سعيدة مستقيمة لا شقاء فيها ولا عناء، ولا انحراف فيها ولا ضلال يتمثلها حديث: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما

(١) «ابن تيمية السلفي» لمحمد خليل هراس طبعة اليوسفية ١٩٥٢ م.

(٢) «الحافظ ابن تيمية شيخ الإسلام» للندوي.

(٣) «موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه» للمودودي (ص ٧٩) - مؤسسة الرسالة.

تمسكتُم بهما كتاب اللّٰه وسنة نبيّه»<sup>(١)</sup> .

□ لقد أدى شيخ الإسلام خدمات جليلة لأُمَّته لا تُنسى في إصلاح الأحوال الدينيَّة، والسياسيَّة، والاجتماعيَّة، وإليكم الخطوط العريضة لمجالات<sup>(٢)</sup> الدعوة والإرشاد التي خاضها شيخ الإسلام بكل جدارة بفضل اللّٰه تعالى ومنّه:

(أ) الدعوة للإصلاح السياسي:

\* ركّز ابن تيميَّة في هذا المجال على أمور ثلاثة:

الأول: بناء تصور سليم للحكم الإسلامي:

خلاصة هذا أنه لا يكفي أن تكون الدولة الإسلاميَّة والإدارة فيها قويَّة فحسب، وإنما يجب أن تكون منسجمة أيضاً مع الأصول الواردة في القرآن والسنة، وكما طبقها السلف الصالح.

وقد وضح شيخ الإسلام كثيراً من آرائه في الإصلاح السياسي في كتابيه: «السياسة الشرعية» و«الحسبة في الإسلام»<sup>(٣)</sup>.

الثاني: إقامة حكومة قويَّة:

سعى شيخ الإسلام لتحقيق هذا الجانب، إلى إقامة العلاقات بأمرء الممالك وإقناعهم بمنهج الكتاب والسنة في الحكم، حتى قيل في عدد من

(١) «الموطأ» للإمام مالك (٨٩٩/٢ - ط فؤاد عبدالباقي)، والحديث من بلاغيات الإمام مالك، ومال العلامة الألباني إلى تصحيحه من حديث عدّ حديث «... كتاب اللّٰه وعترتي أهل بيتي» شاهداً قوياً لحديث الموطأ هذا، بعدما ذكر «وعترتي أهل بيتي» في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (١٧٦١) لأنه يوافق لفظ «وسنة رسوله».

(٢) راجع التفاصيل عن ميادين الإصلاح التي تناولها شيخ الإسلام، في كتاب «الفكر التربوي عند ابن تيميَّة».

(٣) «الفكر التربوي» (٥٣ - ٥٤). للدكتور ماجد عرسان الكيلاني طبعة عمان.

هؤلاء أنهم من تلاميذه وأتباعه، أمثال:

- زين الدين كاتويغا المنصوري (-٧٠٢هـ) الذي كان حاكم حماة<sup>(١)</sup>.
- وأرغون شاه الناصري (-٧٠٥هـ) الذي تولى منصب نائب السلطان في مصر وحلب ودمشق<sup>(٢)</sup>.
- والأمير سلا، نائب الملك ناصر بن قلاوون (-٧٠٩هـ)<sup>(٣)</sup>.
- والأمير حسام الدين مهنا بن عيسى الظائي (-٧٣٥هـ) ملك العرب، الذي أخرج شيخ الإسلام من السجن سنة ٧٠٧هـ معظماً له ومكرماً<sup>(٤)</sup>.
- السلطان الناصر محمد بن قلاوون (-٧٤١هـ) الذي عاد للسلطنة سنة ٧٠٩هـ بعدما قتل الجاشنكير الجركسي، وكان أول عمل له إطلاق سراح ابن تيمية من منفاه في الإسكندرية.

الثالث: بعث روح الجهاد والمقاومة لمواجهة الأخطار الخارجية:

\* ومن إنجازات شيخ الإسلام في هذا الميدان:

- نجاحه في إقناع قازان الثاني أن لا يذهب دمشق خلال الغزو المغولي عام ٦٩٩هـ. وتكلم مع قازان كلاماً أثار دهشة الحاضرين. حتى قازان نفسه تعجب من جرأته وشجاعته في الحق<sup>(٥)</sup>.
- لما جاوز قازان المغولي بجيشه الفرات عام ٧٠٠هـ، وقصد حلب وأخذ الناس يتركون البلاد طلباً للنجاة من شراسة المغول. قام شيخ الإسلام

(١) «شذرات الذهب» (٥/٦).

(٢) المصدر المذكور (٦/٢٧٧).

(٣) المصدر المذكور (٦/١٩).

(٤) المصدر المذكور (٦/١١٢).

(٥) المصدر المذكور (٦/١٣٤).

(٦) «البداية والنهاية» (١٤/٨٩).

يحث الناس على الجهاد، واجتمع بالأمرء، وذهب إلى القاهرة يسأل السلطان محمد بن قلاوون الدفاع عن الشام<sup>(١)</sup>.

□ وفي عام ٧٠٢هـ حين لاح خطر المغول مرة ثالثة، كان شيخ الإسلام في الصف الأول من المعركة. وأصدر فتوى بالإفطار للمقاتلين، وكان لوجوده الأثر الكبير في الانتصار في معركة شقحب سنة ٧٠٢هـ<sup>(٢)</sup>.

□ وفي عام ٦٩٩هـ، وكذلك في عام ٧٠٤هـ شارك شيخ الإسلام في الحملة ضد الإسماعيلية، في جبل كسروان، الذين كانوا يتعاونون مع الصليبيين والمغول<sup>(٣)</sup>، فاستتابوا خلقاً منهم، وألزمهم بشرائع الإسلام، ورجع مؤيداً ومنصوراً<sup>(٤)</sup>.

□ قال الأستاذ المودودي بعد أن ذكر عمل ابن تيمية التجديدي:

«مضافاً إلى هذا التجديدي جاهد بالسيف همجية التتر ووحشيتهم.

كانت بلاد مصر والشام عند ذلك بمفازة من هذا السيل، فنفت الإمام في قلوب الرؤساء وعامة المسلمين هناك روح الغيرة والحمية والحماس، وحرّضهم على مقاومة أولئك وقد شهد معاصرو الإمام أن المسلمين كان بلغ منهم الخوف والفرع من التتر أن كانوا يرتعشون لمجرد ما يسمعون ذكرهم، وكانوا يحجمون عن لقاءهم خوفاً وذعراً، كأنما يُساقون إلى الموت.

ولكن ابن تيمية أيقظ فيهم روح الشجاعة والاستبسال بما بثّ في قلوبهم من التحمس وحب الجهاد<sup>(٥)</sup>.

(١) المصدر المذكور (١٥/١٤ - ١٦)، و«شذرات الذهب» (٤٥٥/٥).

(٢) «شذرات الذهب» (٤/٦).

(٣) «الفكر التربوي» (ص ٥٥).

(٤) «البداية والنهاية» (١٢/١٤، ٣٥).

(٥) «موجز تاريخ تجديد الدين» (ص ٧٩).

## (ب) الدعوة للعدالة الاجتماعية:

اعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الواجبات الدينية جزء مكمل للحياة الاجتماعية وأن أركان الإسلام الخمسة تتجسد في العدل الاجتماعي. ولتجسيد النظام الاجتماعي في واقع الحياة، وتسهيل تصوّره عمل شيخ الإسلام على إشاعة نظام التربية على منهج أهل السنة، ضد النظم التربوية الأخرى التي فتت المجتمع إلى مذاهب متناحرة، وطرق متنافرة. ويقدم كتاب «الحسبة في الإسلام» إطاراً مفصلاً لهذا النظام الذي يغطي كل مظاهر الحياة الدينية والدنيوية، والمعاملات التجارية، والحرف المهنية والخدمات العامة<sup>(١)</sup>.

## (ج) الدعوة للقضاء على انحرافات الفرق الضالة:

بذل شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - جهوداً جبارة في تصحيح عقائد المسلمين؛ لأنه هو الهدف الأول الشريف لبعثة الأنبياء والرسول. فمن تكون دعوته على منهج الأنبياء يقدم جانب تحقيق توحيد الله في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته، على الجوانب الأخرى من الإصلاحات في الحياة الإنسانية.

□ ومعلوم أن شيخ الإسلام نشأ في إطار المذهب الحنبلي، ولكنه فضل التمسك بالكتاب والسنة في العقائد والأحكام، من دون أن يتقيد بمذهب معين. وصرح بهذا الأمر قائلاً:

«مع أنني في عمري إلى ساعتي هذه، لم أدعُ أحداً قط في أصول الدين إلى مذهب حنبلي وغير حنبلي، ولا انتصرت لذلك، ولا أذكره في كلامي، ولا أذكر إلا ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها.

(١) «الفكر التربوي» (ص ٥٥).

وقد قلت لهم غير مرّة: أنا أمهل من يخالفني ثلاث سنين إن جاء بحرف واحد عن أحد من أئمة القرون الثلاثة يخالف ما قلته فأنا أقرّ بذلك .  
وأما ما أذكره فأذكره عن أئمة القرون الثلاثة بالفاظهم، وبألفاظ من نقل إجماعهم من عامة الطوائف<sup>(١)</sup> .

انطلاقاً من هذا الموقف العادل المستقيم قام شيخ الإسلام بنقد مدارس الفكر المعاصرة في ضوء الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح . وشمل نقده مدرسة الفلاسفة والمتكلمين، ومدرسة الصوفية والروافض وغيرها من المدارس المنحرفة عن الخط المستقيم الذي حدّده الكتاب والسنة<sup>(٢)</sup> .

\* شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب مجدد زمانه إمام الدعوة السلفية في العصر الحديث :

«هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن مشرف النجدي التميمي . ولد سنة ١١١٥ هـ ونشأ في بيت علم، فوالده من علماء البلاد وتولى القضاء في عدة جهات، وجده الشيخ سليمان كان عالماً جليلاً وإماماً في الفقه وهو المفتي في البلاد في وقته وقد تخرج على يديه عدد كبير من العلماء وطلبة العلم، وعمه الشيخ إبراهيم ابن سليمان كان من أجلة العلماء، فنشأ الشيخ محمد في هذا الجو العلمي وكان حاد الذهن متوقد الذكاء سريع الحفظ، حفظ القرآن الكريم قبل سن العاشرة ودرس على والده كتب الفقه الحنبلي وكان كثير المطالعة والقراءة للكتب إلى جانب قراءته على والده، فقرأ في كتب التفسير والحديث والأصول، وعني عناية خاصة بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وكتب العلامة

(١) «مجموع فتاوى شيخ الإسلام» (٣/٢٢٩) .

(٢) راجع «الفكر التربوي» (١٧٢ - ١٩٣) .

ابن القيم، وكان لكتب هذين الإمامين أكبر الأثر في تكوين شخصيته العلمية المتميزة والأخذ بيده إلى مصادر العلم الصحيحة فتكون لديه الاتجاه السليم منذ صغره وتركزت في قلبه العقيدة الصحيحة، وتخرج على كتب هذين الإمامين المحققين<sup>(١)</sup>.

### \* حالة المسلمين عند ظهور دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب :

«لقد ذكر المؤرخون كابن غنام وابن بشر وغيرهما عن حالة أهل نجد خصوصاً والعالم الإسلامي عموماً الشيء الكثير من ظهور البدع والخرافات والشركيات والجهل بحقيقة الدين الصحيح، ففي نجد كانت القبور والأشجار والأحجار والمغارات تعبد من دون الله بأنواع من القربات، وفي الحجاز واليمن وغيرهما من البلاد من ذلك الشيء الكثير، يقول العلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني في قصيدة له يصف المظاهر الشركية في البلاد الإسلامية وهو معاصر للشيخ محمد وقد وصف ما يفعل ويمارس حول القبور من الشرك الأكبر فيثني على دعوة الشيخ :

وقد جاءت الأخبار عنه بأنه	يعيد لنا الشرع الشريف بما يبدي
وينشر جهراً ما طوى كل جاهل	ومبتدع منه فوافق ما عندي
ويعمر أركان الشريعة هادماً	مشاهد ضل الناس فيها عن الرشد
أعادوا بها معنى سواع ومثله	يغوث وود بئس ذلك من ود
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها	كما يهتف المضطر بالصمد الفرد
وكم عقروا في سوحها من عقيرة	أهلت لغير الله جهراً على عمد
وكم طائف حول القبور مقبل	ومستلم الأركان منهن باليد

(١) «من مشاهير المجددين في الإسلام» للدكتور صالح الفوزان (ص ٥٦ - ٥٧) طبع أنصار السنة.

□ ويقول الإمام الشوكاني وهو من المعاصرين لدعوة الشيخ أيضاً، يقول في وصف ما يفعل عند القبور من الشرك: وكم قد سرى عن تشييد أبنية القبور وتحسينها من مفاسد يبكي لها الإسلام، منها اعتقاد الجهلة لها كاعتقاد الكفار للأصنام، وعظم ذلك فظنوا أنها قادرة على جلب النفع ودفع الضرر، فجعلوها مقصداً لطلب قضاء الحوائج وملجأً لنجاح المطالب، وسألوا منها ما يسأله العباد من ربهم وشدوا إليها الرحال وتمسحوا بها واستغاثوا، وبالجملة إنهم لم يدعوا شيئاً مما كانت الجاهلية تفعله بالأصنام إلا فعلوه، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ومع هذا المنكر الشنيع والكفر الفظيع لا نجد من يغضب لله ويغار حمية للدين الخفيف لا عالماً ولا متعلماً ولا أميراً ولا وزيراً ولا ملكاً، وقد توارد إلينا من الأخبار ما لا يشك معه أن كثيراً من هؤلاء القبوريين أو أكثرهم إذا توجهت عليه يمين من جهة خصمه حلف بالله فاجراً، فإذا قيل له بعد ذلك: احلف بشيخك ومعتقدك الولي الفلاني تلثم وتلكأ وأبى واعترف بالحق، وهذا من أبين الأدلة الدالة على أن شركهم قد بلغ فوق شرك من قال: إنه تعالى ثاني اثنين أو ثالث ثلاثة، فيا علماء الدين ويا ملوك المسلمين أي درء للإسلام أشد من الكفر، وأي بلاء لهذا الدين أضر عليه من عبادة غير الله، وأي مصيبة يصاب بها المسلمون تعدل هذه المصيبة، وأي منكر يجب إنكاره إن لم يكن إنكار هذا الشرك البين واجباً:

لقد أسمعت لو ناديت حيا      ولكن لا حياة لمن تنادي  
ولو ناراً نفخت بها أضاءت      ولكن أنت تنفخ في رماد

انتهى من «نيل الأوطار» (٤/ ٩٠).

وقد ألف كل من هذين الإمامين رسالة في التحذير من هذا الشرك الذين فشا في البلدان في عصرهما فالف الصنعاني رسالة اسمها «تطهير

الاعتقاد عن أدران الإلحاد»، وألف الشوكاني رسالة اسمها «شفاء الصدور بتحريم البناء على القبور» وكلتا الرسالتين مطبوعة ومتداولة.

□ وإليك ما قاله فاضلان من أهل العلم معاصران للشيخ محمد ودعوته، قالا - رحمهما الله -:

«من محمد بن غيهب ومحمد بن عيدان إلى عبد الله المويس، الباعث للكتاب إخبارك عن ديننا قبل أن يجعل هذا الشيخ لهذا القرن<sup>(١)</sup> يدعوهم إلى الله وينصح لهم ويأمرهم وينهاهم حتى أطلع الله به شمس الوحي وأظهر به الدين وفرق به أهل الباطل من السادة والكهان والمرتشين فهو غريب في علماء هذا الزمان هو في شأن وهم في شأن آخر، رفع الله له علم الجهاد فشمروا إليه فأمر ونهى ودعا إلى الله تعالى ونصح ووفى بالعهد لما نقضوه وشمروا عن ساعد الجد لما تركوه وتمسك بالكتاب المنزل لما نبذوه فبدعوه وكفروه، فديننا قبل هذا الشيخ المجدد لم يبق منه إلا الدعوى والاسم فوقعنا في الشرك فقد ذبحنا للشياطين ودعونا الصالحين ونأتي الكهان ولا نفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ولا بين توحيد الربوبية الذي أقر به مشركو العرب وتوحيد الألوهية الذي دعت إليه الرسل، ولا نفرق بين السنة والبدعة فنجتمع لليلة النصف من شعبان لصلاتها الباطلة التي لم ينزل بها من سلطان ونضيع الفريضة، ونقدم قبل الصلاة الوسطى - صلاة العصر - من الهذيان ما يفوتها عن وقت الاختيار إلى وقت الضرورة، هذا وأضعافه من البدع لم ينهنا عنه علمائنا بل أقرونا عليه وفعلوه معنا فلا يأمرهم بمعروف ولا ينهون عن منكر ولا ينصحون جاهلاً ولا يهدون ضالاً والكلام من جهتهم طويل عصمنا الله وإياك من الاقتداء بهم واتباع طريقتهم فكن منهم على حذر إلا

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب: «يجيء» بدل يجعل.

القليل منهم ويكفيك عن التطويل أن الشرك بالله يخطب به على منابرهم ومن ذلك قول ابن الكهمري: اللهم صل على سيدنا وولينا ملجأنا منجأنا معاذنا ملاذنا. وكذلك تعطيل الصفات في خطب الطيبي فيشهد أن الله لا جسم ولا عرض ولا قوة.

فقبل هذا الشيخ لا تؤدى أركان الإسلام كالصلاة والزكاة فلم يكن في بلدنا من يزكي الخارج من الأرض حتى جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً.

□ في وسط هذا الجو المظلم الذي سبق وصفه سطعت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ورفع صوته منكرًا هذا الشرك داعيًا الناس إلى التوحيد الذي بعث الله به رسوله محمدًا ﷺ فلقني من الناس ما يلقاه أمثاله من الدعاة إلى الله من الأذى وأطاعه من وفقه الله لقبول الحق، يقول حفيده الشيخ عبدالرحمن بن حسن - رحمه الله -: ثم رجع إلى نجد وهم على الحالة التي لا يحبها الله ولا يرضاها من الشرك بعبادة الأموات والأشجار والأحجار والجن، فقام فيهم يدعوهم إلى التوحيد وأن يخلصوا العبادة بجميع أنواعها لله، وأن يتركوا ما كانوا يعبدونه من قبر أو طاغوت أو شجر أو حجر، والناس يتبعه الواحد منهم والاثنتان فصاح به الأكثرون وحذروا منه الملوك وأغروهم بعداوته. انتهى من «الدرر السنية» (٢١٦/٩).

□ وأصول دعوته - رحمه الله - هي الدعوة إلى التوحيد، ونبد الشرك، والاعتماد على الكتاب والسنة وأقوال صالح سلف الأمة، وألزم من تحت يديه إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من فرائض الله ونهاهم عن الربا

(١) المصدر السابق (ص ٦٠ - ٩١)، نقلًا عن كتاب «علماء نجد خلال ستة قرون» للشيخ عبدالله البسام (٢/٦٠٥ - ٦٠٦).

وشرب المسكر وأنواع المنكرات.

\* المراحل التي مرت بها دعوة الشيخ محمد - رحمه الله - :

بدأ الشيخ دعوته في بلدة حريملا لوجود والده فيها، ولكن لما كانت الظروف غير مواتية ترك هذه البلدة بحثاً عن غيرها فاتجه إلى العيينة واتصل بأميرها عثمان بن معمر فساعده في أول الأمر واجتمع حوله طلبة وبدأ بتنفيذ الأحكام الشرعية فهدم بعض القباب الشركية ورجم في الزنا، ثم إن ابن معمر تخلى عنه خوفاً من تهديد بعض الرؤساء، فترك الشيخ العيينة وبحث عن غيرها فاتجه إلى الدرعية واتصل بأميرها محمد بن سعود وعرض عليه دعوته فقبلها وبايعه على مناصرته وصدق في ذلك، وهنا استقر الشيخ - رحمه الله - وانعقدت حوله حلقة الدروس ووفد إليه الطلاب من مختلف الجهات وتكونت في هذه البلدة ولاية إسلامية أميرها الإمام محمد بن سعود وموجهها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وامتدت الدعوة إلى البلاد المجاورة ونشأ الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة التوحيد وقمع الشرك، وما هي إلا فترة وجيزة حتى انتشرت الدعوة وتوحدت جميع البلدان النجدية تحت رايته، وامتدت فيما بعد ذلك إلى الحجاز وعسير وشمال الجزيرة، وكان ذلك بفضل الله وحده ثم بمؤازرة آل سعود لهذه الدعوة المباركة، وصدق الله وعده: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، ﴿وَإِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْمُغَالِبُونَ﴾ [الصفات: ١٧٣]، ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠] (١).

□ قال الشيخ محمد رشيد رضا في التعريف بكتاب «صيانة الإنسان» للسهيواني بعد أن ذكر فشو البدع بسبب ضعف العلم، وعدم العمل بالكتاب

(١) «من مشاهير المجددين في الإسلام» (ص ٧٦ - ٧٧).

والسنة، ونصر الملوك والحكام لأهل البدع، وتأييد المعتمدين لها قال - رحمه الله -: «لم يخل قرن من القرون التي كثرت فيها البدع من علماء ربانيين، يجددون لهذه الأمة بالدعوة والتعليم وحسن القدوة، وعدول ينفون عنه تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، كما ورد في الأحاديث، ولقد كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي من هؤلاء العدول المجددين قام يدعو إلى تجديد التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده، بما شرعه في كتابه، وعلى لسان رسوله خاتم النبيين ﷺ، وترك البدع والمعاصي، وإقامة شعائر الإسلام المتروكة، وتعظيم حرمانه المنتهكة، فقامت لمناهضته واضطهاده القوى الثلاث: قوة الدولة والحكام، وقوة أنصارها من علماء النفاق، وقوة العوام والطعام، وكان أقوى سلاحهم في الرد عليه أنه خالف جمهور المسلمين، وهم كاذبون في زعمهم هذا» اهـ.

### \* الشبه التي أثرت حول دعوة الشيخ:

تعرضت دعوة الشيخ كغيرها من دعوات المصلحين للنقد من قبل خصومها وأثيرت حولها شبهات ربما تروج على من لم يعرف حقيقتها، وقد أثير كثير من هذه الشبهات في حياة الشيخ ورد عليها بنفسه، وأثير البعض الآخر أو بالأصح أعيدت إثارة نفس تلك الشبه بعد وفاته فرد عليها تلامذته وغيرهم من محققي علماء المسلمين الذين لا يروج عليهم البهرج والكذب ولا تأخذهم في الله لومة لائم ومن هذه الشبه:

١ - أنه يبطل كتب المذاهب الأربعة وأن الناس من ستمائة سنة ليسوا على شيء.

٢ - أنه يدعي الاجتهاد وأنه خارج عن التقليد وأنه يقول اختلاف العلماء نقمة.

٣ - أنه يحرم زيارة قبر الرسول ﷺ وزيارة قبر الوالدين وغيرهما.

٤ - أنه يكفر من حلف بغير الله..

وقد أجاب الشيخ عن هذه بقوله: جوابي عن هذه المسائل أنني أقول:

سبحانك هذا بهتان عظيم، وقبله من بهت النبي ﷺ أنه يسب عيسى بن مريم ويسب الصالحين فتشابهت قلوبهم بافتراء الكذب وقول الزور قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾ [النحل: ١٠٥]، الآية بهتوه ﷺ بأنه يقول إن الملائكة وعيسى وعزيراً في النار فأنزل الله في ذلك: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠١] الآية. انتهى، انظر «الدرر السنية» (١/ ٣٠ - ٣١).

٥ - قالوا إنه ينهى عن الصلاة على النبي ﷺ وأنه يقول: لو أن لي

أمراً هدمت قبة النبي ﷺ وأنه يتكلم في الصالحين وينهى عن محبتهم.. وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: هذا كذب وبهتان افتراء علي الشياطين الذين يريدون أن يأكلوا أموال الناس بالباطل، انظر «الدرر» (١/ ٥٢).

٦ - قالوا: إنه يكفر جميع الناس إلا من اتبعه وأن أنكحتهم غير

صحيحة.. وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: يا عجباً كيف يدخل هذا في عقل عاقل وهل يقول هذا مسلم، إني أبرأ إلى الله من هذا القول الذي ما يصدر إلا من مختل العقل فاقد الإدراك، فقاتل الله أهل الأغراض الباطلة، انظر «الدرر» (١/ ٥٥).

٧ - قالوا: إنه يكفر بالعموم ويوجب الهجرة إليه على من قدر على

إظهار دينه.. وقد أجاب الشيخ عن ذلك بقوله: كل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله، وإذا كنا لا تكفر من عبد الصنم الذي على عبدالقادر والصنم الذي على قبر أحمد البدوي وأمثالهما لأجل جهلهم وعدم من ينههم فكيف تكفر من لم يشرك بالله ولم يهاجر

إلينا أو لم يُكفِّرْ ويُقاتِلْ؟<sup>(١)</sup>

سبحانك هذا بهتان عظيم. انظر «الدرر» (٦٦/١).

٨ - قالوا: إنه ينكر الشفاعة، فردّ الشيخ على ذلك بقوله: «سبحانك هذا بهتان عظيم، بل نشهد أن رسول الله ﷺ الشافع المشفع صاحب المقام المحمود نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يشفعه فينا، وأن يحشرنا تحت لوائه، هذا اعتقادنا وهذا الذي مشى عليه السلف الصالح من المهاجرين والأنصار والتابعين وتابع التابعين والأئمة الأربعة عليهم السلام وهم أحب الناس لنيهم وأعظمهم في اتباعه وشرعه، فإن كانوا يأتون عند قبره يطلبونه الشفاعة فإن اجتماعهم حجة، والقائل إنه يطلب الشفاعة بعد موته ويورد علينا الدليل من كتاب الله أو من سنة رسول الله أو من إجماع الأمة والحق أحق أن يتبع، انتهى من «الدرر السنية» (٤٦/١).

٩ - وأما اتهام الشيخ أنه يكفر بالعموم ويقاتل المسلمين، فقد أجاب عنه الشيخ بقوله: وأما التكفير فأنا أكفر من عرف دين الرسول ثم بعد ما عرفه سبه ونهى عنه وعادى من فعله فهذا هو الذي أكفر، وأكثر الأمة ولله الحمد ليسوا كذلك، وأما القتال فلم نقاتل أحداً إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة وهم الذين أتونا في ديارنا ولا أبقوا ممكننا، ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِّثْلُهَا﴾، وكذلك من جاهر بسبب دين الرسول بعد ما عرف فإننا نبين لكم أن هذا هو الحق الذي لا ريب فيه وأن الواجب إشاعته في الناس وتعليمه الرجال والنساء، انتهى من «الدرر السنية» (٥١/١).

□ وقال أيضاً لما بين بطلان الذي يفعله القبوريون: فهذا الذي أوجب

(١) يعني: لم يكفر المسلمين ويقاتلهم.

الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر إلى أن كفرونا وقاتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا حتى نصرنا الله عليهم وظفرونا بهم، وهو الذي ندعو الناس إليه ونقاتلهم عليه بعد ما نقيم عليهم الحججة من كتاب الله وسنة رسوله وإجماع السلف الصالح من الأئمة ممثلين لقوله سبحانه وتعالى:

﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩]، فمن لم

يجب الدعوة بالحجة والبيان قاتلناه بالسيف والسنان، كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ

أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا

الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ

قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحديد: ٢٥] انتهى من «الدرر السنية» (١/٥٨)»<sup>(١)</sup>.

□ وقد دافع أهل العلم عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بعد وفاته، وفندوا أباطيل وأكاذيب خصومه، وألفوا في ذلك مؤلفات ضخمة من أشهرها:

١ - «مصباح الظلام في الرد على من كذب على الشيخ الإمام ونسب إليه تكفير أهل الإسلام» في مجلد وهو للشيخ عبداللطيف بن عبدالرحمن ابن حسن من آل الشيخ - رحمهم الله.

٢ - «معارج القبول»، للشيخ الحسين بن مهدي النعمي من علماء اليمن في مجلد.

٣ - «غاية الأمان في الرد على النهاني» للشيخ محمود شكري الألوسي من علماء العراق وهو في مجلدين.

٤ - «صيانة الإنسان عن وسوسة الشيخ دحلان» للشيخ محمد بشير السهسواني الهندي في مجلد، وغير ذلك من الكتب التي ألفت في الذب عن

(١) «من مشاهير المجددين في الإسلام» (ص ٨٣ - ٨٦).

دعوة الشيخ حتى من غير المسلمين .

وهكذا يقبض الله سبحانه للحق أنصاراً في كل زمان تقوم بهم حجة الله على خلقه، فلله الحمد والمنة، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين»<sup>(١)</sup> .

\* ثمرات دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - وآثارها :

إن كل دعوة من الدعوات وكل عمل من الأعمال إنما تعرف قيمته من ثمراته المترتبة عليه ومن أثره الذي يتركه، وإن دعوة الشيخ ولله الحمد لما كانت دعوة خالصة لله مترسمة منهج رسول الله ﷺ مستمدة علمها من الكتاب والسنة صار لها أطيّب الأثر واستمر نفعها وبقي أثرها وأنتجت للأمة خيرات كثيرة منها:

١ - قيام دولة إسلامية هي دولة آل سعود الذين آزروا هذه الدعوة وجاهدوا في سبيلها، ولا تزال هذه الدولة ولله الحمد تحكم بشريعة الله وتخدم الحرمين الشريفين وتشد أزر المسلمين في كل مكان من بقاع العالم بعمارة المساجد والمراكز الإسلامية والتعليمية .

٢ - تصحيح العقيدة الإسلامية مما علق بها من الشركيات والبدع والخرافات وإرجاعها إلى منبعها الصافي من كتاب الله وسنة رسوله، وقد طهر الله كل البلاد التي صار لهذه الدعوة المباركة فيها نفوذ وسلطة من جميع مظاهر الشرك والبدع والخرافات .

٣ - امتداد أثر هذه الدعوة المباركة خارج بلادها حتى انتفع بها من هدفه الحق في مختلف بلدان العالم الإسلامي في الشام ومصر والمغرب العربي وأفريقيا والسودان واليمن والعراق والهند وباكستان وأندونيسيا وغيرها .

(١) المصدر السابق (ص ٩٢ - ٩٣) .

٤ - وجود حركة علمية واعية متحررة من التقليد الأعمى، فانتشر التعليم في المساجد في مختلف مناطق البلاد حتى تخرج فيه علماء أفذاذ في حياة الشيخ وبعدها قاموا بنشر هذه الدعوة ورعايتها إلى يومنا هذا، ثم أسست لهذا التعليم جامعات إسلامية تخرج الأفواج تلو الأفواج من مختلف العالم الإسلامي مسلحين بالعبقيرة الصحيحة والفكر السليم ينتشرون في العالم الإسلامي وغيره للدعوة إلى الله.

٥ - نشاط حركة التأليف والنشر، فقد قدم علماء هذه الدعوة للأمة الإسلامية رصيذاً من الكتب النافعة في الأصول والفروع ومن ذلك:

١ - مؤلفات الشيخ محمد عبدالوهاب إمام الدعوة ويتكون من اثني عشر مجلداً في الفقه والعقائد والتفسير والحديث والسيرة.

٢ - مجموع الفتاوى والرسائل لعلماء الدعوة ويتكون من أحد عشر مجلداً.

٣ - كتب ألفها أئمة الدعوة في مختلف العصور للرد على خصوم الدعوة تبلغ العديد من المجلدات وهي مطبوعة ومتداولة.

٤ - نشر كتب السلف وتوزيعها على المسلمين في موسم الحج وغيره.

٥ - نشر كل مفيد من المؤلفات العصرية وتوزيعها مجاناً<sup>(١)</sup>.

\* العالم الرباني والزعيم السياسي عبدالحميد بن باديس.. يحافظ على

هوية الجزائر العربية الإسلامية:

وُلِدَ الإمام الجليل الشيخ عبدالحميد بن محمد بن مصطفى بن مكّي بن باديس يوم ١١/٤/١٣٠٧هـ، ٤ ديسمبر ١٨٨٩م، وقبيلته هي صنهاجة ولها

(١) المصدر السابق (ص ٨٠ - ٨٣).

دور كبير في مقاومة الشيعة الرافضة .

\* تعليمه :

أتم ابن باديس حفظ القرآن وهو في الثالثة عشرة من عمره على يد الشيخ محمد الماداس، وتلقى علوم العربية والفقه والحديث على يد الشيخ حمدان التونسي، ثم اتجه إلى الزيتونة عام ١٣٢٦ وهناك مكث أربع سنوات، وتلقى فيها علم التفسير على يد الشيخ محمد النخلي، والأدب على يد الشيخ الطاهر بن عاشور، والتاريخ على يد البشير صفر، وكان رحمه الله على رأس قائمة الخريجين .

\* صفاته :

كان للشيخ ابن باديس هبة الإيمان يدركها من عرفه ومن لم يعرفه، وكان الشيخ الإبراهيمي يرى انقياد الناس لابن باديس فلا يتمالك نفسه حتى يقول: «ما أقوى نفوذ هذا الرجل»<sup>(١)</sup>، ويقول تلميذ ابن باديس الشيخ محمد الصالح رمضان - الذي عاش في غرفة ملاصقة لغرفة ابن باديس خمس سنوات «إن للشيخ عبد الحميد بن باديس قوة روحية خارقة سببها الجانب الروحي»<sup>(٢)</sup>.

كان - رحمه الله - زاهداً انتقل من بيت والده إلى غرفة بجوار مسجد قموش، وكان طعامه قليلاً لا يزيد عن الكسرة واللبن وفنجان أو فنجانين من القهوة يومياً. وكان - رحمه الله - إذا دُعِيَ إلى طعام اشترط الاقتصار على

(١) «عبد الحميد بن باديس العالم الرياني والزعيم السياسي» لمازن صلاح مطبقاتي (ص ٣٧) - دار القلم دمشق .

(٢) في مقابلة لمازن مطبقاتي مع محمد الصالح رمضان في منزله في الجزائر في ١٥ نوفمبر ١٩٨٣ - انظر المصدر السابق (ص ٣٧) .

صنف واحد من الطعام، وكان يسأل عن الكسكسي فإن وجدته لم يأكل معه غيره<sup>(١)</sup>.

□ وكان - رحمه الله - يحرص على ارتداء البرنس المنسوج قماشه في الجزائر. ويذكر أحد تلاميذه أنه بينما كان الشيخ يلقي درسه نظر إلى تلاميذه فرأى أحدهم يلبس برنساً مصنوعاً قماشه في فرنسا فقال له: «ما هذا البرنس؟ أما أنا فأفضل الذي صنعته أمي على الذي صنعته ضرتها»<sup>(٢)</sup>.

□ أما عن شجاعته فلا بد من ذكر موقفه حين كان في وفد المؤتمر الإسلامي الذي قابل رئيس الوزراء دلاديه، فتحدث المسئول الفرنسي إلى الوفد مهدداً بقوة فرنسا، فرد عليه ابن باديس: «ونحن لدينا مدفع، إنها مدافع الله»<sup>(٣)</sup>.

□ يقول عنه مراسل جريدة البتي ماتان الفرنسية «الشيخ ابن باديس يمثل حقاً الزعيم الخطيب، فهو قد ملك مقاليد الكلام، وبصوته الجمهوري يستفز الجماهير فيثير الحروب أو ينزل في القلوب سكينه السلام. وهو الرجل الذي وصل في القطر الجزائري إلى درجة عالية من التقدير. وتسير وراء خطواته تسعة أعشار الأمة، أما سمعته فقد احترقت البحار، وأصبح الشرق يعتبره من أكبر رجاله»<sup>(٤)</sup>.

□ ويقول عنه أستاذ في جامعة ستراتسبورغ «هذا الرجل الذي استطاع ألوف من مواطنيه رؤيته والحكم على حياته، ذلك أن برنامج حياته اليومي

(١) المصدر السابق (ص ٣٩).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٨).

(٣) المصدر السابق (ص ٤١).

(٤) المصدر السابق (ص ٤٤) نقلاً عن الشهاب (١٣/٥) - ١٠ يونيو ١٩٣٧.

يوضح لنا بجلاء شخصيته الحقيقية؛ لأنه لا يوجد شخص يستطيع أن يخدع الجميع كل الوقت».

### \* الجزائر أيام الاحتلال الفرنسي :

«كانت الجزائر أول قطر عربي، احتله الفرنسيون خاصة، وتعرض للاحتلال الأوروبي عامة، وكان ذلك عام ١٨٣٠م وطال الاحتلال البغيض إلى عام ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، حين وقع الطرفان ما يعرف باسم معاهدة إيفيان التي حصل بها الجزائريون على استقلالهم بعد ثورة عارمة اشتعلت سنة ١٩٥٤م وهي التي أجبرت المحتل الغاصب على توقيع المعاهدة والانسحاب من الأراضي الجزائرية. والتي كانت جمعية العلماء المسلمين التي أسسها الشيخ عبدالحמיד بن باديس في أواخر حياته المباركة سنة ١٩٢٨م والتي استمر يجاهد من أجل إيجاد نخبة متميزة من العلماء الإيجابيين حتى وفاته سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م، هي الزاد القوي الذي تربي عليه المجاهدون سنة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م.

□ ونعود فنقول: إن فرنسا اتبعت في حكمها للجزائر منذ عام ١٣٤٩هـ/ ١٨٣٠م، سياسة رهيبة، تعتبر بحق نموذجاً لسياسة الاحتلال البشع، حيث ارتكزت دعائمها على الأسس التالية:

- ١ - دمج الجزائر في فرنسا دمجاً كاملاً، وتحويلها إلى أرض فرنسية.
- ٢ - تحويل الجزائر في لغتها وثقافتها وهويتها إلى الفرنسية، وهو ما يعرف باسم الفرنسية، أي فرنسة الجزائر.
- ٣ - عدم النهوض بمستوى الشعب الجزائري وفرض سياسة التخلف عليه.
- ٤ - التفرقة العنصرية بين الشعب الجزائري من عرب وبربر لإشغال

الفتن بينهم .

٥ - اتباع سياسة الاقتصاد المغلق لحساب الاقتصاد الفرنسي، من حيث استثمار كافة الموارد والثروات الطبيعية والأراضي وموارد الرزق، بيد فرنسا .

٦ - ضرب أي حركة وطنية بالقوة وقمع الثورات بمنتهى الوحشية، ومن ذلك ما رواه المؤرخون من أن [قبيلة جزائرية فرت مرة من ظلم وقسوة الفرنسيين، إلى كهوف الجبال، فما كان من الجيش الفرنسي إلا أن ملأ الكهوف أولاً بالدخان، ثم سد مداخلها ببناء الجدران عليها]!!!

ويتميز شعب الجزائر بروح المقاومة الجهادية، لذلك ورغم الاضطهاد اللعين من المحتل الغاصب، إلا أن المقاومة بدأت منذ وطئت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر، الذين اتخذوا من قصة المروحة الشهيرة ذريعة لاحتلال الجزائر وغزوها عسكرياً، إذ ادعت أن الداى حاكم الجزائر، قد أهان قنصل فرنسا سنة ١٨٢٧م حين طالبه بدفع ثمن الحبوب والخيول والجلود والقروض المادية التي مضى على الماطلة في دفع ثمنها خمس وثلاثون سنة، وزعمت أن الداى رمى القنصل بمروحة كانت في يده، فردت على هذه الإهانة المزعومة، بتحريك الأسطول الفرنسي، وفرض الحصار على الشواطئ الجزائرية، ثم قامت بضرب مدينة الجزائر، وإنزال الجنود لحصارها من البر والبحر حتى اضطر الداى رغم المقاومة الباسلة إلى التسليم في ٥ يوليو سنة ١٨٣٠م .

ومع ذلك القهر المسلح لشعب الجزائر، فقد قاد المقاومة المسلحة منذ أول يوم الأمير عبدالقادر الجزائري ولمدة سبعة عشر عاماً، حتى اضطر إلى التسليم، وقبول النفي الاختياري، فاختار دمشق، وظل بها حتى مات سنة ١٨٨٣م ولم تنقطع سلسلة المقاومة ومجاهدة العدو الغاصب، وتوالت الثورات التي قادها نساء ورجال برزوا في تاريخ الجزائر الجهادي مثل، الشهيدة المجاهدة لالا فاطمة سنة ١٨٥٦م، ومحمد المعتزاني سنة ١٢٩٠هـ/

١٨٧١م، وثورة أولاد سيدي الشيخ سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨١م، ثم فترت إلى حين، وحتى قبيل الحرب العالمية الأولى وفي أعقابها استأنف الجهاد عدد من المثقفين والضباط وأسسوا اللجان الوطنية لتنظيم الجهاد، وشكلوا وفداً لعرض القضية على مؤتمر الصلح بباريس، وتأسست جمعية (نجمة شمال إفريقيا) سنة ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م بزعامة مصالي الحاج، التي نادى بحق الجزائريين في تملك أراضيهم، ووجود برلمان يمثلهم، واستخدام اللغة العربية في مناهج التعليم والدوائر الحكومية، لكن قوة البطش المحتلة عملت على حل هذه الجمعية.

وهنا نصل إلى جمعية علماء المسلمين، التي أنشأها الشيخ عبد الحميد ابن باديس<sup>(١)</sup> سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٨م، التي حافظت على هوية الجزائر الإسلامية ولغتها العربية وهي موضوع تفصيلنا. ومن ثم فلنا معها وقفة، ومع مؤسسها ووقفات، لنستلهم الدرس المستفاد، ونقدمه كهدف تربوي يفيد في بعث روح الجهاد بين الأجيال.

\* وقفة مع الصليبيين الفرنسيين قبل الحديث عن «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»:

منذ أن وطئت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر عملوا على محاربة الإسلام لعلمهم بأن الإسلام هو مصدر قوة المسلمين بالجزائر، ورافق حملة الاحتلال مجموعة من القسس ليشهدوا انتصار النصرانية على الإسلام عاقدين العزم على إعادة إفريقيا الشمالية بلداً مسيحياً.

ويؤكد هذا ما قاله لويس فويو كاتب الجنرال بيجو سنة ١٨٤١م (١٢٥٦هـ): «إن العرب لن يكونوا لفرنسا إلا إذا صاروا فرنسيين، ولن

(١) «نماذج من حركات الجهاد الإسلامية الحديثة» لصفوت منصور (ص ٦٥ - ٦٨) - دار التوزيع والنشر الإسلامية.

يكونوا فرنسيين إلا إذا تنصروا»<sup>(١)</sup> .

□ ويرر أحد الفرنسيين سياسة التنصير بقوله: «إن تعصب المسلمين هو الأمر الحقيقي الذي يدعم المقاومة التي نواجهها في أفريقيا، وهذا الدين (الإسلام) الذي احترمناه إلى يومنا هذا نفترح الآن بجرأة محاربه، وهكذا نثبت قومنا وننشر طقوسنا على أنقاض الإسلام».

□ وطالب الأسقف لافيغري - الذي أصبح فيما بعد بمرتبة كاردينال - طالب الحكومة الفرنسية بأن عليها أن تفسح للمنصرين المجال ليقدموا الإنجيل للشعب الجزائري وإلا فعليها أن تطرده إلى الصحاري بعيداً عن العالم المتمدن»<sup>(٢)</sup> .

□ واستولت فرنسا على الأوقاف الإسلامية، وقامت بالاستيلاء على المساجد، وهدمت معظمها وحوّلت بعضها إلى مكاتب وثكنات عسكرية، وسنت القوانين للحد من حرية التعليم الإسلامي، وذلك بالتدخل في مناهج التدريس، ومنعت تفسير القرآن ولا سيما آيات الجهاد.

وفتحت المدارس الفرنسية لتعليم بعض أبناء الجزائر تعليماً فرنسياً لا دينياً يجعل هؤلاء الجزائريين يفخرون بأن بلادهم هي بلاد الغال وأجدادهم هم الغاليون، وأنه ليس هناك وطن اسمه الجزائر، وهذا نص ما قاله أحد أبناء الجزائر المتخرج من هذه المدارس «فما كنت لأموت من أجل هذا الوطن الجزائري»؛ لأن هذا الوطن لا وجود له»<sup>(٣)</sup> . أما تاريخ البلاد الحقيقي فتقله لهم بصورة مشوهة.

(١) «عبدالحמיד بن باديس» لمازن صلاح (ص ٢١).

(٢) المصدر السابق (ص ٢٢)، و«رسالة الأسقف» مؤرخة في ٦ أبريل ١٨٦٨ م.

(٣) «الشهاب» (١٢/١) في محرم ١٣٥٥ هـ - أبريل ١٩٣٦ م (ص ٤٣ - ٤٤).

## \* البعثات التنصيرية :

ومن وسائل الاحتلال في محاربة الإسلام تشجيع البعثات التنصيرية، وعلى رأسها «جماعة الآباء البيض» التي استخدمت أحط الوسائل لتنصير الشعب الجزائري، ومن ذلك اغتنام فرصة المجاعة الكبيرة التي حدثت في الجزائر بين عامي ١٢٨٢ - ١٢٨٤ = ١٨٦٦ - ١٨٦٨م لجمع عدد من الأيتام لتربيتهم تربية مسيحية وتعميدهم. ومن الوسائل الأخرى بناء المستشفيات والحقيقة أن هذه الوسائل اصطدمت بمقاومة الإسلام الصلبة التي شبهتها كاتبة فرنسية بالأسمنت المسلح، وذلك في قولها: «ورد المسلمون الهدية المسمومة لصاحبها الذي قضى حوالي عشرين عامًا ١٨٣٠ - ١٨٥٠م = ١٢٤٥ - ١٢٦٥هـ يُحدث المدارس فلا يجد لها تلاميذ، وينشئ المستشفيات فلا يتردد إليها مريض، وتعددت الصعوبات في وجه المحتل وكثرت، وأصبح الدين الإسلامي كالأسمنت المسلح يحمي من التفكك والاندماج»<sup>(١)</sup>.

□ وقد مضى لافيجري ومساعدوه في نشاطهم التنصيري رغم هذه العراقيل، ولما حقق بعض النجاح طمع في مدّ نشاطه إلى دول المغرب الأخرى، ودول أفريقية أخرى.

□ وكان من أخطر القرارات الفرنسية اعتبار الجزائر قطعة من فرنسا وقسمتها إلى ثلاث ولايات هي: قسنطينة، والجزائر، ووهران، وأصدرت عام ١٢٨١هـ = ١٨٦٥ قرارها المعروف «بسناتوس كونسلت» الذي ينص على أن جميع الجزائريين هم رعايا فرنسيون، ويحق لهم الحصول على الجنسية الفرنسية شريطة أن يتنازلوا عن الاحتكام إلى قانون الأحوال الشخصية

(١) «عبد الحميد بن باديس» (ص ٢٤)، و«الحرب الثقافية في الجزائر المستعمرة الفرنسية» للكتابة الفرنسية يوفانتورين - باريس ١٩٧١ - (ص ٢٥).

الإسلامي. وقد باء هذا القرار بالفشل؛ وذلك أن عدد الذين قبلوا الجنسية الفرنسية حتى عام ١٣٣٧هـ = ١٩١٩م لم يتجاوز خمسمائة وألفي شخص. أما من بقي من الجزائريين على جنسيته الجزائرية الإسلامية فقد أخضعتة السلطات الفرنسية لمعاملة قاسية لا تليق بالعجماءات. وذلك بفرضها على الجزائريين قانونًا خاصًا أسمته الأنديجينا (الأهالي) عام ١٢٩٠هـ = ١٨٧٣م. وهذا القانون يحد من حرية الجزائري، ويجعله عرضة للمحاكمة والغرامة لأتفه الأسباب ومنها الكلام بما لا يليق في فرنسا وحكومتها.

□ قال محمد فريد بك «نائب الزعيم مصطفى كامل» حين زار الجزائر عام ١٩٠١م (١٣١٩هـ): «يُعامل المسلمون في الجزائر بقوانين مخصوصة في غاية الشدة والصرامة، فهم محرومون من حرية الكتابة، وحرية الاجتماع، بل ومن حرية السفر والانتقال، وحرية مطالعة الكتب والجرائد، ومن الغريب في بلاد الجزائر أنه لا يجوز للعربي أن يسافر خارج المركز الذي يقيم فيه»، وقال في مقال آخر: «وصارت الديار مرتعًا للجهل والجهلاء، وكادت تدرس معالم اللغة العربية الفصحى، وتطرقّت إلى اللغة العامية الكلمات الأجنبية بل أصبحت اللغة الفرنسية هي لغة التخاطب في العواصم مثل (وهران وقسنطينة وعنابة وغيرها من السواحل والثغور)»<sup>(١)</sup>.

### \* ابن باديس لله دره:

بعد أن أتم الشيخ ابن باديس دراسته في جامع الزيتونة بتونس، رحل ابن باديس إلى الحجاز، الذي كانت الدعوة السلفية قد ذاعت فيه وانتشرت، «فتشيع بأفكارها حين اتصل بشيوخها من أمثال الشيخ حمدان الونيسي

(١) «الشيخ عبدالحمد بن باديس رائد الإصلاح والتربية في الجزائر» لتركبي رايح (ص ٥٢، ٩٨)، وجريدة «اللواء» الأعداد ٦٠٩ في أكتوبر ١٩٠١م، ٦١٢ في ١٣ أكتوبر ١٩٠١م.

المهاجر الجزائري، والشيخ أحمد حسين الهندي، وقد أشار عليه الشيخ الهندي بالعودة إلى وطنه الجزائر، وخدمة الإسلام فيه قدر الجهد وخدمة اللغة العربية كذلك، وهنا يقول الشيخ ابن باديس: «ورجعنا إلى الوطن بقصد خدمته، فنحن لا نهاجر، نحن حُرَّاسُ الإسلام والعربية والقومية في هذا الوطن».

□ ويعقب الدكتور محمد فتحي عثمان في كتابه: «عبد الحميد بن باديس رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة» على كلمة القومية بقوله (ص ٣٨): «ولم تكن القومية في رأي ابن باديس إلا الحفاظ على شخصية الشعب الجزائري الإسلامية العربية أمام المحاولات الدائبة لفرنسته» وهذا تعقيب هام، حتى لا يظن القارئ المتعجل أن الشيخ - رحمه الله - كان يأخذ بمفهوم القومية العنصري، وهو الذي تربي على الإسلام، الذي ينبذ القومية العرقية، والتي ذمها رسول الإسلام سيدنا محمد ﷺ قائلاً: دعوها فإنها منتنة<sup>(١)</sup>.

### \* التعليم:

«عندما التقى ابن باديس الشيخ البشير الإبراهيمي في المدينة المنورة في حج عام ١٣٣١هـ = ١٩١٣م اتفقا أنهما حينما يعودان إلى الجزائر سوف يبداً حركة علمية يكون فيها التركيز على الكيف لا على الكم. ونظراً لأهمية هذا الموقف نورد هنا نص كلمات الإبراهيمي - رحمه الله - حيث قال: «كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيّه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي

(١) «نماذج من حركات الجهاد الإسلامية الحديثة» للباديسية (ص ٦٩ - ٧٠).

أعدناه من تلامذتنا»<sup>(١)</sup>.

بدأ ابن باديس نشاطه التعليمي في المسجد الكبير بقسنطينة فور عودته من تونس عام ١٢٣٠هـ = ١٩١٢م، ثم انتقل إلى المسجد الأخضر الذي بناه حسين باي عام ١١٥٦هـ، وكتب في صدر المسجد بجوار المحراب أنه بناه للعبادة والعلم. وتلك مسألة لا تحتاج إلى تدوين أو تسجيل فمتى كان المسجد لغير هذا إلا عندما أصبح أصحاب المساجد ليسوا أصحابها. بل ما أجمل بيان ابن باديس في إجلاء هذا الجانب إذ يقول: «المسجد والتعليم صنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام، فما بنى النبي ﷺ يوم استقر في دار الإسلام بيته حتى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه فارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة فكما لا مسجد بدون صلاة كذلك لا مسجد بدون تعليم...»<sup>(٢)</sup>.

إن المناهج والكتب التي أقرأها ابن باديس على أهميتها وعظيم شأنها إلا أنها في نظرنا تحتل مرتبة ثانية بعد أسلوب التعليم والتربية الذي اتبعه ابن باديس. فقد بدأ دروسه بعدد محدود من التلاميذ حتى مع مرور الأيام أصبح هؤلاء التلاميذ طبقات، تكوّنت لهم مؤسسة تعليمية شاملة أشبه ما تكون بجامعات اليوم: تقدّم المسكن والمأوى، والطعام والدواء، والرعاية الاجتماعية والنفسية لطلابها. لقد سار ابن باديس بالمسجد الأخضر خطوات عظيمة حتى أصبح مدرسة لتكوين القادة، وذلك بتربيتهم على الإحساس بما أصاب أمتهم

(١) مقالة «أنا» لمحمد البشير الإبراهيمي - مجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة، العدد ٢١

سنة ١٩٦٦م.

(٢) «عبد الحميد بن باديس» تقرير في التعليم المسجدي، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين المنعقد بمركزها العام - نادي الترقى بالجزائر عام ١٣٥٤هـ = ١٩٣٥م، أعيد نشره مصوراً عن الأصل (ص ١٠٤).

من الوهن والضعف، وتعويدهم على الإحساس بأن مسؤوليتهم ليست مجرد تلقّي العلم وتلقينه بل إنقاذ أمتهم مما وصلت إليه. ولم نذكر الجامعات الإسلامية كالزيتونة والقرويين والحرمين؛ لأن تلك المعاهد كان يتخرج فيها العلماء وينبغ منهم أحياناً بعض القادة.

أما الجامع الأخضر فإنه شابه هذه المعاهد بروح ابن باديس وفكره. وليس القصد من القادة الذين يتسّمون المناصب والزعامة فإنهم قادة بالفعل لما تحمّلوه في سبيل إحياء الشعب الجزائري بعد سنين طويلة من الاحتلال.

□ ولا تحسبن ما وصفنا به مدرسة ابن باديس مبالغةً أو إعجاباً عاطفياً؛ فإن الطالب حين يلتحق بالمسجد الأخضر يجد نفسه في مؤسسة تعليمية تحرص عليه علمياً وأخلاقياً واجتماعياً ومادياً حرص والديه أو أكثر، وما جولات ابن باديس في القطر الجزائري شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً إلا لبناء الجزائر على أسس مقبسة من روح الإسلام وحضارته. حتى إذا تيسر له عام ١٣٥٣هـ = ١٩٣٤م أن يضمّ الجامع الأخضر من أبناء الجزائر من يمثلون جميع جهاتها بدأ العمل الفعلي لصهرهم في بوتقة الإسلام الذي لا يفرق بين عربي وأمازيغي أو كتامي وصنهاجي وزناتي أو عربي من الحضرة أو من البدو. . ولا يفرق بين متبع لمالك أو لأبي حنيفة.

□ لم يكن ابن باديس مجرد أستاذ بل كان أخاً أكبر لكبيرهم، وأباً لصغيرهم ورفيقاً لمن قارب سنّه سنّه. فكان من اهتمامه بالتلاميذ أنه كان يستقبلهم حين وصولهم إلى قسنطينة ويودعهم واحداً واحداً حين سفرهم بعد انتهاء السنة الدراسية. يوصيهم بنشر العلم والسلوك الذي يمثل الإسلام في أبهى صورة وأجملها حتى يكونوا دعاةً صادقين في دعوتهم. أما أثناء وجودهم في قسنطينة فقد اختار العرفاء ليكونوا أولاً عوناً لزملائهم في حل مشكلاتهم، وثانياً ليراقبوا سلوكهم ولا سيما أنه كان بقسنطينة جالية أوروبية

تعيش حياتها الأوروبية اللاهية المارقة. وكان في المدينة حيًّا لليهود تشيع منه الفساد والفجور. ومع وجود العرفاء والأساتذة المساعدين فقد كان - رحمه الله - يتعهد طلابه بنفسه حيث يستيقظ قبل الفجر ويمرّ عليهم في مقر سكناهم.

□ وهناك مسألة هامة تغفل عنها برامج التربية والتعليم في عالمنا الإسلامي اليوم رغم معرفة المربيين لها وهي الصلة بين المدرسة والبيت، وقد أدرك هذا ابن باديس فكان يلتقي بالأبء في أماكن عملهم ويخصّص لهم جزءاً من وقته فيلقي عليهم الدروس فيه.

□ ولما كان تلاميذ الجامع الأخضر ليسوا من قسنطينة وحدها فقد كانت رحلاته التي ستتكلّم عليها فيما بعد تؤدي هذه المهمة فهو غالباً ما يتعرف إلى الأبء قبل أن يلتحق أبناءهم بالجامع الأخضر، وكم أقنع شيخ زاوية أو رئيس قبيلة أن يبعث ابنه ليتلقّى التعليم في الجامع الأخضر، ومن أبرز هؤلاء الفضيل الورتلاني والسعيد الصالحي وعمر دردور وغيرهم.

لم تكن تربية عند ابن باديس ملء أذهان الطلاب بالمعلومات بل تعدّتها إلى التربية المتكاملة التي تؤدي إلى رفع مستوى الوعي الفكري والسياسي والاجتماعي والأخلاقي. وهذا ما أشار إليه أحد الباحثين في تعليقه على إدخال مقدمة ابن خلدون في مناهج الجامع الأخضر<sup>(١)</sup>، ذلك أن ابن خلدون عاش حياة سياسية حافلة.

□ كذلك اهتم ابن باديس بالبيئة فقد كانت الكتب المصرية هي التي يتم تدريسها في أنحاء الجزائر المختلفة فنأدى ابن باديس بإعطاء هذه المسألة ما تستحقه من العناية والاهتمام.

(١) «ابن باديس حياته وآثاره» (١/١١٧).

إن اهتمام ابن باديس بالجوانب المختلفة من الشخصية الجزائرية قاده إلى التفكير بالتدريب العسكري فكان يسأل تلاميذه من منكم أدى الخدمة العسكرية فيطلب منهم أن لا ينسوا الرمي، وينبههم إلى أن البلاد ستحتاج إليهم يوماً ما. وكان ممن أدى الخدمة العسكرية الفضيل الورتلاني<sup>(١)</sup>. وقد ظهر هذا عندما أسست جمعية شباب المؤتمر الإسلامي واتخذت النظام العسكري في زي أعضائها وفي طريقة تنظيمها<sup>(٢)</sup>.

أمام هذا النشاط العلمي لابن باديس كانت هناك حركة فكرية تغريبية تنادي بالاندماج التام في فرنسا وكان لهذه الفئة صحافتها الخاصة، وأبرزها صحيفتا «الأهالي» و«صوت المتواضعين»، وقد ظل هذا التيار قوياً حتى بعد انتشار حركة الشيخ عبدالحמיד بن باديس. حتى إن أحدهم كتب ينفي وجود وطن جزائري ويؤكد أنه فرنسي وأمه هي الأمة الفرنسية، فرد عليه ابن باديس بأن الأمة الجزائرية موجودة ومتكونة منذ أقدم الأزمان، وأن الجزائر ليست فرنسا ولا يمكن أن تكون فرنسا ولو أرادت أن تكون كذلك. ولم تسع فرنسا إلى زيادة أفراد هذه الفئة، وإنما سعت إلى تمكينهم وتقوية شوكتهم بما مكنت لهم من المناصب والمكانة القيادية في المجتمع.

بدأ ابن باديس عمله فردياً، ولكنه كان يخطط إلى الانتقال إلى العمل الجماعي المنظم. وكان أول برهان على هذا التخطيط لقاؤه بالإبراهيمي في المدينة المنورة الذي أثمر عن إعداد عدد كبير من التلاميذ ليكونوا جنوداً في جيش الدعوة الإسلامية. وقبل أن ينشئ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (١٣٤٩هـ = ١٩٣١م) بسبع سنوات فكر في إنشاء جمعية الإخاء الإسلامي

(١) أحمد حماني، هل كان ابن باديس يفكر في الثورة ويعمل لها؟ العصر: العدد ٨٥ في

٥ رجب ١٤٠٣هـ = ١٨ أبريل ١٩٨٣م.

(٢) «عبدالحמיד بن باديس» (ص ٥١ - ٥٥).

من علماء قسنطينة. ولما لم تنهيا الظروف لمثل هذه الجمعية ظلت الفكرة في ذهنه، فبدأ بالدعوة إليها بعد التفكير في الجمعية الأولى بسنة منذ الأعداد الأولى لجريدة الشهاب.

وحتى لا يضيع الوقت قبل أن تنشأ جمعية تضم علماء الجزائر من جميع أرجائها قام بتأسيس جمعية التربية والتعليم الإسلامية عام ١٣٤٩هـ = ١٩٣١م. وصادقت الحكومة على قانونها الأساسي في مارس ١٩٣١م شوال ١٣٤٩م أي قبل تأسيس جمعية العلماء بشهرين. وكان هدف هذه الجمعية وفقاً لما جاء في القانون الأساسي: نشر الأخلاق الفاضلة والمعارف الدينية والعربية، والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين. وأما الوسائل الموصلة لهذه الأهداف فهي تأسيس مكتب للتعليم ليدرّس فيه الذين لا يجدون مكاناً في المدارس الفرنسية، وليقدم التعليم الإسلامي للذين يتلقون العلم في المدارس الفرنسية. وكذلك إنشاء ملجأ للأيتام حماية لهم من الوقوع في أيدي المنصرّين، ونادٍ للمحاضرات لنشر الثقافة الإسلامية لمن لا يتمكنون من حضور الدروس في المساجد، ومعمل للصنائع تنبيهاً للأمة على أهمية الصناعة وللقضاء على البطالة، وأخيراً إرسال التلاميذ على نفقتها إلى الكليات والمعامل الكبرى<sup>(١)</sup>.

وقد اختير الشيخ عبد الحميد رئيساً لهذه الجمعية، وظل يرعاها ويهتم بها حتى إذا كان عام ١٩٣٨م = ١٣٥٧هـ وأصبح هناك عدد من الخريجين فكّر في إرسالهم إلى مصر وسوريا، وقد تم إرسال بعثة إلى مصر وكان يشرف عليها الفضيل الورتلاني.

(١) «ابن باديس حياته وآثاره» (١/١١٤ - ١١٥).

## \* تعليم المرأة:

أدرك ابن باديس - رحمه الله - أن المجتمع لا يستطيع أن يتقدم إلى الأمام وشطره يقبع في ظلمات الجهل، كما أدرك أن التعليم الأجنبي سيؤدي إلى تكوين جيل لا ينتمي إلى الجزائر وفكرها وعقيدتها.

□ كَتَبَ ابن باديس في أحد مقالاته مؤكداً «أن البيت هو المدرسة الأولى، والمصنع الأصلي لتكوين الرجال، وتدين الأم هو أساس حفظ الدين والخلق، والضعف الذي نجده من ناحيتهما في رجالنا معظمه نشأ من عدم التربية الإسلامية في البيوت وقلة تدينهن»<sup>(١)</sup>.

□ ويقول في مناسبة أخرى: «لماذا تعاقب المرأة بعلمها؟ هل العلم وردٌ صفاً للرجال ومنهّلٌ كدر للنساء؟ هل له تأثيران حسن على فكر الذكور قبيح على فكر الإناث؟»<sup>(٢)</sup>.

أما الخطوات العملية التي اتخذها ابن باديس في هذا السبيل فإنه لما تأسست جمعية التربية والتعليم حرص - رحمه الله - أن يتضمن قانونها الأساسي أن يكون تعليم البنات مجاناً (سواء كن قادرات على دفع مصاريفه أم عاجزات عن دفعها وذلك تشجيعاً لهن على الإقبال على الدراسة)<sup>(٣)</sup>.

وزيادة على هذا فإنه كان يتصل شخصياً بالمواطنين يحثهم على إرسال بناتهم إلى مدرسة جمعية التربية والتعليم، وكان يفعل ذلك أثناء جولاته في أنحاء القطر، ويطلب من زملائه العلماء الدعوة إلى تعليم المرأة.

ولم يكن كافياً أن تتعلم الفتيات الصغيرات فقد خصّص دروساً للنساء

(١) «الشهاب» (ج ٨ م ١١)، غرة شعبان ١٣٥٤هـ - نوفمبر ١٩٣٥م.

(٢) «المنتقد» العدد ٨ في ٣٠ محرم ١٣٤٤هـ = ٢٠ أغسطس ١٩٢٥.

(٣) «الشهاب» (ج ٢ م ٧٥/١١٧ - ١١٧) غرة شوال ١٣٤٩هـ = مارس ١٩٣١م.

في المسجد الأخضر وغيره من مساجد قسنطينة، وكن يحضرن بأعداد كبيرة حتى ضاقت عليهن جنبات المسجد المخصصة للنساء.

ولنا أن نساءل لماذا كل هذا الاهتمام بتعليم المرأة؟

إن داعية كابين باديس لم يكن ليخفى عليه ما يدبر للمرأة المسلمة خفية وعلائية. ولم يكن منعزلاً بعيداً عن ساحة المجتمع. فكما كان بعض الجاهلين بالإسلام يحرصون على إبقاء المرأة جاهلة، كان في الطرف الآخر من يدعوها إلى الخروج غير المنضبط، بل وتلقي العلوم الغربية. فقد أدركت الدراسات الاستشراقية التنصيرية والاستعمارية ما يمكن أن يؤديه تعليم المرأة تعليماً غريباً من تحولات اجتماعية نحو التخريب. فما إن صدر كتاب قاسم أمين «تحرير المرأة» حتى صفقوا له وهللوا. وكانوا يدركون أن التخريب يكون أبلغ إذا كان من الداخل، فقد ذكرت الوثائق الفرنسية أهمية كتاب الطاهر الحداد «امراتنا أمام الشريعة والمجتمع» الذي نادى فيه بأن الشريعة الإسلامية لم تكتمل في عهد صاحب الرسالة ﷺ وأن المجال مفتوح لمزيد من التشريعات بخصوص المرأة بإعطائها مزيداً من الحقوق وبمعنى أدق تقليد المرأة الغربية<sup>(١)</sup>.

### \* رحلاته الدعوية:

□ إن الشمولية في المنهج الإسلامي تمتثل في جميع أعمال ابن باديس.. وقد عمّت رحلاته الدعوية وشملت أرجاء وطنه الجزائري، وقد كان ابن باديس يهدف من هذه الرحلات إلى ما يلي:

١ - التعرف على وطنه الجزائر؛ لأن المشاهدة خير من السماع لمعرفة البيئة التي سيدعو فيها ومن ذلك أيضاً الالتقاء بالعلماء وطلبة العلم وحثهم

(١) «امراتنا أمام الشريعة والمجتمع» للطاهر بن حداد (ص ٢٠) الطبعة الرابعة تونس.

على نشر الدعوة.

٢ - مقابلة شيوخ الطرق الصوفية وإجراء الحوار معهم للرجوع إلى الكتاب والسنة في زهدهم وتصوفهم، وإقناعهم بنبذ الخرافات، وتشجيعهم على إرسال أبنائهم لتلقي العلم على يديه في قسنطينة.

٣ - معرفة المشكلات التي تعاني منها المناطق المختلفة والعمل على حلها بقدر المستطاع، وتنبية المناطق الأخرى إلى الاحتراز من مثل هذه المشكلات، وذلك بإلقاء دروس عامة حولها، وقد تكون هذه الدروس بناء على اقتراح بعض علماء المنطقة التي يزورها.

٤ - التعرف على نشاط التنصير والاستشراق والاستعمار في جذب بعض الجزائريين نحو فكره وثقافته ودعوته، وإبطال كيد هؤلاء بالتأكيد على وحدة الجزائر المنبثقة من الإسلام. فهذا هو عالم من قسنطينة (شرق الجزائر) يزور الغرب والجنوب والشمال، ويشعر بأنه بين أهله في كل مكان ليؤكد هذا الإحساس لدى الشعب الجزائري.

٥ - زيارة إخوانه الجزائريين في أماكن عملهم كالمؤسسات التجارية والمعامل والمصانع والمزارع وعدم الاقتصار على المسجد والمدرسة. وقد يحضر في هذه الرحلات مناسبات اجتماعية مختلفة كالزفاف والختان والعقيقة ويستفيد منها في توجيه الحديث إلى الحاضرين. وهذا يؤكد دور الداعية وأنه لا ينتظر أن يأتيه المدعوون، وكذلك أن التهديد بمنعه من الوعظ في المساجد لن يوقف دعوته فهناك أماكن كثيرة يمكن أن تنطلق فيها الدعوة إلى الله.

\* الصحافة:

ظهرت أولى الصحف الجزائرية القوية وهي «جريدة النجاح» عام ١٣٣٧هـ = ١٩١٩م وساهم فيها ابن باديس تأسيساً وتحريراً.

وكانت مقالاته تظهر باسم مستعار هو القسنطيني والعسبي والصنهاجي، ولما رأى أن هذه الصحيفة غير قادرة على إحداث الهزة العنيفة لإيقاظ الشعب الجزائري كما تصور هو، تركها ليؤسس صحافته الخاصة به .  
وبالنسبة لتركه جريدة «النجاح» فمن الضروري أن نوضح أمراً هاماً وهو أن هذه الصحيفة لم تؤيد الاستعمار وتقف في وجه الإصلاح إلا في السنة الثانية لتأسيس جمعية العلماء ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م فقد كانت تورد أخبار الجمعية في سنتها الأولى باهتمام وتقدير بالغين. أما أخبار الشيخ عبدالحמיד بن باديس فقد كانت موضع رعاية من الصحيفة حتى ذلك التاريخ، وهناك من أخبار ابن باديس ما انفردت به صحيفة النجاح.  
ولقد تخصص باحثون جزائريون في نشاط الشيخ ابن باديس الصحفي على رأسهم الدكتور محمد ناصر في كتبه المختلفة.

□ سعى ابن باديس إلى تحقيق عدد من الأهداف من مشاركته في الحركة الصحفية الجزائرية منها:  
١ - المشاركة في هذه الحركة بالكتابة في القضايا التي تهم الشعب الجزائري.

٢ - تأكيد الشخصية العربية الإسلامية للجزائريين وذلك بالقيام بنشر الوعي الديني، والذب عن العقيدة الإسلامية مما خالطها من المعتقدات الباطلة.

٣ - جعل الصحافة منبراً حراً لتبادل الآراء والأفكار، وفتح المجال أمام الناشئة وتعويدهم على الكتابة السليمة الهادفة.

□ قام - رحمه الله - بتأسيس صحيفة «المتقد» في ١١/١٢/١٣٤٣هـ (٧/٢/١٩٢٥م) وكتب في افتتاحيتها:

«وسنسلك في انتقادنا طريق الحقيقة المجردة والصدق والإخلاص

والنزاهة والنظافة في الكلام..» ويمضي قائلاً: «هذه مبادئنا هي مبادئ الصحافة الحرة التي هي قوة لا غنى لأي أمة عنها، ولا رقي لأمة ناهضة بدونها»<sup>(١)</sup>.

□ وشنّ ابن باديس حملة على الأوضاع المخالفة للكتاب والسنة، وعلى الطرق الصوفية الضالة، لكنه لم يصدر منها سوى ثمانية عشر عدداً بعد أن تنبّهت سلطات الاحتلال إلى خطورة أسلوبه المتميز في الكتابة. فأصدر مجلة «الشهاب» لتعبر عن أهدافه ومقاصده. وبعد تأسيس جمعية العلماء صدرت صحفها «السنة» و«الشرعية» و«الصراط» ثم «البصائر».

#### \* مجالات نشاطه الصحفي :

كما ذكرنا سابقاً أن نشاطات ابن باديس يصعب تقسيمها فكذاك نشاطه الصحفي الذي يأخذ من الإسلام شموليته، ولكن لضرورة البحث يمكن تقسيم مساهمته في الصحافة إلى عدة أقسام:

أولاً: مجالس التذكير: وهذه وإن كان بالإمكان جعلها تحت الكتابات الدينية ولكن لأن الإسلام ليس ديناً بالمعنى المعروف عند الغرب أو ما أصبح يفهم من كلمة دين في الوقت الحاضر لدى كثير من المسلمين فلذلك تركنا العنوان كما هو. ومجالس التذكير اتخذت من الكتاب والسنة منطلقاً للدعوة وهي نوعان:

أ - دروس التفسير، تحت عنوان «مجالس التذكير في تفسير كلام العليم الخبير»، وهي عبارة عن بعض دروسه في التفسير التي ألقاها في درسه الليلي

(١) «المنتقد» العدد الأول في ١١ ذي الحجة ١٣٤٣هـ (٢ يولية ١٩٢٥).

في المسجد، أو ما ألقاه على تلاميذه، وفي ذلك يشهد له الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، خليفته على رئاسة جمعية العلماء، فيقول عنه في مقدمة تفسير ابن باديس:

... انتهت إمامة التفسير - بعد موت الشيخ محمد رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده وترجمان أفكاره - في العالم الإسلامي كله، إلى أخينا وصديقنا، ومنشئ النهضة الإصلاحية العلمية بالجزائر، بل وبالشمال الإفريقي (عبد الحميد بن باديس).

□ وفي تفسيره للآيات يتعرّض للحديث عن الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية. ولئن كانت هذه الأحاديث قد جمعت في كتاب بعد وفاته بقليل إلا أنها تستحق دراسات مختلفة منها تعرف منهج ابن باديس - رحمه الله - في التفسير وفي شتى مناحي الفكر.

□ ففي الفكر السياسي نجد ابن باديس يصف لنا القائد وما يجب أن يتحلى به من مزايا من خلال تفسيره لآيات من سورة النمل وهي: ﴿حَتَّىٰ إِذَا تَوَّأْنَا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. فيقول ابن باديس: «هذه نملة وفّت لقومها وأدت نحوهم واجبتها فكيف بالإنسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه! هذه عظة بالغة لمن لا يهتم بأمور قومه ولا يؤدي الواجب نحوهم ولن يرى الخطر داهماً لقومه فيسكت ويتعامى ولن يقود الخطر إليهم ويصبه بيده عليهم، أه ما أحوجنا معشر المسلمين إلى أمثال هذه النملة»<sup>(١)</sup>.

كما أنه من خلال تفسير آيات أخرى يوضح ما هي الحضارة الحقّة ومن هم عباد الله الصالحون الذين أورثهم الأرض، وأن هؤلاء ليسوا الأوروبيين

(١) «الشهاب» (ج ٤ م ١٥) - ربيع الثاني ١٣٥٨ هـ = مايو ١٩٣٩ م.

وذلك حين فسَّر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. حيث قال: «رأى بعض الناس المدينة الغربية المسيطرة اليوم على الأرض، وهي مدينة مادية في نهجها وغايتها ونتائجها. فالقوة عندها فوق الحق والعدل والرحمة والإحسان - فقالوا: إن رجال هذه المدينة هم الصالحون الذين وعدهم الله بإرث الأرض، وزعموا أن المراد بـ «الصالحون» في الآية الصالحون لعمارة الأرض، فيا الله للقرآن وللإنسان من هذا التحريف السخيف كأن عمارة الأرض هي كل شيء ولو ضلت العقائد وفسدت الأخلاق واعوجت الأعمال وساءت الأحوال وعذبت الإنسانية بالأزمات الخائفة وروعت بالفتن والحروب المخربة الجارفة، وهددت بأعظم حرب تأتي على الإنسانية من أصلها والمدينة من أساسها»<sup>(١)</sup>.

❏ ولما ختم ابن باديس دروس التفسير التي استمرت سنين طويلة قال له لسان جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الشاعر محمد العيد آل خليفة قصيدة جميلة منها:

بمثلك تعتز البلاد وتفخر  
وتزهر بالعلم المنير وترخُرُ  
طبعت على العلم النفوس نواشئاً  
بمخبر صدق لا يدانيه مخبرُ  
نهجت لها في العلم نهج بلاغة  
ونهج مفاده كاتك حيدرُ

(١) «مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» لابن باديس (ص ٢١٠) عن الشهاب (ج ٦ ١١م) في جمادى الثانية، ١٣٥٢هـ (سبتمبر ١٩٣٥م).

حَبَّتْكَ عَمَلَاتُ الْجَزَائِرِ حُرْمَةً  
 مُشْرِقَةً عَظْمِي بِهَا أَنْتَ أَجْدَرُ  
 فِي كُلِّ وَقْدٍ رَاشِدٍ لَكَ دَعْوَةٌ  
 وَفِي كُلِّ حَفْلٍ حَاشِدٍ لَكَ مَنِيرُ  
 يِرَاعُكَ فِي التَّحْرِيرِ أَمْضَى مِنَ الطَّيْبِي  
 وَأَمْضَى مِنَ الْأَحْكَامِ أَيَّانَ يُشْهَرُ  
 وَدَرْسُكَ فِي التَّفْسِيرِ أَشْهَى مِنَ الْجَبِي  
 وَأَبْهَى مِنَ الرُّوضِ النَّضِيرِ وَأَبْهَرُ  
 خَتَمْتَ كِتَابَ اللَّهِ خَتْمَةَ دَارِسٍ  
 بِصَيْرٍ لَهُ حَلُّ الْعَوَيْصِ مَيْسِرٌ<sup>(١)</sup>

### (ب) مجالس التذكير من كلام البشير النذير:

وهو عبارة عن شرح للأحاديث النبوية الشريفة، وهو يدرس الحديث  
 دراسة عميقة تبدأ من السند يبين درجته من الصحة والحسن، ثم ينتقل إلى  
 شرح مفرداته، وبعد ذلك يستنبط الدروس والعبر. ولنضرب على ذلك مثلاً  
 نذكر منه الدروس والعبر التي استنتجها ابن باديس. ففي حديث قال رسول  
 الله ﷺ: «إِذَا سَمِعْتَ الرَّجُلَ يَقُولُ هَلْكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ» رواه مالك،  
 عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة ومسلم، عن يحيى، عن  
 أبي يحيى، عن مالك. ومما جاء في تعليقه على هذا الحديث تحت عنوان:  
 أصل عام في التربية: «هذا الحديث أصل عظيم في التربية المبنية على علم  
 النفس البشرية. فإن النفوس عندما تشعر بحرمتها وقدرتها على الكمال  
 تنبعث بقوة ورغبة وعزيمة لنيل المطلوب، وعندما تشعر بحقارتها وعجزها

(١) مجالس التذكير (ص ٤٦٤).

تقعد عن العمل وترجع إلى أحط دركات السقوط، وهذا الحديث يحذر من تحقير الناس وتقنيطهم»<sup>(١)</sup>.

\* ثانياً: رجال السلف ونساؤه وبعض الأعلام المعاصرين:

وإننا من خلال دراسة النماذج التي قدمها ابن باديس ندرك أنه لم يختار هؤلاء بصورة عفوية بل كانت بناءً على دراسة ووعي وفهم. ومن ذلك قدم ترجمة لعبادة بن الصامت رضي الله عنه أوضح من خلالها مزية أن يكون الإنسان «قويًا في دين الله لا تأخذه في الحق لومة لائم»، وأن يكون «صلبًا في دين الله يوالي في الله ويعادي في الله». وأوضح أن عبادة رضي الله عنه كان له موالي من اليهود؛ ولكن لما رأى عداوتهم للإسلام وترتبصهم بأهله جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: «إن لي موالي من اليهود كثير عددهم وإني أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم وأتولى الله ورسوله».

\* وفيه وفي عبدالله ابن أبي الذي لم يترك مواليه من اليهود نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٢]. أما الدرس الذي يستخلص من قصة عبادة أن عبادة هو «أول من سن سنة رفض ولاية مواليه لما رأى منهم الشر وتولى الله ورسوله»<sup>(٢)</sup>.

كما أنه ترجم لبعض العلماء والزعماء المعاصرين قائلًا: «إنما تُقاس

(١) «عبد الحميد بن باديس»، مجالس التذكير من كلام البشير النذير: (ص ٨٢)، عن

«الشهاب» (ج ٣ م ١٠) في ذي القعدة ١٣٥٢ هـ = ١٥ فبراير ١٩٣٤ م.

(٢) «الشهاب» (ج ١ م ١٠) في رمضان ١٣٥٢ هـ (يناير ١٩٣٢ م).

الأمم بما تنتجه من الرجال وإنما تكون منجبة للرجال يوم تصير تعرف أقدار العاملين من أبنائها».

□ فقال عن الشيخ رشيد رضا «لقد كانت غايته السياسية إيجاد دولة إسلامية كبرى مرهوبة الجانب تكون مركزاً للأمم الإسلامية في العالم بصفة دينية إذا لم تكن بصفة سياسية»<sup>(١)</sup> وتكلم عن أثره فقال: «وهو الذي لفت المسلمين إلى هداية القرآن وهو الذي دحر خصوم الإسلام من المتيمين إليه وغير المتيمين إليه، وهتك أستارهم حتى صاروا لا يحرك أحد منهم أو من أشباههم يده إلا أخذ بجنايته. فهذه الحركة الدينية الإسلامية الكبرى اليوم في العالم - إصلاحاً وهداية، بياناً ودفاعاً - كلها من آثاره»<sup>(٢)</sup>.

□ وتكلم عن الأمير خالد بن الهاشمي، وعودته للجزائر عقب الحرب العالمية الأولى وتقلده رئاسة الواجهة الإسلامية «تدافع عن حقوقها دفاع البطل المستميت، وتقوم بحملتها في فرنسا وفي الجزائر بواسطة الخطب والصحف وبواسطة الدعاية والنشريات المختلفة، حتى إذا ضاق الاستعمار به ذرعاً أبعد عن البلاد)، ويتحدث ابن باديس عن محاولة أعداء الأمير تشويه سمعته بعد مغادرته البلاد وإلصاق التهم به فقال في ذلك: «إنما الأمة الإسلامية في القطر الجزائري لا تزال ولن تزال تحتفظ بذكرى الأمير الجليل والزعيم المبجل كما تحتفظ أشرف الشعوب بأقدس الذكريات»<sup>(٣)</sup>.

### \* ثالثاً: القضايا المعاصرة:

ما كان ابن باديس العالم المنعزل في برج عاجي لا يعرف من الإسلام إلا فتوى في المولد أو زكاة أو صيام أو صدقة فطر أو نذر - ومع أنه كان

(١) «الشهاب» (ج ٩ م ١١) في رمضان ١٣٥٤هـ = ديسمبر ١٩٣٥.

(٢) «الشهاب» (ج ١١ م ١١) غرة ذي القعدة ١٣٥٤هـ = فبراير ١٩٣٦م.

يعلمها ويعلمها - بل إنه عاش قضايا المسلمين الكبرى، وكان يبحث ليعلم ويعلم ولينفع وليغير. كان يدرك دوره تماماً فقد جاء الاستعمار إلى البلاد يريد فرض ثقافته وانحرافات ومادياته وعقلانيته، وانجرف نفر من الشباب الجزائري مع هذا التيار، فكتب ابن باديس حول هذه الثقافة الجديدة قائلاً: «قمنا بالدعوة إلى ما كان عليه السلف الصالح من التمسك بالقرآن الشريف والصحيح من السنة الشريفة وقد عرف القائمون بتلك الدعوة ما يلاقونه من مصاعب وقحم في طريقهم من وضع الذين شَبُّوا على ما وجدوا عليه آباءهم من خلق التساهل في الزيادات والذبول التي ألصقتها بالدين المغرضون أو أعداء الإسلام الألداء والغافلون من أبناء الإسلام»<sup>(١)</sup>.

□ ثم يحدد أهداف الدعوة هذه ومنها:

«انتشال الشباب المثقف بالثقافة الجديدة من وهدة الشك في كل شيء يُعزى إلى الدين بسبب ما يجده فيه من خرافات وسخافات لا يمكن للعقل أن يصدقها وأن يعزوها إلى دين اشتهر باتصاله بالعقل اتصالاً وثيقاً؛ بحيث لا يقبل من تعاليمه ما لا يقبله العقل وما لا يدخل في دائرة الوعي السليم. وقد كان الإقدام على انتشال هذه الطبقة من الشباب من أوكد الواجبات في مثل هذا الظرف الذي طغى فيه تيار المادة على كل شيء سيما وقد أوشك الإلحاد والمروق من الدين أن يبترا تلك الطبقة التي هي عدتنا من المجتمع الجزائري، وقد شجّعها على ذلك ما تقرؤه وتطلع عليه من حين لآخر من سخافات الطقوس المسيحية ونحوها»<sup>(٢)</sup>.

\* التجنس:

كذلك انتشرت موجة في الجزائر تدعو إلى الدخول في الجنسية الفرنسية

(١) المرجع نفسه: (ج ٢م ٨) غرة شوال ١٣٥٠هـ = ١٩٣٢م.

(٢) المصدر السابق.

والحصول على الحقوق السياسية والاجتماعية التي يتمتع بها المتفرنسون. وقد كانت سياسة ابن باديس أن يوضح حكم الإسلام في التجنس وأن ما يقتضيه من رفض أحكام الشريعة الإسلامية بعضها أو كلها يُعدّ ارتداداً عن الإسلام وخروجاً منه، ويترك هؤلاء وما اختاروا لأنفسهم. فلما عقد المتجنسون اجتماعاً في أوائل أبريل ١٩٣٤م = ذي الحجة ١٣٥٣هـ للمطالبة بتسهيل التجنس لزيادة عددهم، فيقول: «غير أننا لا نستجيز السكوت عنهم إذا رأينا منهم دعاية لتوسيع نطاق التجنس إذ في ذلك محاولة إضعاف الإسلام باختطاف الضعاف من بنيه ومجاورة لحدود النظر لأنفسهم بالإغراء لغيرهم»، ثم يدعوهم أن: «يكفوا عن الدعاية ويتفرغوا للحصول على الحقوق التي أرادوها مقابل ما «ارتكبوا» والتي ينالها كلها أخط أوروبي بمجرد التجنس وهم ما يزالون ولن يزالوا يحاولون استكمالها»<sup>(١)</sup>.

□ وعندما أعلنت جمعية العلماء أنها كلفت رئيسها بالرد على أسئلة الناس واستفتاءاتهم وقدّم إليه الكثير من الأسئلة من الجزائر وتونس حول التجنس قالها مرة أخرى بصراحة لم تُعرف عن كثير من علماء شمال أفريقيا حينئذ فكتب يقول: «التجنس بجنسية غير إسلامية يقتضي رفض أحكام الشريعة ومن رفض حكماً واحداً من أحكام الإسلام عدّ مرتدّاً عن الإسلام بالإجماع، فالمتجنس مرتد بالإجماع»<sup>(٢)</sup>. ثم وضح القضايا المختلفة المتعلقة بالتجنس ونسله وزواجه من امرأة من جنسية غير إسلامية. والمقصود بهذا كله الجنسية الفرنسية. ويشير ابن باديس في آخر الفتوى إلى أن سؤالاً وردّه من رئيس المتجنسين بتونس فكانت هذه الفتوى إجابة له<sup>(٣)</sup>.

(١) «الشهاب» (ج ٥ م ١) مرم ١٣٥٣هـ = ١٦ أبريل ١٩٣٤م.

(٢) «البصائر» العدد ٩٥ في ١٢ ذي القعدة ١٣٥٦هـ = ١٤ يناير ١٩٣٨م.

(٣) المرجع نفسه.

## \* الوحدة العربية:

ولقد كان من بين القضايا المثارة في الصحف العربية الوحدة السياسية للأمة العربية فحدثت مناظرة بين شكيب أرسلان وسليمان الباروني وكان من رأي الأمير شكيب أنه من الصعب بل من المستحيل أن تجتمع دول في وحدة وهم لا يملكون زمام أمرهم فكان للشيخ عبد الحميد رأي في هذه المسألة مفاده أن «الوحدة السياسية لا تكون إلا بين شعوب تسوس نفسها فتضع خطة واحدة تدير عليها في علاقاتها مع غيرها من الأمم وتتعاقد على تنفيذها والدفاع عنها يداً واحدة».. ثم يشير إلى أن الدول التي حققت استقلالها يجب عليها أن تتحد<sup>(١)</sup>.

## \* التقدم والمدنية:

حظيت فكرة التقدم والرقي بمساحات واسعة في الصحف العربية والإسلامية، وكانت ثغرة دخل منها الاستعمار والاستشراق اقتنع من خلالها بعض المفكرين المسلمين بأن الإسلام هو سبب التأخر. فانبرى ابن باديس يفند هذه المفتريات وهو يفسر كتاب الله الكريم، فحين فسر قول الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٢٩].

□ فيقول رحمه الله -: «ليت شعري ما الذي صرف المفسرين اللفظيين عن معنى المصنع اللفظي الاشتقاقي؟! والذي أفهمه ولا أعدل عنه هو أن المصانع جمع مصنع من المصنع كالمعمل من العمل، وإنها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران»، ثم يوضح ابن باديس أهمية المصانع بأنها: «تُشاد لنفع البشر ولرحمتهم ومن لوازم ذلك أن تراعى

(١) «الشهاب» (ج ١١ م ١٣) - غرة ذي القعدة ١٣٥٦هـ (يناير ١٩٣٨).

فيها حقوق العامل على أساس أنه إنسان لا آلة»<sup>(١)</sup>.

أما ما في الحضارة من صناعات وغيرها فإنها بنيت على أسس غير إسلامية، إنها بنيت على «القسوة، والقسوة لا تُحمد في مبدأ ولا غاية، وأي عاقل يرتاب في أن المصانع اليوم هي أدوات عذاب لا رحمة، ووسائل تدمير لا تعمير، فهل يحمدتها على عمومها وإن كانت دلائل حضارة ومدنية»<sup>(٢)</sup>. ولا يالو «الشهاب» ولا صاحبه جهداً في التأكيد على ضرورة يقظة المسلمين والعمل على كل ما من شأنه أن يأخذ بأيديهم نحو التقدم والرقي. ومن ذلك نقل بعض المقالات من الصحف الشرقية التي تدعو إلى ذلك، ففي العدد السادس والعشرين من «الشهاب» نجد مقالاً مقتبساً من «الأهرام» يقول كاتبه: «وإذا فالإسلام يحث على تعلم الصنائع ويسميها علماً ويعتبرها رحمة ويبين أنه كان يقوم بها ويشرف عليها أفضل الخلق وهم الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، فهو لا يعادي علماً ولا صنعة بل يعتبر القيام بالصنائع والعلوم من الفرائض التي يُتَقَرَّبُ بها إلى الله»<sup>(٣)</sup>.

□ والحقيقة أن قضايا الساعة كانت كثيرة ولعل من أبرزها الاتجاه الداعي إلى الفرنسة والاندماج والتشبع بالثقافة الفرنسية. والحقيقة أننا نعاني اليوم إلى حد كبير ما عاناه مجتمع ابن باديس. وانظر إليه كيف صورهم: «الشبان المسلمين ينشئون أولاً في وسط إسلامي، ثم يدخلون المدارس الفرنسية فيتأثرون بالوسط الجديد فيحدث تنازع بين الروحين. وأما أشكال التأثير فهي كالتالي: نجد أكثرهم لا يتكلمون غالباً إلا باللغة الفرنسية وليس ذلك منهم

(١) «الشهاب» (ج ٦ م ١١) (ص ٣٤٤ - ٣٤٥)، جمادى الثانية ١٣٥٤هـ = سبتمبر ١٩٣٥م.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) «الشهاب» العدد ٢٦ في ٧ ذي القعدة ١٣٤٤هـ = ٢٠ مايو ١٩٢٦م عن مقال لعبدالباقى

سرور نشر في الأهرام.

بقصد التظاهر بالترفنج والتشبه السخيف بل إنهم مُرغمون في ذلك بحكم تعلمهم اللسان الفرنسي، وقد لا يقف هذا التأثير عند التكلم بل يتعداه إلى التفكير نفسه حتى في شئون الحياة العادية»<sup>(١)</sup>.

□ لم يكن ابن باديس ليناقتش مثل هذه القضايا من منطلق فكري بحت بل كان يدرسها من الواقع، يختلط بهؤلاء المثقفين ويهتم بهم. فقد عقدت جمعية الأساتذة بالقطر الجزائري - المعلمين بالمكاتب الفرنسية - اجتماعها السنوي بقسنطينة عام ١٩٣٣ م = ١٣٥٢ هـ، فما كان من ابن باديس إلا أن أقام حفل تكريم لهؤلاء المعلمين باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دعا إليه قاضي المدينة وأعضاء شعبة قسنطينة (جمعية العلماء) ومحرر «النجاح» وبعض رجال العلم والأدب<sup>(٢)</sup>. وزيادة على دعوة كهذه فإنه يجتمع إلى هؤلاء ويحدثهم ويحدثونه ففي أحد اللقاءات مع بعض المثقفين الجزائريين بالثقافة الفرنسية دار بينه وبينهم حديث حول كيف تكسب الأمم والأفراد الاحترام في أعين غيرها فيقول: «جمعتني ليلة بثلاثة من شبابنا المتعلم التعليم الأوربي والمتأدب الأدب الإفرنجي ممن لا ينقصه شيء عن الطبقات الراقية منهم وانساق بنا الكلام إلى ما تكسب به الأمم والأفراد الاحترام في عين غيرها، واتفقنا على أن الأمة التي لا تحترم مقوماتها من جنسها ولغتها ودينها وتاريخها لا تعد أمة بين الأمم، ولا ينظر إليها إلا بعين الاحتقار مع القضاء عليها في ميادين الحياة بالتقهقر والاندحار...»<sup>(٣)</sup>.

□ ولنختتم هذا الفصل وحديث ابن باديس عن القضايا المعاصرة: وقوفه في وجه التنصير، وقد اتخذ لذلك عدة سبل أهمها:

- (١) «الشهاب» (ج ١ م ١٢)، محرم ١٣٥٥ هـ = أبريل ١٩٣٦ م.
- (٢) «الشهاب» (ج ٦ م ٩) (ص ٢٦١)، غرة محرم ١٣٥٢ هـ = ماي ١٩٣٣ م.
- (٣) «الشهاب» (ج ٨ م ١١)، شعبان ١٣٥٤ هـ = نوفمبر ١٩٣٥ م.

نشر العقيدة الصحيحة، والحرص على نشر التعليم العربي الإسلامي، ثم الدعوة إلى المحافظة على الشخصية الإسلامية العربية للمواطن الجزائري. ثم لم يكتف بكل ذلك بل وجد أن العداوة مستحكمة في نفوس المستوطنين وبخاصة أولئك الذين كانوا يعملون منصرّين فدرس فكرهم بعمق. وقد عجبت أن يتسع وقت ابن باديس - رحمه الله - لمعرفة المسيحية من كتبها، ثم من منطلقاتهم الفكرية والعقدية يرد عليهم»<sup>(١)</sup>.

### \* نشاطه السياسي :

ولأن الإسلام دين ودولة وشمل كل مجالات الحياة، ولما كان العلماء هم قادة الفكر والرأي في الأمة فلا بد أن يشاركوا في السياسة التي لا يقر الإسلام مطلقاً بينها وبين الدين الإسلامي.

ولتأكيد مشاركة العلماء في السياسة فقد كتب ابن باديس في مناسبات مختلفة يوضح هذا الرأي. ففي عام ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م كتب ابن باديس يقول: «ثم ما هذا العيب الذي يعاب به العلماء المسلمون إذا شاركوا في السياسة؟ فهل خلت المجالس النيابية الكبرى والصغرى من رجال الديانات الأخرى؟ وهل كانت الأكاديمية الفرنسية خالية من آثار الوزير القسيس رشليو؟ أفيجوز الشيء ويحسن إذا كان هناك ويحرم ويقبح إذا كان من هنا؟ كلا لا عيب ولا ملامة وإنما لكل امرئ ما اختار ويمدح ويذم على حسب سلوكه في اختياره»<sup>(٢)</sup>.

ويواصل ابن باديس معلماً ومفكراً وقائداً سياسياً حكيمًا حتى إذا نجح ابن باديس في عقد أول مؤتمر إسلامي عام ضم جميع الأحزاب والاتجاهات

(١) «ابن باديس» (ص ٨٢ - ٨٤).

(٢) «الصراف السوي» عدد ١٥ في ٨ رمضان ١٣٥٢هـ = ٢٥ ديسمبر ١٩٣٣م.

الفكرية الجزائرية انبرت الأقلام التي تحمل الفكر الغربي تنتقد ابن باديس في عمله هذا وتعيب على العلماء التدخل في الشؤون السياسية، فكتب مقالاً بعنوان «واجب العلماء في المجتمع» يقول فيه: «وهكذا فالإسلام لا يحجر على العلماء التدخل في أي شأن من الشؤون العامة - كما يزعم البعض في هذه البلاد - بل هم أولى من غيرهم بذلك وهم رعاة الأمة المسؤولين وليس لغيرهم أن يستهجن فعلهم أو يلومهم إذا هم قاموا بما يجب عليهم نحو أمتهم. وليست مهمة العالم في الإسلام قاصرة على التدريس والإرشاد فقط.. وبعد فهل كان العلماء في كل أمة وفي كل عصر إلا قادة الفكر والسياسة والدين»<sup>(١)</sup>.

وفي إحدى زيارته لتونس دُعي لإلقاء محاضرة في جمعية الطلبة الجزائريين بتونس والجمعية الودادية الجزائرية بتونس في ربيع الأول ١٣٥٦هـ = يونيو ١٩٣٧م، فكان مما جاء في محاضرتة قوله: «وكلامنا اليوم عن العلم والسياسة معاً، وقد يرى بعضهم أن هذا الباب صعب الدخول لأنهم تعودوا من العلماء الاقتصار على العلم والابتعاد عن مسالك السياسة مع أنه لا بد لنا من الجمع بين السياسة والعلم، ولا ينهض العلم إلا إذا نهضت السياسة بجد»<sup>(٢)</sup>.

إذن كان نشاط ابن باديس السياسي مستنداً إلى فهمه للإسلام الذي ما تأخر أتباعه إلا حينما أقصوا العلماء عن سدة الحكم أو عن إبداء الرأي في المسائل السياسية. فقد جاء في تفسير القرطبي ما يلي: «قال ابن عطية: والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب»<sup>(٣)</sup>.

(١) «البصائر» العدد ٤٣ في ٢٨ شعبان ١٣٥٥هـ = ١٣ نوفمبر ١٩٣٦م.

(٢) «البصائر» العدد ٧١ في ٩ ربيع الثاني ١٣٥٦هـ = ١٨ يونيو ١٩٣٧م.

(٣) «تفسير القرطبي» (٤/٢٤٩).

«لقد بدأت مشاركة ابن باديس في السياسة منذ وقت مبكر من حياته .  
فإن كانت فرنسا قد فرضت التجهيل على عامة الشعب الجزائري، وسمحت  
بالتعليم الفرنسي لطبقة منه، فقد أخذ ابن باديس يحاربها بنشر التعليم بين  
طبقات الشعب كافة حتى أولئك الذين كانوا يدرسون في المدارس الفرنسية  
خصص لهم أوقاتاً بعد أن يفرغوا من الدراسة بالمدارس الفرنسية حتى يتلقوا  
العلم الإسلامي على يديه أو أيدي العلماء المسلمين الآخرين ليرتبطوا بأمتهم  
برابطة اللغة، والفكر، والتاريخ، والعقيدة»<sup>(١)</sup> .

□ كتب الشيخ ابن باديس مقالاً تحدث فيه عن سياسة بريطانيا  
الاستعمارية - وقد كان من نوع اللحن الذي يفهمه ذوو الألباب - فقال :  
«قلب صفحات التاريخ العالمي، وانظر في ذلك السجل الأمين هل تجد أمة  
غُلبت على أمرها ونُكبت بالاحتلال ورُزئت في الاستقلال ثم نالت حريتها  
منحة من الغاصب وتنازلاً من المستبد ومنّة من المستعبد .

اللهم كلا! فما عهدنا الحرية تُعطى إنما عهدنا الحرية تُؤخذ، وما عهدنا  
الاستقلال يُمنح ويؤهب إنما علمنا الاستقلال يُنال بالجهاد والاستماتة  
والتضحية، وما رأينا التاريخ يُسجل بين دفتي حوادثه خيبة للمجاهد إنما رأيناه  
يسجل خيبة للمستعبد»<sup>(٢)</sup> .

□ وكان مما قاله - رحمه الله - يوقظ به الأمة إلى حقها في الاستقلال  
فيقول: «إن الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا وقد استقلت أمم  
كانت دوننا في القوة والعلم والمنعة والحضارة، ولسنا مع الذين يدعون علم  
الغيب مع الله، ويقولون إن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم إلى الأبد فكما

(١) «عبد الحميد بن باديس» لمأذن صلاح (ص ٨٨).

(٢) «الشهاب» (ج ٥ م ٦٠)، غرة محرم ١٣٤٩هـ = يونيو ١٩٣٠م.

تقلبت الجزائر مع التاريخ فمن الممكن أن تزداد تقلبًا. . وتصبح الجزائر مستقلة استقلالاً واسعاً تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر»<sup>(١)</sup> .

□ وكثيرة هي الدلائل على هذا التفكير ومنها أحاديثه لتلاميذه حيث يروي الشيخ محمد الصالح رمضان أن بعض شبّان الحركة الوطنية جاءوا للشيخ ابن باديس وقالوا له: أنت شخصية كبيرة، لماذا لا تدعو للاستقلال وأنت مسموع الكلمة؟ فقال لهم: «يا أبنائي من أراد أن يبني منزلاً هل يبدأ بالسقف؟ قالوا: لا، قال: فيماذا إذن؟ قالوا: بالأساس والجدران. فقال: هذا ما أفعله، الآن نبني الأساس والجدران ثم نبني السقف»<sup>(٢)</sup> .

□ لم يقف ابن باديس - رحمه الله - عند مرحلة التفكير والكتابة في الصحافة داعياً إلى الاستقلال بل تعدى ذلك إلى مرحلة التفكير العملي. وقد روي عن الشيخ أكثر من حديث أبدى فيه عزمه على إعلان الجهاد. ومنها ما ذكره لي الشيخ حمزة بوكوشة قائلاً: «كنا جلوساً مع الشيخ وكان مريضاً جداً وكان من ضمن الحضور محمد جلول وسي عبدالرحمن بن بيبي فقال لنا الشيخ: تعاهدوني. فقلت له - الشيخ حمزة -: نعاهدك على أمر تكون فيه. قال: وهل يمكن أن أطلب أمراً لا أكون معكم؟ قلت: إذاً على ماذا نعاهدك؟ قال: الوقت الذي تعلن فيه إيطاليا الحرب على فرنسا فإننا نعلن الحرب عليها. ومات قبل ذلك»<sup>(٣)</sup> .

□ وقد أورد الشيخ حمزة بوكوشة هذه القصة في مقال له نشر في

(١) «الشهاب» (ج ٣ م ١٢) صفر ١٣٥٥هـ = مايو ١٩٣٦م.

(٢) رمضان، مرجع سابق. وقد أشار أحمد توفيق المدني في كتابه «حياة كفاف» إلى أنه صاحب هذا القول. لله درّه كيف ينسب لنفسه ما قاله ابن باديس رحمهما الله؟! انظر «عبدالحميد بن باديس» (ص ٩٢).

(٣) الشيخ حمزة بوكوشة، مقابلة معه، مرجع سابق. «عبدالحميد بن باديس» (ص ٩٣).

مجلة المعرفة قبل حديثي معه بتسع سنوات.

□ وهناك رواية أخرى ذكرها لي الشيخ عبدالرحمن شيبان - وزير الشؤون الدينية السابق في الجزائر - «أن مجلساً جمع الشيخ ابن باديس وصديقه عبدالرحمن يحيى الشريف - المعروف بـ بن بيبي - فسأل ابن باديس صديقه: هل عندكم في سطيف رجال؟ فأجابته عبدالرحمن: ماذا تعرف؟ ليس في سطيف إلا الرجال! فقال ابن باديس: هل في الإمكان العثور على من يضع قبلة في مطار عين أرناث - قرية قريبة من سطيف بنحو ٧ كيلاً - وكان هذا قبل وفاته بشهر أو شهرين»<sup>(١)</sup>.

□ ويروي الشيخ أحمد حماني - رئيس المجلس الأعلى الإسلامي بالجزائر - أنه في إحدى أمسيات خريف عام ١٩٣٩م في مجلس بمدرسة التربية والتعليم بقسنطينة وكان الحديث حول الأوضاع السياسية في العالم وإعلان الحرب العالمية الثانية وقبول بعض كبار رجال الأحزاب السياسية التجنيد في جيش فرنسا طوعاً أو كرهاً فقال ابن باديس - رحمه الله - ما معناه: «لو أنهم استشاروني واستمعوا إلي وعملوا بقولي لأشرت عليهم بصعودنا جميعاً إلى جبال أوراس وإعلان الثورة»<sup>(٢)</sup>.

إن كان ابن باديس قد فكر في الثورة فقد أعد لها عدتها فكرياً ونفسياً وعسكرياً فقد أكد أحد تلاميذ ابن باديس الأقدمين - وهو محمد الحاج بجة من دائرة أقبو - أن الشيخ كان يسأل تلاميذه الكبار عن أدائهم للخدمة العسكرية فمن أداها ميزه عن غيره وقال لهم: «إننا سنحتاجكم يوماً ما».

(١) الشيخ عبدالرحمن شيبان، مقابلة شخصية معه في مكتبته بوزارة الشؤون الدينية في ١٦ صفر ١٤٠٤هـ = ٢٠ نوفمبر ١٩٨٣م. المرجع السابق ص(٩٣).

(٢) أحمد حماني، في ذكرى عبدالحميد بن باديس، جريدة العصر، مرجع سابق. عبدالحميد ابن باديس (ص٩٤).

وكان يوصيهم بالمحافظة على معرفتهم للرمي وكما ذكرنا من قبل أنه كان يقرب إليه الفضيل الورتلاني لأنه أدى الخدمة العسكرية، وكان يعهد إليه بتربية صغار التلاميذ على الثورة<sup>(١)</sup>.

\* تأسيس الشيخ عبد الحميد بن باديس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين  
ورئاسته له طيلة حياته:

تأسست الجمعية عام ١٣٤٩هـ = ١٩٣١م على يد ابن باديس وتولّى رئاستها حتى وفاته في ٩/٣/١٣٥٩هـ = ١٦ أبريل ١٩٤٠م. قادها في ظل النظام الذي يسمح للجمعيات الدينية، فكان ابن باديس حريصاً على إظهارها بأنها «جمعية دينية محضة» كما ورد في إحدى خطبه، وإلا فإنها في حقيقتها كانت صاحبة دور فعال في الحركة الوطنية الجزائرية حتى قال عنها مؤرخو الجزائر: «والحق أنه لا تكاد توجد منظمة وطنية تركت بصماتها على الحياة الجزائرية وأثرت على عقلية أهلها تأثيراً واضحاً مثلما فعلت جمعية العلماء. وإذا كانت المنظمات الأخرى (بما في ذلك الأحزاب السياسية) قد خاطبت فئة معينة فقط أو انحصرت في أبرز المدن فحسب فإن خطاب جمعية العلماء كان قد وصل أفقياً وعمودياً إلى مختلف الطبقات الاجتماعية أينما كانت ريفية أو مدنية ومن ثم هزت المجتمع الجزائري هزاً عنيقاً»<sup>(٢)</sup>.

□ وقال مؤرخ فرنسي: «لا يمكن فصل العنصر الديني عن العنصر السياسي في الإسلام، وإصلاح العقائد ورفع مستوى الثقافة العربية لا ينفصل في نظر العلماء عن الموقف السياسي في صالح العروبة والوطنية الجزائرية».

(١) أحمد حماني، العصر عدد ٨٥، مرجع سابق. «عبد الحميد بن باديس» (ص ٩٤).

(٢) أبو القاسم سعد الله، رأي في دور جمعية العلماء - جريدة الشعب الجزائرية اليومية في

٥ رمضان ١٤٠٦هـ = ١٤ مايو ١٩٨٦م.

❑ وفي الجامع الأخضر بقسنطينة إثر صلاة الجمعة ٤ ربيع الأول ١٣٥٦ أعلن الشيخ ابن باديس عن أصول جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وهي سلفية بحتة وهي:

١ - الإسلام هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده، وأرسل به جميع رسله، وكمله على يد نبيه محمد الذي لا نبي من بعده.

٢ - الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به وذلك لأنه:

أولاً: كما يدعو إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين يُذكر بالأخوة الإنسانية بين البشر أجمعين.

ثانياً: يُسوي في الكرامة البشرية والحقوق الإنسانية بين جميع الأجناس والألوان.

ثالثاً: لأنه يفرض العدل فرضاً عاماً بين جميع الناس بلا أدنى تمييز.

رابعاً: يدعو إلى الإحسان العام.

خامساً: يُحرّم الظلم بجميع وجوهه وبأقلّ قليله من أي أحد على أي أحد من الناس.

سادساً: يُمجّد العقل ويدعو إلى بناء الحياة كلها على التفكير.

سابعاً: ينشر دعوته بالحجة والإقناع لا بالختل والإكراه.

ثامناً: يترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاءون.

تاسعاً: شرك الفقراء مع الأغنياء في الأموال وشرع مثل القراض والمزارعة والمغارسة مما يظهر به التعاون العادل بين العمال وأرباب الأراضي والأموال.

عاشراً: يدعو إلى رحمة الضعيف فيكفي العاجز ويعلم الجاهل ويرشد

- الضال ويُعان المضطر ويُبغاث الملهوف ويُنصر المظلوم ويُؤخذ على يد الظالم.
- حادي عشر: يُحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه.
- ثاني عشر: يجعلُ الحكمَ شورى ليس فيه استبدادٌ ولو لأعدلِ الناس.
- ٣ - القرآن هو كتاب الإسلام.
- ٤ - السنّة «القوليةُ والفعليةُ» الصحيحةُ تفسيرٌ وبيانٌ للقرآن.
- ٥ - سلوكُ السلفِ الصالحِ «الصحابةِ والتابعينِ وأتباعِ التابعينِ» تطبيقٌ صحيحٌ لهدي الإسلام.
- ٦ - فهوم أئمة السلفِ الصالحِ أصدقُ الفهومِ لحقائق الإسلام ونُصوص الكتاب والسنة.
- ٧ - البدعةُ كلُّ ما أحدثَ على أنه عبادةٌ وقربةٌ ولم يثبت عن النبي ﷺ فعله. وكل بدعةٌ ضلالة.
- ٨ - المصلحة كل ما اقتضته حاجةُ الناس في أمرِ دنياهم ونظامِ معيشتهم وضبطِ شئونهم وتقدّمِ عمرانهم مما تقرّه أصولُ الشريعة.
- ٩ - أفضلُ الخلقِ هو محمد ﷺ لأنه:
- أولاً: اختاره الله لتبليغِ أكملِ شرعةٍ إلى الناسِ عامّةً.
- ثانياً: كان على أكملِ أخلاقِ البشرية.
- ثالثاً: بلغ الرسالةَ ومثل كمالها بذاته وسيرته.
- رابعاً: عاش مجاهداً في كل لحظةٍ من حياته في سبيلِ سعادةِ البشرية جمعاء حتى خرج من الدنيا ودرعه مرهونة.
- ١٠ - أفضلُ أمته بعده هم السلفِ الصالحِ لكمالِ أتباعهم له.
- ١١ - أفضلُ المؤمنين هم الذين آمنوا وكان يتقون وهمُ الأولياءُ

- والصالحون فحفظ كل مؤمن من ولاية الله على قدر حظّه من تقوى الله .
- ١٢ - التوحيدُ أساس الدين فكل شركٍ في «الاعتقاد أو في القول أو في الفعل» فهو باطلٌ مردودٌ على صاحبه .
- ١٣ - العملُ الصالحُ المبنيُّ على التوحيد: به وحده النجاة والسعادة عند الله؛ فلا النسبُ ولا الحسبُ ولا الحظُّ بالذي يُغني عن الظالم شيئاً .
- ١٤ - اعتقادُ تصرّف أحدٍ من الخلق مع الله في شيء ما؛ شركٌ وضلالٌ ومنه اعتقاد الغوث والديوان .
- ١٥ - بناءُ القباب على القُبور ووقد السُرج عليها والذبح عندها لأجلها والاستغاثةُ بأهلها ضلالٌ من أعمال الجاهلية ومضاهاةٌ لأعمال المشركين . من فعله جهلاً يعلم ومن أقره عن يتسبب إلى العلم فهو ضالٌ مضلٌّ .
- ١٦ - الأوضاعُ الطرقيةُ بدعةٌ لم يعرفها السلفُ ومبناها كلها على الغلو في الشيخ والتحيُّز لاتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ إلى ما هنالك من استغلال وإذلال وإعانة لأهل الإذلال والاستغلال . . ومن تجميدٍ للعقول وإماتةٍ للهمم وقتلٍ للشعور وغير ذلك من الشرور .
- ١٧ - ندعو إلى ما دعا إليه الإسلام وما بيناهُ منه من الأحكام بالكتاب والسنة وهدى السلف الصالح من الأئمة، مع الرحمة والإحسان دون عداوة أو عدوان .
- ١٨ - الجاهلون والمغرورون أحقُّ الناس بالرحمة .
- ١٩ - المُعاندون المستغلُّون أحقُّ الناس بكل مشروع من الشدة والقسوة .
- ٢٠ - عند المصلحة العامة من مصالح الأمة، يجب تناسي كل خلاف يُفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة، ويتحتم التآزر والتكاتف حتى تنفجر الأزمة وتزول الشدة بإذن الله ثم بقوة الحق وادراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة .

﴿ قل هذه سبيلي: أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.﴾

عبد الحميد بن باديس<sup>(١)</sup>.

﴿ وَجَّهَ ابْنُ بَادِيسٍ خَطَابًا بَلِيغًا فِي مَقَالٍ لَهُ بِعَنْوَانِ «لَيْسَ الْخُبْزُ كُلُّ مَا نُرِيدُ مِنْ فَرَنْسَا» جَاءَ فِيهِ: «جَهْلُ قَوْمٍ مِنْ ذَوِي السُّلْطَنَةِ هَذَا الْخَلْقُ مَنَا فَحَسَبُوا - وَهَمَّ عَالِمُونَ بِمَا فِيهِ الْأُمَّةُ مِنْ جُوعٍ وَفَاقَةٍ - أَنَّنَا قَوْمٌ لَا نُرِيدُ إِلَّا الْخُبْزَ، وَأَنَّ الْخُبْزَ عِنْدَنَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنَّآ إِذَا مَلَّتْ بَطُونُنَا مَهْدُنَا ظَهَرْنَا وَأَنَّهُمْ إِذَا أَعْطَوْنَا الْخُبْزَ فَقَدْ أَعْطَوْنَا كُلَّ مَا نَطْلُبُ...﴾

لَا يَا قَوْمُ إِنَّا أَحْيَاءُ وَإِنَّا نُرِيدُ الْحَيَاةَ وَلِلْحَيَاةِ خُلُقُنَا. وَإِن الْحَيَاةَ لَا تَكُونُ بِالْخُبْزِ وَحْدَهُ، فَهَنَالِكَ مَا عَلِمْتُمْ مِنْ مَطَالِبِنَا الْعِلْمِيَّةِ وَالْاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَكُلِّهَا ضَرُورِيَّاتٌ فِي الْحَيَاةِ»<sup>(٢)</sup>.

﴿ دَعَا ابْنُ بَادِيسٍ إِلَى الْمُؤْتَمَرِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَامِ سَنَةِ ١٣٥٥ هـ = ١٩٣٦ م، وَمَثَلَ الْعُلَمَاءَ بِالإِضَافَةِ إِلَى الْأَمِينِ الْعَمُودِيِّ، وَالبَشِيرِ الْإِبْرَاهِيمِيِّ، وَالبَطِيبِ الْعَقْبِيِّ وَبَعْدَ عَوْدَةِ الْوَفْدِ مِنْ بَارِيسِ خَاطَبَ الْأُمَّةَ الْجَزَائِرِيَّةَ قَائِلًا: «أَيُّهَا الشَّعْبُ إِنَّكَ بِعَمَلِكَ الْعَظِيمِ الشَّرِيفِ بَرَهَنْتَ عَلَى أَنَّكَ شَعْبٌ مُتَعَشِّقٌ لِلْحُرِّيَّةِ وَهَائِمٌ بِهَا، تَلِكُ الْحُرِّيَّةُ الَّتِي مَا فَارَقَتْ قُلُوبَنَا مِنْذُ كُنَّا نَحْنُ الْحَامِلِينَ لِلْوَأثِمَاتِ، وَسَنَعْرِفُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ كَيْفَ نَعْمَلُ لَهَا وَكَيْفَ نَحْيَا وَنَمُوتُ لِأَجْلِهَا»<sup>(٣)</sup>.

﴿ وَلَمَّا أَصْدَرَ رَئِيسُ الْوُزَرَاءِ قَانُونِ شُوطَانَ فِي ٨ مَارَسِ ١٩٣٨ لَوْضِعِ

(١) «عبد الحميد بن باديس» (ص ٢٠٢ - ٢٠٦).

(٢) «الشهاب» (ج ٩ م ١٢)، رمضان ١٣٥٥ هـ = ديسمبر ١٩٣٦ م والخلق الذي يشير إليه هو حياة التقشف والزهد والصبر.

(٣) «الشهاب» (ج ٦ م ١٢)، (ص ٢٧٢)، غرة جمادى الثانية ١٣٥٥ = سبتمبر ١٩٣٦ م.

العقبات في وجه تعليم اللغة العربية والدين الإسلامي هبّ ابن باديس بوصفه رئيساً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين حاملة لواء التعليم العربي الإسلامي فكتب الكثير، بل إنه أحدث ضجة عجيبة من كثرة ما كتب، ومن ذلك أنه وجه الخطاب إلى فئات من الشعب الجزائري لا يمكن أن يفكر الإنسان العادي في استشارتها ضد هذا القانون.

□ يقول ابن باديس: «إن أعداء الأمة الجزائرية - وأعداء فرنسا أيضاً - يجمعون أمرهم ويدبرون كيدهم فيستصدرون من الحكومة قراراً وزارياً بعقوبات على التعليم ليهدموا هذه الشخصية الإسلامية من أصلها وليقضوا عليها بالقضاء على مادة حياتها».

«لقد فهمت الأمة من المعلمون المقصودون. إنهم معلمو القرآن والإسلام، ولغة القرآن والإسلام؛ لأنهم هم الذين عرفت الأمة كلها ما يلقون من معارضة ومناهضة، وما يجدون من مقاومة ومحاكمة بينما غيرهم من معلمي اللغات والأديان والمروجين للنصرانية في السهول والصحاري والجبال، بين أبناء وبنات الإسلام، في أمن وأمان، بل في تأييد بالقوة والمال».

□ قد فهمنا - واللّه - ما يُراد بنا، وإننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أننا عقدنا على المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي - بعون الله - في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا، ولن يصدنا عن ذلك شيء فنكون قد شاركنا في قتلها بأيدينا»<sup>(١)</sup>.

يوصل ابن باديس نشاطه السياسي فيجد بدء العام الهجري الجديد ١٣٥٨هـ مناسبة ليخاطب الشعب الجزائري يصف حالته وما يلاقه من

(١) «البصائر»: العدد ١٠٧ في ٧ محرم ١٣٥٧هـ = ٨ أبريل ١٩٣٨م.

اضطهاد الاستعمار وقهره كأنما يُعدّه نفسياً للثورة وينادي فيه إسلامه ليعرف الجميع أنه ليس التراب وحده هو الذي يحرك الشعوب، فإن العقيدة تأتي أولاً.

□ يريد ابن باديس أن يهنئ الشعب الجزائري بالعام الجديد فماذا يقول؟  
«أهنيك ومساجدك في وجوه أهل العلم مغلقة؟!  
أهنيك وتعليم دينك ولغة دينك لا تُعطى رخصته لمن يطلبها وتترع ممن يطلبها ويحاكم المعلمون كالمجرمين؟!

أهنيك ومطالبك خابت فيها آمالك؟!  
أهنيك وأبناؤك البررة في زوايا السجون منهم من قضى عليه ومنهم من أهمل من زمان فهو ينتظر قضاءه، ومنهم من - في ساعة كتابتي هذه - يُذهب ويُجاء به إلى مجالس القضاء!..

ماذا ألم تبق لله عليك نعمة أهنيك بها؟ كلا! ثم كلا!!  
إن شعبنا احتضنه الإسلام واحتضن الإسلام ثلاثة عشر قرناً، لن يضيع عن الله أبداً أبداً.

ألم يحفظ الله عليك هذا الإسلام رغم الجهل والتفكير وبث أسباب التنصير؟

ألم يحفظ الله عليك عروبتك رغم التمزق والتزهد والتهديد؟  
بلى ثم بلى.. فأنا أهنيك أيها الشعب الكريم بإسلامك وعروبتك وجزائريتك»<sup>(١)</sup>.

(١) البصائر: العدد ١٥١ في ١٣ ذي الحجة ١٣٥٧هـ = ٤ فبراير ١٩٣٩م.

## \* اهتمام ابن باديس بقضايا العالم الإسلامي :

□ ومن نشاطه السياسي اهتمامه بقضايا العالم الإسلامي والكتابة حولها ودعوة الجزائريين للاهتمام بإخوانهم المسلمين حتى بلغت نسبة ما احتلته هذه القضايا في صحافة ابن باديس وصحافة الجمعية ثلثها<sup>(١)</sup>. ومن أهم القضايا التي كتب حولها كثيراً قضية ليبيا وجهاد عمر المختار وقضية فلسطين. وعندما عقدت اللجنة البرلمانية مؤتمرها في القاهرة عام ١٣٥٧هـ = ١٩٣٨م أرسل ابن باديس بريقيين إلى المؤتمر إحداهما بوصفه رئيساً لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والثانية: بصفته شخصياً. جاء في الأخيرة: «نحن معكم»<sup>(٢)</sup>.

□ وهناك أيضاً قضية فلسطين وما حدث فيها من تعاون بين اليهود الصهينة ضد المسلمين فيها فكتب الشيخ عبدالحميد يوضح خطورة هذه الأحداث قائلاً: «تزاوج الاستعمار الإنكليزي الغاشم بالصهيونية الشرهة فأنشأ لقسم كبير من اليهود الطمع الأعمى الذي أنساهم كل ذلك الجميل وقذف بهم على فلسطين الآمنة والرحاب المقدسة فأحالوها جحيماً لا يطاق وجرحوا قلب الإسلام والعرب جرحاً لا يندمل»<sup>(٣)</sup>. ثم يتحدث عن مسئولية المسلمين تجاه هذه الأحداث فيقول: «وكل مسلم مسئول أعظم المسئولية عند الله تعالى على كل ما يجري هنالك من أرواح تزهر وتصغار تيمم ونساء ترمّل وأموال تُهتك وديار تُخرب وحرمان تُنتهك كما لو كان ذلك كله واقعاً بمكة أو المدينة إن لم يعمل لرفع ذلك الظلم الفظيع بما استطاع»<sup>(٤)</sup>.

(١) مقدمة بقلم أبي القاسم سعد الله» لكتاب مارن صلاح «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» طبع دار القلم.

(٢) «من الوثائق المحفوظة لدى مديرية الوثائق بولاية قسنطينة».

(٣) «الشهاب»: (ج ٦ م ١٤) غرة جمادى الثانية ١٣٥٧هـ = أغسطس ١٩٣٨م.

(٤) المصدر السابق.

\* ابن باديس والطرقية «الصوفية»:

لا يكتمل الحديث عن ابن باديس دون ذكر طرف من جهاده ضد الطرق الصوفية. فهو قد حاربها لأمرين: أحدهما: ما أدخلته على الدين من انحراف وضلال وبدع وخرافات.

وثانياً: لأنها أصبحت تسير في ركاب الاحتلال.

□ فمتى دخلت الطرق الصوفية إلى الجزائر وما عللها؟

يذكر أحد المؤرخين أن الطرق الصوفية بدأت تظهر في الجزائر منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي وازداد أتباعها في النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي وبداية القرن التاسع عشر. وأهم هذه الطرق هي: القادرية، والرحمانية، والتيجانية، والشاذلية، ودرقاوة الشاذلية، والعلوية<sup>(١)</sup>.

وقد جاء في سجل المؤتمر الخامس لجمعية العلماء أن الطرق الصوفية «ترجع في أصلها إلى نزعة غامضة تسترت بالانقطاع للعبادة والتجرد من الأسباب والعزوف عن الملذات الجسدية والتظاهر بالخصوصية وكانت تأخذ منتحلها بشيء من مظاهر المسيحية وهو التسليم المطلق وشيء من مظاهر البرهمية وهو تعذيب الجسد إرهافاً إلى كمال الروح»<sup>(٢)</sup>.

□ وها هي صورة نقلها من مقالة كتبها أحد الصحفيين في إحدى الصحف الجزائرية حول شيخ إحدى الطرق الصوفية بأنه كان في فرنسا فشاهد فتاة تعمل في أحد الفنادق فأعجب بها وأراد الزواج منها فلم يوافق

(١) «نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرهما في الجزائر خلال العهد العثماني» لمختار فيلالي (ص ٥١).

(٢) تصدير لسجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الخامس ١٣٥٤ هـ = ١٩٣٥ م (ص ٢٧).

حاكم عام الجزائر ولكن الكاردينال لافيغري كان يرى أن هذا الزواج في مصلحة المسيحية وسوف يجعل تنصير المسلمين من أسهل الأمور وأيسرها. وتم الزواج في الكنيسة الكبرى عام ١٩٠٧م. وأصبحت تعرف بأميرة الرمال. وظلت على ديانتها الكاثوليكية وكانت تعطف على «المضللين المسيحيين فمدت لهم يد المساعدة، وكتبت باسم زوجها شيخ الطريقة كثيراً من الرسائل إلى مقادير هذه الطريقة وأعيانها توصيهم خيراً بهؤلاء المضللين»<sup>(١)</sup>.

□ ولئن كان زعماء النضال في الجزائر في بداية الاحتلال يتسبون إلى الطرق الصوفية، فما كان ذلك ليمنعهم من مقاومة الاحتلال؛ لأنهم لم يتعدوا عن العقيدة السلفية. ولكن فرنسا رأت أن تستميل شيوخ هذه الطرق بالمناصب والمال والجاه حتى إن أحد الحكام الفرنسيين أعلن أن أفضل وسيلة للسيطرة على الشعب الجزائري هي التقرب من شيخ زاوية أو طريقة بمنصب أو مال. وقد أصبح هذا واضحاً فيما بعد حين سيطر الطرقيون على تسعة أعشار مقاعد المجالس المحلية على كل المستويات، وأربعة أخماس المناصب القيادية، وثلاثي الوظائف في الإدارة الفرنسية.

□ ويقول أحد المؤرخين المعاصرين: إن الحكومة تمكنت من استجلاب الطريقة إلى جانبها تمدها بالمساعدات وتحميها، فكان من الطبيعي في نظر العلماء أن تصبح خدمة الطريقة خدمة للأجنبي ودعائمه.

□ وحين أعلن ابن باديس الحرب على الطريقة فإنما كانت هذه الحرب موجهة ضد الاستعمار الذي كان يؤيد الطريقة. ويؤكد هذا قول أحد المؤرخين الفرنسيين: «أصبحت كلمة المرابطين تدل على الجهل والتخلف،

(١) «الصراف السوي» عدد ٦ في ٤ رجب ١٣٥٢هـ = ٢٣ أكتوبر ١٩٣٣م - «إلى زيارة سيدي عابد» لمحمد السعيد الزاهري.

وكذلك أصبحت تعني المؤيدين للاحتلال والإدارة الفرنسية».

وقد وصفت إحدى الوثائق الفرنسية هذا الصراع بين العلماء بقيادة الشيخ عبدالحמיד بن باديس وبين الطريقة بأنه كان صراعاً عنيفاً لا هوادة فيه ولا رحمة، ليس لأن الطرفين مبتدعون في الدين فقط بل لأنهم متهمون بالإخلاص في تعاونهم مع فرنسا. وهذا يخالف العقيدة الإسلامية ويخالف أيضاً أفكار الجامعة الإسلامية.

وقد تجلت حرب ابن باديس للطريقة في طريقين: أحدهما نشر العقيدة الإسلامية الصحيحة وبذل الجهود المضنية في ذلك، بل إن أعمال ابن باديس التعليمية منذ رجوع من الحج عام ١٩١٣م كانت موجهة ضدهم ولكن بصورة غير مباشرة في محاولة لكسبهم إلى جانبه فلما بدأ نشاطه الصحفي عام ١٩٢٥م أخذ يوضح مخاطر الطرق الصوفية مع الاستمرار في التعليم وإصلاح العقيدة. ومن عبارات ابن باديس التحذيرية قوله: «واحذر كل (متريبط) يريد أن يقف بينك وبين ربك ويسيطر على عقلك وقلبك وجسمك ومالك بقوة يزعم التصرف في الكون»<sup>(١)</sup>.

□ كما ألف ابن باديس قبل ذلك رسالة في الرد على شيخ الطريقة العلوية الذي كتب أبياتاً من الشعر العامي يخاطب فيها الرسول ﷺ بما لا يليق<sup>(٢)</sup>. فكان رد الشيخ عبدالحמיד مفصلاً للحال التي يجب أن يكون فيها المؤمن مع الرسول ﷺ. وقد نالت من التقريظ والعناية من العلماء الجزائريين والتونسيين والمغاربة ما ملأ قلب ابن عليوه وأنصاره غيظاً فدبروا مكيدة للسطو بالإمام الرئيس عبدالحמיד بن باديس في ٩ جمادى الآخرة

(١) «ابن باديس، «الشهاب»: عدد ١٩ في ١٥ صفر ١٣٤٥هـ = ٢٣ أغسطس ١٩٢٦م.  
(٢) أنجزها في ٢٦/٢٦ ذي الحجة ١٣٤٠هـ بناءً على ما جاء في كتاب أحمد حماني، «صراع بين السنة والبدعة» (ص ٥).

١٣٤٥هـ الموافق ١٤ ديسمبر ١٩٢٦م، ونحى الله الإمام من هذا الاعتداء الأثيم. وهناك رأي بأن هذا الاعتداء كان بإيعاز من الإدارة الاستعمارية التي ضاقت ذرعاً بنشاط الأستاذ في الميدان الإصلاحى والوطنى وكانت تعتمد بالدرجة الأولى على بعض هذه الطرق والزوايا<sup>(١)</sup>. وما كان من الممكن بالطبع أن يقال مثل هذا الرأي في حينه. ولعل مثل هذه الأعمال لا تفصح عنها الوثائق الفرنسية التي تم الإفراج عنها حتى الآن.

وبعد هذه الحادثة بسنوات تأسست جمعية العلماء المسلمين ودخلها بعض رجال الطرق الصوفية والعلماء الرسميين، ولكنهم لم يرقهم أن يكون علماء الإصلاح هم أصحاب الشأن فيها، فلما حان موعد انتخابات المجلس الإدارى الجديد من العام التالى حتى خرج منها هؤلاء - علماء الدين الرسميون (الموظفون لدى الحكومة) والمتصوفة - وأنشأوا جمعية لهم باسم «جمعية علماء السنة» لتحارب العلم والإسلام باسم السنة. وأخذت تنادى بأن الخلافات بينها وبين علماء الإصلاح تنحصر في مسائل شرعية دينية جزئية.

□ ولم يكن الشيخ ابن باديس ليسكت عما يراه مخالفاً للعقيدة الإسلامية السلفية الصحيحة.

أما صلة أصحاب الطرق الصوفية بفرنسا فقد كفتنا الوثائق الفرنسية مؤونة البحث مما أشرنا إليه آنفاً. ولعلنا نزيد الأمر وضوحاً بنقل وجهة نظر هؤلاء من خلال إحدى صحفهم التي كتبت تقول: «أما المسائل السياسية فقد صرحنا وما زلنا نصرح بأن مشروع الزوايا لم يؤسس لأجل الاشتغال بها لأننا ما زلنا نعتبر السياسة والدين متناقضان على الرغم مما يقوله المشاغبون بأن

(١) أحمد حماني، «صراع بين السنة والبدعة» (١/٩٩).

الدين لا ينافي السياسة»<sup>(١)</sup> .

بل إن الأمر ظهر جلياً قبيل إعلان الحرب العالمية الثانية حين طالبت فرنسا الجهات الجزائرية المختلفة بتقديم فروض الولاء والطاعة ضماناً للجهة الداخلية فكان شيوخ الطرق أول من أدى هذا الواجب - في نظرهم، ففي رسالة موجهة من شيخ الطريقة القادرية بالوادي يوجهها إلى الشعب الجزائري يطالبه فيها الانضمام للجيش الفرنسي أو بتقديم العون المادي للمجهود الحربي، ويقول فيها ما نصه: «وها أنا فرد منكم أقدم نفسي بإخلاص لدفع إعانة مالية عوضاً عن عجز صحي البدنية قدرها عشرة آلاف فرنك»<sup>(٢)</sup> .

□ وبفضل من الله ثم بجهود مخلصه من الشيخ عبدالحמיד بن باديس تضاعف وجود الطرق الصوفية حتى كادت تنقرض لولا أنها فتنة تظل برأسها بين الحين والآخر وتجد من أعداء الإسلام من يؤيدها لحاجة في نفسه .

\* ابن باديس الرئيس الشرفي لبعض فرق الكشافة الجزائرية :

وُجِدَت بالجزائر فرق كشفية كاثوليكية ويهودية شارك بعضها في عروض الاحتفال المثوي - مرور مائة سنة على الاحتلال - وكان بعض الجزائريين أعضاء في هذه الفرق. لذا فكر بعض الشباب الجزائري في تكوين فرق كشفية خاصة بهم. فكان ابن باديس من المؤيدين لهذا العمل حتى اختارته بعض هذه الفرق أو الأفواج رئيساً شرفياً لها. وكان من اهتمام ابن باديس بالكشافة أن خلد ذكر فوجي «الرجاء» و«الصباح» في قصيدته المشهورة:

شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة ينتسب

(١) «الرشاد»: العدد ٥ في ٢٤ ربيع الثاني ١٣٥٧هـ = ٢٢ يولييه ١٩٣٨م.

(٢) من الوثائق الفرنسية الموجودة في الأرشيف الفرنسي الوطني لما وراء البحار العلبة رقم

من قال حاد عن أصله أو رام إدماجاً له فقد كذب  
يا نشء أنت (رجاؤنا) وبك (الصباح) قد اقترب

ولعل ابن باديس يرمي إلى أبعد من مجرد ذكر الفوجين وذلك التطلع  
إلى معركة التحرير<sup>(١)</sup>.

□ وأشرف نائبه محمد البشير الإبراهيمي على جمعية الطلبة الجزائريين  
الزيتونيين، وكان معظمهم من طلبة الجامع الأخضر الذي كان يشرف على  
التدريس فيه الشيخ ابن باديس، وكان ابن باديس يجتمع بهم عند زيارته  
لتونس.

□ سعى ابن باديس إلى تأسيس جمعية تجار قسنطينة عام ١٣٥٣هـ =  
١٩٣٤م برئاسة بلقاسم بوشجة، وتأسست على منوالها «جمعية آمال» التي  
ضمت تجاراً من جميع أنحاء الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية وكان لها نفوذ  
كبير في الاقتصاد الجزائري حتى إن السلطات الاستعمارية كانت تراقب  
أعمالها وتحسب لها ألف حساب، حيث أصبحت الجمعية تستورد من الخارج  
ونظمت أعمالها برأس مال وطني وكانوا يستفيدون من ذلك أفراداً ويستغلون  
التجار الفرنسيين لصالحهم، وقد ظهر أثر ذلك على المشروعات الخيرية من  
بناء المدارس، والمساجد، والنوادي، ومساعدة الفقراء<sup>(٢)</sup>.

\* ابن باديس العليم بأحوال عصره وواقع أمته:

أقامت فرنسا حول الجزائر سوراً كالستار الحديدي وكان لابن باديس أثر  
كبير في تحطيم الأسوار التي بنتها فرنسا حول الجزائر، فيذهب إلى أرض

(١) «عبد الحميد بن باديس» (ص ١١٦).

(٢) «عبد الحميد بن باديس» (ص ١٢١).

الحجاز ويلتقي بعلماء الدعوة السلفية، ثم يسافر إلى مصر، وكان للشيخ مراسلات دائمة مع مفتي القدس الشيخ أمين الحسيني.

وكانت فظائع الاستعمار الإيطالي في ليبيا دافعاً لابن باديس أن يظهر مشاركة الشعب الجزائري لإخوانه المسلمين فيما تعرضوا له من محن. فكتب ابن باديس يقول: «فجمعية العلماء المسلمين الجزائريين تلّبي هذا النداء الصادر من القطر الشقيق المظلوم وترفع صوتها بالاحتجاج والاستنكار ضد ما ارتكبه إيطاليا من الظلم الفادح الذي أنزلته على طرابلس العربية المسلمة فأصابت به كل قلب عربي وكل مسلم. وتندرهما بأن الضمير الإسلامي والعربي قد استيقظ من نومه...»<sup>(١)</sup>.

وكثيرة هي الأدلة على الاتصال بين شيخ الجزائر ابن باديس والعالم الإسلامي، فمنذ أول أعداد «المتقد» نجده ينقل أخبار المسلمين في روسيا حيث يقول الخبر: «هدم الشيوعيون معهداً إسلامياً في مدينة طاشقند اسمه «مدرسة كايبربي» وأخذوا ينشئون في مكانه تمثالاً للزعيم لينين). ثم يستتج الخبر أن هذا العمل وأمثاله يؤكد (عداء البولشفيك للإسلام والمسلمين كما هم أعداء جميع المتدينين)<sup>(٢)</sup>.

□ وبعد سنوات تنشر الشهاب مقالاً مقتبساً من مجلة «الفتح» يوضح دور اليهود في الثورة البلشفية وإنهم المسيطرون عليها، والدليل على ذلك ما يتمتع به اليهود من حقوق وامتيازات وهذا ما قاله مندوب مسلمي روسيا في المؤتمر المنعقد بمكة عام ١٣٤٤هـ: «إنهم (البولشفيك) لا يفرقون بين أهل دين ودين بل يضطهدون أهل الأديان جميعاً إلا أن اليهود سالمون من هذا الاضطهاد وتمتعون بحقوق لا تتسنى لأحد سواهم، بل الحكومة كلها في

(١) «البصائر»: العدد ١٥٢ في ٢٠ ذي الحجة ١٣٥٧هـ = ١١ فبراير ١٩٣٨م.

(٢) «المتقد»: العدد الأول في ١١ ذي الحجة ١٣٤٣هـ = ٢ يولية ١٩٢٥م.

أيديهم». وفسر ذلك بأنه النفاق والدهاء فاليهود بلشفية في الظاهر، وهم في الباطن لا يفرطون في مقال ذرة من يهوديتهم، وبهذا المكر الكبار نجحوا بدون سائر أهل الأديان<sup>(١)</sup>.

ولعل قضية فلسطين من أبرز القضايا التي نالت اهتمام الشيخ عبد الحميد بن باديس، فهو لم يعيش حتى تتأسس دولة اليهود على أرض المسجد الأقصى، ولكن الأحداث التي كانت تقع هناك لفتت الأنظار إلى المخطط اليهودي الماكر. فما كان من ابن باديس إلا أن يرسل الاحتجاج على الأحداث الدامية التي وقعت في فلسطين منذ أوائل الثلاثينات، وكان احتجاجه موجهاً إلى وزارة الخارجية الفرنسية. وما كان الاحتجاج هو الوسيلة الوحيدة بل كان الشعب الجزائري على فقره وحاجته يجود بما يستطيع لمساعدة إخوانه في فلسطين<sup>(٢)</sup>.

□ لولا ابن باديس لنسي المشرق المغرب العربي، ولفت الشيخ ابن باديس إخوانه في المشرق إلى معادن العلم والفضيلة ومنابت العز والرجولة ومعقل العروبة والإسلام في جمعية العلماء الجزائريين.

\* ابن باديس في نظر معاصريه ومن أتى من بعده من الأجيال المسلمة:

□ أصدر الدكتور محمود قاسم كتابه «الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية» في عام ١٩٦٧م. وقال فيه: إن الأساس الذي بنى عليه ابن باديس فكرة تحرير الجزائر عن طريق تصحيح

(١) «الشهاب»: (ج ١٠ م ٧ ص ٦٢٢) وما بعدها، جمادى الثانية ١٣٥٠هـ = أكتوبر ١٩٣١م نقلًا عن مجلة الفتح، مقابلة أجراها محمد تقي الدين الهلالي مع موسى جبار الله مندوب مسلمي روسيا في المؤتمر المنعقد بمكة ١٣٤٤هـ.

(٢) الصراط: العدد ١١ في ٩ شعبان ١٣٥٢هـ = ٢٧ نوفمبر ١٩٣٣م.

المفاهيم الروحية<sup>(١)</sup>.

□ ويقول عن ابن باديس: «وقد استطاع بصادق فطرته وإخلاصه أن يهتدي إلى السلاح الناجع الذي حطم به أسطورة الجزائر الفرنسية، تلك الأسطورة التي حاولت فرنسا أن تفرضها على الجزائريين، وقد نجحت في أن تجر إليها نفرًا من السياسيين المحترفين».

«ولقد وضع ابن باديس خطته على أساس مبتكر يتلخص في أن يحاصر فرنسا في رفق وعزم صارم، في الوقت الذي تظن هي فيه أنها تحاصر الجزائر. ولم تفتن فرنسا إلى مهارة هذه الخطة إلا بعد فوات الأوان. فوجدت نفسها محاصرة بعد أن نحى ابن باديس أعوانها طائفة بعد أخرى»<sup>(٢)</sup>.

□ ويرى الدكتور محمود قاسم أن ابن باديس لم يكن ممن يفكر في إنشاء مذهب أو فكر فلسفي إنما كان رجل عمل وحركة. ولكن العمل والحركة تستند إلى أسس فكرية، فتحدث محمود قاسم عن نظرة ابن باديس إلى أهمية القرآن في بعث الجزائريين والأمة الإسلامية جمعاء، ثم يعرج على نظريته للأخلاق. ويوضح موقف ابن باديس من إصلاح النفس والمجتمع ثم تحدث عن ربط ابن باديس العلم بالدين وأن الأمة متى فقدت سبيلها إلى العلم ضلّت وتأخرت وأصبحت في ذيل الأمم. ثم تناول موقفه من التصوف والطرق الصوفية وما أدخلته على الدين الإسلامي من بدع وخرافات وتواكل وتنازل عن القيم الإنسانية الرفيعة التي دعا إليها الإسلام<sup>(٣)</sup>.

(١) «الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية» لمحمود قاسم (ص ١٤).

(٢) المصدر السابق (ص ١٥).

(٣) انظر المصدر السابق (ص ٨٣ - ٩٣).

□ ويقول مالك بن نبي - رحمه الله - في كتابه «شروط النهضة»: «ولقد بدأت معجزة البعث تتدفق من كلمات (ابن باديس) فكانت تلك ساعة اليقظة، وبدأ الشعب الجزائري يتحرك ويا لها من يقظة مباركة». ويقول في الكتاب نفسه مقارناً بين عمل العلماء ورجال السياسة المحترفين: «إن العلماء كانوا أقرب إلى الصواب من السياسيين، حين دعوا إلى الإصلاح بمعنى دفع النفس إلى حظيرة الإيمان من جديد»<sup>(١)</sup>.

□ ولله در الأستاذ أنور الجندبي وهو الذي سبر أغوار ابن باديس يقول عنه في كتابه «الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا»: «فهو الخطيب الذي يهز المشاعر والأرواح وسيطر على الجموع، وهو الكاتب الدقيق العبارة، النقي الأسلوب، الواضح الفكرة، وهو الصحفي والمدرس والمحدث والرحالة».

«وهو الذي ينشئ المدارس والمعاهد في طول البلاد وعرضها ثم هو الذي يمضي يومه كاملاً في حلقة الدرس يفتح الدروس بعد صلاة الصبح حتى ساعة الزوال بعد الظهر، ومن بعد المغرب إلى صلاة العشاء. وإذا خرج من المعهد ذهب رأساً إلى إدارة جريدته «الشهاب» يكتب ويحرر ويراسل «البصائر» ويجيب على الرسائل فيقضي موهناً من الليل، حتى إذا نودي لصلاة الصبح كان في الصف الأول».

«لم تصرفه الصحافة عن التدريس وما من نظرية ظهرت في التربية والتعليم أو كشف العلم والفكر إلا استوعبها، وأبدى رأيه فيها. وما من صحيفة في المشرق أو المغرب إلا نظر فيها واستخلص منها ما ينفع بني جنسه ووطنه ودعوته وهو الذكي الفطن الفاهم لتيارات سياسة الغرب في الشرق،

(١) «شروط النهضة» لمالك بن نبي (ص ٧٩).

وما تحمل في أطوائها من زاوية دعوته ومن زاوية أمر العرب والمسلمين، ذلك إلى خبرة عميقة بالسياسة الاستعمارية في الجزائر يتعقب أخطاءها عن علم وبصيرة، ويفند مزاعم المستعمرين ما اتصل منها بالإسلام أم باللغة العربية أو بتفوق العنصر الأوروبي على العنصر العربي الإسلامي<sup>(١)</sup>.

□ ويقول الأستاذ مسعود الندوي في مقال كتبه بالانجليزية سنة ١٣٧١هـ

= ١٩٥١م بعنوان «الحركات الإسلامية المعاصرة»<sup>(٢)</sup> جاء فيه:

«عبدالحמיד بن باديس، دارس متعمق للقرآن والسنة، وباحث وكاتب بالعربية، له موهبة الرأي المتزن، وذو نزعة سلفية في الفقه والدين، وهو من نفس المستوى والنوع الذي يدرج فيهما محمد عبده<sup>(٣)</sup> ورشيد رضا، وعالما الشام عبدالرزاق البيطار، وجمال الدين القاسمي.

وقد شق طريقه على نهج قويم، وأصدر مجلة الشهاب، وصحفاً أسبوعية أخرى (الصراط - الشريعة - السنة) وقد درست - أي مسعود الندوي - بعضاً من هذه الصحف، وأقرر بلا تردد، أنه بالنسبة لهذا اللون من الصحافة، يمكن أن نضع صحف الجزائر الإسلامية الصادرة في ذلك الوقت في مصاف أرقى مجلاتنا، وإلى جانب الكتابة عمل ابن باديس على افتتاح شبكة من المدارس الابتدائية، وكان هو بنفسه يقوم بالتدريس في قسنطينة، وقد حمل إخوانه وتلاميذ دعوته إلى كل زاوية وركن من البلاد، وإن كان المتصوفة والعلماء المفسدون، لم يألوا جهداً في وضع العراقيل وتعويق تقدمه، وتأسست (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) لتسير على هذا النهج، ومن يوم مولدها والحكومة الاستعمارية الفرنسية، لا تطبيق وجودها وكذلك

(١) «الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا» لأنور الجندي (ص ٤٦).

(٢) المقال منشور بمجلة «صوت الإسلام» التي كانت تصدرها «جمعية الفلاح» بكراتشي.

(٣) لا والله فهو يخالفه في معتقده ومنهجه.

جهة المتصوفة، واستمرت دسائس الخصوم حتى وفاة ذلك المجاهد العظيم، في ١٣٥٩هـ = ١٩٤٠م، ولكن غياب جسده عن مسرح الأحداث في الجزائر لم يكن يعني توقف الحركة التي بدأها فقد سارت في طريقها. (انتهى).

ومما يذكر أن ابن باديس وجماعته، قد تعرضوا لسلسلة من مكائد أصحاب الطرق وحماتهم من المحتلين، ومثال ذلك تفتيق التهم، وإصاق كل فتنة بدعاة الإصلاح، بل ومحاولات الاغتيال، مثل التي حدثت للشيخ ابن باديس نفسه وهو عائد من درس التفسير ليلاً، إذ همم الجناة باغتياله. لكنه شعر به فاستغاث، وتجمع الناس حوله وتمكن من إلقاء القبض عليه قبل إتمام الجريمة، فسجل الشعراء ذلك الموقف المشرف له.

حمتك يد المولى وكنت بها أولى

فيا لك من شيخ حمته يد المولى

□ وقد أدركت فرنسا خطورة ابن باديس، والجمعية التي أسسها، والخط الفكري الذي ينشره في مجلته الشهاب حيث ينادي بمقاومة التغريب والتجزئة والتجنيس ومطاردة الاحتلال، ورأت أن ذلك سيعجل في يقظة الأمة الجزائرية إن لم تكن قد استيقظت بعد، لذلك ظلت تنظر إلى ابن باديس في قلق بالغ، وكانت تستدعيه لتحقيق معه بين آن وآخر، كما تحول بينه وبين التنقل بين القرى والمدن، ولكنه كان لا يلبث أن يردد كلمته الخالدة: «إن لنا فكرة معروفة، ولن نجيد عنها».

ومما يؤكد صلابته ابن باديس ورسوخ دعوته قوله: «تستطيع الظروف أن تكيفنا ولكنها لا تستطيع أن تقهرنا»، ومن مواقف ابن باديس الشجاعة، أن دعا لمقاطعة الاحتفال الفرنسي بمرور مائة عام على احتلال فرنسا للجزائر. وأصدر بياناً أعلن فيه صراحة وبكل جرأة، أن هذا العمل خيانة للبلاد، وحيث عجزت فرنسا من أن تجرد من يعاونها في هذا العمل فانصرفت عنه.

□ عاش ابن باديس حياته للدعوة، ولم ينجب أولادًا، ولم يشغل نفسه بشئون الأسرة فقد كانت دعوته تملك عليه كل وقته وقلبه، وقد عبر عن ذلك بقوله: «إني لن أنجب أولادًا، ومع ذلك فأنا أب؛ لأن الجزائريين أبنائي»!!!.

ولعل أصدق صورة لدعوته التي تحرك بها من خلال جمعية العلماء، ما أفصح عنه بقوله: «إننا نريد نهضة شعبية قوية، تُجلي شخصية الشعب الجزائري وتكشف له عن مجد الماضي بما ينير له طريق الحياة من جديد...» .

نريد انقلابًا جزائريًا يرتكز على إعداد نشء صالح تمثل فيه عبقرية الجدد، فتنهض نهضة إسلامية، عربية، تأخذ من عظمة الماضي، ويقظة الحاضر، ما يعصمها من الزلل والانحراف وهي تسير في طريق المستقبل الباسم».

وكذلك قوله: «لمن أعيش؟ أعيش للإسلام والجزائر»!!

### \* في نظر المؤرخين:

□ يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله ابن المعهد الباديسي بقسنطينة، ودار العلوم بالقاهرة، ورائد مؤرخي الحركة الوطنية الجزائرية، ورئيس مجلس البحث العلمي بمعهد التاريخ بجامعة الجزائر حاليًا. وليست تربية الدكتور سعد الله الباديسية مما يجعله يتحيز لجمعية العلماء أو لابن باديس، بل هو يأتي أحيانًا بالأراء الفريدة ما يُعدّ غريبًا أن يصدر من مثله لولا حرصه على توخي الحيدة والعدل والإنصاف في أحكامه. فماذا يقول د. سعد الله عن ابن باديس؟

□ يقول د. سعد الله: «إن العشرينات من هذا القرن هي الفترة التي ظهرت ونمت فيها الصحافة الإصلاحية، والنوادي، والمدارس الحرة. وكان

ابن باديس هو العصب المحرك لهذه الحركة بشخصه وقلمه ولسانه وتلاميذه»<sup>(١)</sup>.

□ وحين يتحدث عن جمعية العلماء يقول: «وإذا تكلمنا عن جمعية العلماء خلال الثلاثينات فالكلام في الواقع عن ابن باديس. ومن الممكن أن يزعم المرء أنه لولا ابن باديس لما تأسست جمعية العلماء ولا يمكن عكس هذه القضية فيقال مثلاً إنه لولا جمعية العلماء لما كان ابن باديس»<sup>(٢)</sup>.

□ وقال الدكتور أبو القاسم سعد الله في تقديمه لكتاب مازن بن صلاح «جمعية العلماء المسلمن الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية»:

«وحسبنا هنا أن ننبه إلى أن جمعية العلماء اهتمت بالإنسان فجعلته هو الهدف في كل تحركاتها. خاطبت عقله بالعلم والإصلاح والوطنية، وخاطبت عاطفته بالدين والخطابة والتاريخ، وأنشأت لذلك من الدعاة والخطباء والمؤرخين والصحفيين والشعراء والمعلمين ووفرت لهم مراكز تمثلت في المساجد والمدارس والنوادي والصحف والكتب...»، ولئن كان حديثاً عن الجمعية فإن ابن باديس كان هو العصب المحرك وينطبق الحديث عليه تماماً.

□ وفي بحث له في مجلة كلية العلوم الاجتماعية تحت عنوان «دعوة الإصلاح الإسلامي بين الشيخ عبد الحميد بن باديس في الجزائر والدعاة المعاصرين في المشرق العربي»<sup>(٣)</sup> يقول الدكتور محمد فتحي عثمان:

«أما ابن باديس فكان بحق رجل (الجماهير) الصابر عليها، العامل معها ووسطها مهما كانت المكانة الرفيعة له ولأسرته بينها. وقد جاء نشاطه في جماعته صورة لطاقته الحركية الجماهيرية النشطة وكفايته التنظيمية البناءة إلى

(١) «الحركة الوطنية الجزائرية» لأبي القاسم سعد الله (٣/٨٢).

(٢) المرجع السابق (٣/٨٣، ٨٦).

(٣) مجلة كلية العلوم الاجتماعية: العدد الرابع - ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) (ص ٤٣٢ - ٥٠١).

جانب عقليته الحكيمة المدبرة وبديته السريعة الثاقبة في الوقت نفسه».

□ ويقول الدكتور محمد فتحي عثمان عن ابن باديس في كتابه المسمى باسمه: «وقد استعان ابن باديس - في حكمة وتوفيق - بأدوات عصره لتحقيق أهدافه الجليلة، من (الصحافة) إلى (الجماعة) إلى (المدرسة) مستنداً إلى الذخيرة التي لا تنفد ولا تنقطع ثمارها وآثارها (القرآن الكريم) من جهة و(المسجد) من جهة أخرى.

ولقد كانت خطة ابن باديس في إصلاحه الثقافي التعليمي الاجتماعي

بحق:

«عملاً وطنياً سياسياً عميق الجذور، واسع النطاق، طويل المدى.

□ ويمضي قائلاً:

«وعى ابن باديس آراء دعاة الإصلاح الذين سبقوه، ولا سيما جمال الدين الأفغاني<sup>(١)</sup> ومحمد عبده، وأيقن أن طبيعة الواقع الجزائري وتسلط الاستعمار الفرنسي القاهر، سوف يجعله في نهجه أقرب إلى ما آثره محمد عبده من الفكر والإرشاد والتربية والتعليم. لكن ابن باديس كان (حركياً شعبياً) في دعوته الإصلاحية، يؤثر العمل بين الجماهير الأمية الساذجة، ويحدثهم بما يفهمون في المساجد والمجامع، وبينما يخاطب المتعلمين بقلمه في صحافته، وينشئ المدارس متطلعاً إلى جيل قادم ومؤمن مستنير في المستقبل، نراه لا يغفل الحاضر القائم، ويحرض على عدم الانجراف في تيارات السياسة العاتية في صراع غير متكافئ، أو في وقت غير موات، لكنه لا يتفوق ولا ينكل إذا كان لا بد من مواجهة الأعاصير الهوج، وكان ذلك ضرورياً وممكنًا، وكان يرى في جهوده البناءة في تدعيم الشخصية الجزائرية

(١) لا والله، فإن ما بين الأفغاني ومحمد عبده في العقيدة أبعد مما بين المشرق والمغرب.

العربية، خير ظهير للمطالبة بحقوقه السياسية، ويرى في العمل لنيل هذه الحقوق السياسية المهضومة وتأييد الساسة العاملين لذلك خير تأكيد للمقومات الإسلامية العربية لهذا الشعب.

هذا ويمكن لنا أن نلاحظ حرص ابن باديس على بلورة مفهوم (الشخصية الجزائرية) المتميزة على أساس أصولها الإسلامية العربية، في ذلك الشعار الذي جعله لصحيفة (المنتقد) التي أشرنا إليها سابقاً، إذ هو «الحق فوق كل أحد، والوطن قبل كل شيء»، وكان يردد دائماً: «نحن الجزائر، وما الجزائر إلا الجزائريون»، و«العروبة والعربية» عنده ملتحمتان مع الإسلام لا تنفكان عنه، وحاجز متين يحول دون التذويب الثقافي الذي تستخدمه فرنسا ليظهر الإدماج السياسي.

وكان إصرار ابن باديس كبيراً في نشر التعليم الإسلامي واللغة العربية كسبيل أكيد ووحيد للحفاظ على الشخصية الجزائرية، وقد أدركت ذلك فرنسا فأصدرت (قانوناً في مارس ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م، يقضي بإلزام كل معلم باستصدار ترخيص بذلك وإلا تعرض للغرامة والسجن).

وقد ندد بهم ابن باديس، وكشف خطتهم الشيطانية في عزل الجزائر عن هويتها الإسلامية وعرويتها، فكتب مقالاً بعد شهر من صدور هذا القانون الظالم، نشر في مجلة البصائر سنة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م جاء فيه: «... أعداء الأمة الجزائرية يجمعون أمرهم، ويدبرون كيدهم، فيستصدرون من الحكومة قراراً وزارياً بعقوبات صارمة على التعليم، ليهدموا الشخصية الإسلامية من أصلها، وليقضوا عليها بالقضاء على مادة حياتها،... علموا أن لا بقاء للإسلام إلا بتعليم عقائده وأخلاقه وآدابه وأحكامه، وأن لا تعلم له إلا بتعليم لغته، فناصرها تعليمها العدا، وتعرضوا لمن يتعاطى تعليمها بالمرور والبلاء، فمضت سنوات في غلق المكاتب القرآنية، ومكاتب التعليم

الديني العربي، والضنَّ بالرخص، واسترجاع بعضها حتى لم يبقوا منها إلا على أقل القليل، ولما رأوا تصميم الأمة على تعلم قرآنها ودينها ولغة دينها واستبسال كثير من المعلمين في القيام بواجبهم واستمرارهم على التعليم رغم التهديد والوعيد، ورغم الزجر والتغريم - لما رأوا هذ كله سعوا سعيهم حتى استصدروا قانون العقاب الرهيب..

فهمت الأمة هذا الكيد والشر، المدبر لدينها وقرآنها ولغة قرآنها ودينها، والناطقة في الدفاع عنها في هذه الناحية بلسانها، والمعاهدة لله وللأمة على ذلك الدفاع إلى آخر رمق من حياتها وسنمضي بعون الله في طريق تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا.. وإنما على يقين من أن العاقبة وإن طال البلاء لنا، وإن النصر سيكون حليفنا؛ لأننا قد عرفنا إيمانًا وشاهدنا عيانًا أن الإسلام والعربية قد قضى الله بخلودهما ولو اجتمع كلهم على محاربتنا<sup>(١)</sup>.

□ ويقول المؤرخ الكندي «أندريه ديرلك» في رسالة الدكتوراه بعنوان «عبدالحميد باديس مفكر الإصلاح وقائد الحركة الوطنية الجزائرية» وهي من أولى الرسائل الجامعية في الغرب تتناول حياة ابن باديس بهذا الوضوح والقوة. فقد نُجِزَت عام ١٩٧١م أي بعد استعادة الاستقلال بسنوات قلائل، ولما تكن الوثائق الفرنسية قد كُشِفَ النقاب عنها. ولكن معرفة الباحث للغة العربية واللغة الفرنسية وزيارته لكل من الجزائر وتونس لمقابلة بعض العلماء مكنته من التوصل إلى تصور دقيق لنشاط ابن باديس.

لقد درس المؤلف نشاط ابن باديس بوصفه داعية وربطه بكبار الدعاة في التاريخ الإسلامي منذ ابن تيمية إلى العصر الحاضر. ووقف على فكر ابن باديس في بعض المسائل التي حاول بعض المؤرخين المسلمين طمسها وتشويهها

(١) «نماذج حركات الجهاد: السنوسية - الباديسية - القسامية» (ص ٧٩ - ٧١).

مثل مسائل الاقتصاد والعمل . وفيما يلي بعضاً من أقوال هذا المؤرخ :

«لقد أخذ ابن باديس على عاتقه القيام بدور لا يقصر فيه عمله ليكون المفكر الذي ينظر لمجتمعه نظاماً فكرياً بل ليكون الحركي الذي تحرك طاقاته الواسعة جماهير شعبه من حالة الكسل التقليدية التي كانوا عليها»<sup>(١)</sup> .

□ ويتحدث عن نتائج أعمال ابن باديس فيقول : «لقد كانت نتائج جهود ابن باديس أن احتفظت الجزائر بشخصيتها الإسلامية العربية في حين كانت أهداف فرنسا الصريحة بأن تحطم هذه الشخصية ولكن الجزائريون استطاعوا تجنب ذلك وتفاديه»<sup>(٢)</sup> .

ويأتي حديث ديرلوك حول اتساع نطاق عمل ابن باديس ليشمل جميع مجالات الحياة والفكر ليرد على أولئك الذين يريدون قصر مجال العلماء المسلمين على العبادات!! فيقول ديرلوك : «إن اهتمامات ابن باديس امتدت من النواحي الدينية إلى الشؤون السياسية ولمس تفكيره الأمور الاجتماعية والثقافية . لقد عبر عن آرائه حول مسألة الحضارة للجزائريين ولل بشرية أجمع . لقد أظهر اهتمامه لمبادئ الأخلاق في المجتمعات . وإن الذي دفعه لإبداء آرائه حول هذه الموضوعات المختلفة هي نظرتة للعالم . إن فكر ابن باديس متساوق مع الوضع الذي تبناه لأهمية الإسلام للإنسانية . إنه مما يهم الطالب الجزائري أن يعرف المشاركة التي لا شك في أن ابن باديس قدمها لتغيير المجتمع الجزائري»<sup>(٣)</sup> .

□ وقالت عنه المجالات العلمية الفرنسية أنه وجه أسمى الضربات للفكر الفرنسي ، وللمؤسسات الفرنسية الثابتة .

(١) مجلة كلية العلوم الاجتماعية: العدد الرابع ١٤٠٠هـ (١٩٨٠م) (ص١٦٢).

(٢) (ص٢٠).

(٣) (ص٢٠٣ - ٢٠٤).

وقد حرصت الإدارة الاستعمارية في الجزائر على مراقبة جمعية العلماء ولا سيما رئيسها الشيخ عبد الحميد. فقد كان يحضر الاجتماعات العمومية مندوب عن السلطات الفرنسية، أو لعل أحد الحضور ممن كان يتسبب ظاهراً إلى العلماء كان ينقل تفاصيل اجتماعات الجمعية. فبالإضافة إلى التقارير السنوية التي كانت تعدها مراكز الإعلام والدراسات في الولايات الجزائرية الثلاث كانت هناك تقارير مستمرة عن تحركات ابن باديس ننقل هنا بعض فقراتها الخاصة بابن باديس:

أولاً: التقرير السنوي عن الأهالي عام ١٩٣٦م.

خطأ العلماء خلال سنة ١٩٣٦م خطوات كبيرة على الساحة السياسية وفقاً لمبادئهم الداعية إلى التعريب والإسلام، والتحدث الدائم عن الشعب الجزائري المسلم، وعن الأمة العربية وعن «الوطن الجزائري المسلم». فقد سبق لابن باديس أن أوضح هذه النقاط في مجلة «الشهاب» حينما أكد أن هذه الأمة الجزائرية التي لها تاريخها ووحدتها وثقافتها وعاداتها، وبالتالي فهي ليست فرنسا ولن تكون فرنسية.

ثانياً: الاجتماع العمومي لجمعية العلماء في ٢٩ سبتمبر ١٩٣٦م.

قارن ابن باديس بين عمل الجمعية وعمل الطبيب الذي وُكِّل إليه معالجة رجل مريض جداً ليأخذ بيده إلى الصحة. والجمعية سوف تقوم بمثل هذا العمل لصالح الشعب الجزائري المسلم موضحاً مدى حاجة المسلمين إلى الاتحاد، وأن الإسلام يأمر أتباعه بأن يهتموا بالبشرية جمعاء دون النظر إلى دين أو جنس.

ثالثاً: التقرير السنوي عن الأهالي الجزائريين عام ١٩٣٧م «حسب رؤية

ولاية الجزائر».

تحدث هذا التقرير عن أعمال ابن باديس وأقواله خلال هذا العام مشيراً

إلى أن ابن باديس قد كنف جهوده هذا العام نحو العروبة والإسلام، وأن من أقواله تصوير الجمعية بمدينة ذات أسوار شامخة أسست على قواعد الإسلام وروح العروبة. كذلك نوّه التقرير بحديث أجراه مندوب مجلة «الرابطة العربية» قال فيه ابن باديس: «تحية لكم يا أبناء العقيدة الإسلامية. إن نهضتنا تركز على السلام ولكننا سنحارب من يحاربنا، وسوف نتصدى للخونة».

كما أشار التقرير إلى الفتوى التي أصدرها ابن باديس حول التجنس متعرضاً فيها إلى قضايا مختلفة تتعلق بهذا الأمر. وهنا يقول التقرير: «هذا التصرف من الشيخ ابن باديس لم يكن ليفاجئ أحداً وبخاصة إذا علمنا خلفيته الشرقية وعلاقته مع العالم العربي. يؤيد ذلك سفره إلى تونس مرتين خلال العام الماضي: الأولى في شهر مايو، والثانية في شهر يولييه، وجاء تصريحه حول التجنس بالتوافق مع الشيخ الثعالبي. كما أشاد في زيارته الأخيرة بوحدة الشمال الأفريقي».

رابعاً: مقال لجريدة لاديباش كونستنتين.

تعرض الشيخ عبدالحميد بن باديس لمحاولة اغتيال غادرة على يد أحد أتباع الطريقة العليوية، فكتبت الجريدة المنوّه عنها أعلاه تقول: «السيد ابن باديس رجل متنور، متضلع في العلوم الإسلامية، مسلم عامل بنص القرآن، تتبع أطوار تلك الدعوة (العليوية) وقابل بالغضب والنعير أعمال ابن عليوة المنافية للأخلاق، وأقدم على إظهار مساوئه لإخوانه في الدين»<sup>(١)</sup>.

\* رجاء جارودي وابن باديس:

وما دمنّا في حديث الفرنسيين عن ابن باديس فالفكر الفرنسي الذي

(١) «الشهاب» - العدد ١١٠ في ١٩ صفر ١٣٤٦هـ (١٨ أغسطس ١٩٢٧م).

أسلم حديثاً رجاء جارودي كتب مقالاً بعنوان «الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم»، جاء فيه: «وقد تحدد موقفهما (ابن باديس والإبراهيمي) برفضهما للأفكار التي دعا إليها في تركيا ضياء جوكلاب وطبقها من بعده بوضع سنوات كمال أتاتورك الذي اختلط عليه الأمران العصرية والغربية: وبذلك أفقد الإسلام جانبه الروحي بتقليد الغرب تقليداً أعمى». ويقول في مكان آخر من مقاله: «إن ابن باديس والإبراهيمي ورجال الجمعية حاربوا التعليم الاستعماري الهادف إلى تخطيط مقومات الشخصية وقطع الطفل الجزائري عن الثقافة العربية الإسلامية، وحاربوا كذلك العقلية الخرافية «المرابطية» فتلك العقلية بما فيها من خرافات وشعاعات تتنافى مع روح الإسلام»<sup>(١)</sup>.

\* قول زملائه وإخوانه وتلاميذه عنه:

قال عنه زميله ورفيق دربه وألصق الناس به الشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي تولى رئاسة الجمعية بعد وفاته: «وحسبه من المجد التاريخي أنه أحيأ أمة تعاقبت عليها الأحداث والغير، ودينًا لابسته المحدثات والبدع، ولسانًا أكلته الرطانات الأجنبية، وتاريخًا غطى عليه النسيان، ومجدًا أضاعه ورثة السوء وفضائل قتلها رذائل الغرب.

وحسبه من المجد التاريخي أن تلامذته اليوم هم جنود النهضة العلمية.. وأن آراءه في الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي هي الدستور القائم بين العلماء والمفكرين والسياسيين، وهي المنارة التي يهتدي بها العاملون، وأن بناءه في الوطنية الإسلامية هو البناء الذي لا يتداعى ولا ينهار»<sup>(٢)</sup>.

(١) مقال «الاعتراف لأهل الفضل بفضلهم» لرجاء جارودي - الثقافة م ١٣ عدد ٧٦ -

رمضان/ شوال ١٤٠٣هـ (يوليه/ أغسطس ١٩٨٣م).

(٢) «عيون البصائر» لمحمد البشير الإبراهيمي (ص ٦٣٢ - ٦٣٣).

□ ويقول عنه صاحبه الشيخ محمد خير الدين الذي عمل معه قبل تأسيس الجمعية وظل يعمل معه حتى وفاته:

«كانت حياة ابن باديس كلها جهاد. لم يعش لنفسه أبداً ولم يعش لأحد بل عاش لله. كذلك لم يترك وقتاً قصيراً ليقضيه في مسائل دنيوية أو مظاهر أو وظيفة أو طمع، إنما صرف وقته للعلم والتكوين. فالجزائر مدينة للشيخ عبدالحמיד بن باديس في ميدان التربية والتعليم حيث لم يكن هناك تربية أو تعليم إلا به. والوطنية قبل أن يسمع بها الناس لم يسمعوها بها إلا منه»<sup>(١)</sup>.

□ ويقول عنه زميله الشيخ حمزة بوكوشه (شوف):

«كان ابن باديس رجل علم ونظام يحافظ على أوقاته وليس عنده كبر، ولا يشعر بأي غضاضة أن يسأله أحد تلامذته عن مسألة، ويرجع إلى الحق». وقال: «إن التضحية التي ضحّاها ابن باديس مهمة جداً فقد كوّن جيلاً من الأجيال»<sup>(٢)</sup>.

□ ويقول عنه تلميذه محمد الصالح رمضان «كنا نتمثل في الشيخ عبدالحמיד أحد الحواريين أو أحد الصحابة، فما رأينا رجلاً يتمثل فيه الإسلام ويتجسد كاملاً نقيلاً بأجلّ معانيه مثلما رأينا هذا في الشيخ ابن باديس. يكاد يجمع الناس كلهم الأعداء وغير الأعداء مسلمين وغير مسلمين - والمسلمون هم الطرقيون لأنهم كانوا يعدونه شراً عليهم ويتصورونه السبب في زوال نفوذهم - كلهم يجمعون على صدقه وتقواه. وحتى الفرنسيون يؤمنون بهذا

(١) انظر «عبدالحמיד بن باديس» (ص ١٧٠) لمازن صلاح ومقابلة شخصية مع محمد خير الدين في الجزائر في ١٩ صفر ١٤٠٤هـ (٢٣ نوفمبر ١٩٨٣م).

(٢) «عبدالحמיד بن باديس» لمازن صلاح (ص ١٧١).

ويرون أنه أقوى شخصية في الجزائر»<sup>(١)</sup> .

□ وفي سؤال وجهه مازن صلاح للشيخ عبدالرحمن شيان وزير الشؤون الدينية الجزائرية السابق وتلميذ ابن باديس:

ثبت عن الشيخ عبدالحميد - رحمه الله - أنه كان ينوي إعلان الثورة فيما لو أعلنت إيطاليا الحرب على فرنسا، وتوفاه الله تعالى قبل ذلك. فلماذا لم ينفذ ذلك العلماء فيما بعد ويتولوا قيادة المعركة بدل تركها في يد من تُركت في أيديهم؟ فأجاب: «ليس كل الناس ابن باديس فالعلماء لم يقوموا بالثورة لأن ذلك ليس من طبيعة الأشياء فهم مريون ومعلمون لإعداد الناس أما ابن باديس فهو زعيم وقائد وجندي ومربي»<sup>(٢)</sup> .

□ ومن معاصري الشيخ عبدالحميد بن باديس الذين لم يكونوا يرون في الشيخ عبدالحميد إلا عدواً لاختلاف في الفكر والتوجه، من هؤلاء عمار أوزغان من أوائل الجزائريين انتساباً للحزب الشيوعي بل كان من الذين تسلموا قيادة هذا الحزب في الجزائر، ولكن الله منَّ عليه بالهداية فترك الحزب الشيوعي وكان من إنتاجه كتاب «الجهاد الأفضل» الذي قال فيه عن ابن باديس: «كان الشيخ عبدالحميد بن باديس - أدام الله ذكره - أول رئيس لجمعية العلماء. كان خطيباً ساحراً ومتواضعاً كأحد أبناء الشعب، كان مصلحنا الديني ثورياً خالصاً وحكيماً، لا يتطلب من كل مرحلة تاريخية أكثر مما تقدر أن تعطي. كان أب المؤتمر الإسلامي حيث تحقق اتحاد جميع الاتجاهات المناهضة للاستعمار، وكان هذا المؤتمر استنفاراً عاماً للشعب الجزائري بغية الاتحاد والعمل دون استثناء ودون عصبية»<sup>(٣)</sup> .

(١) المصدر السابق (ص ١٧٤).

(٢) المصدر السابق (ص ١٧٤ - ١٧٥).

(٣) «الجهاد الأفضل» لعمار أوزغان (ص ٢٧).

□ ونختم ما قيل في ابن باديس بفقرة من مقال كتبه الدكتور صالح الخرفي بعنوان: «الجزائر والأصالة الثورية» جاء فيه: «وابن باديس هذا الرجل الذي فجر أعنف معركة فكرية في أدق مرحلة استعمارية. وإذا كانت معجزة عبدالقادر معجزة صلابة في معركة سافرة فإن معجزة المصلح تبدو هي الأخرى مدعاة للإكبار وهي تبشر بالشخصية الجزائرية تحت سمع العدو وبصره في معركة مقنعة الجبهات، متعددة الوجوه، ملتوية السبل. سلاحها نفاذ في البصيرة، وعبقرية في المناورة، ومجابهة البطش المتعامي بالإيمان المتبصر، وإدراك حساس للخطوط الدقيقة التي تفصل بين الغايات والوسائل»<sup>(١)</sup>.

\* من درره وأقواله :

□ قال - رحمه الله - في خطابه التاريخي في جمعية العلماء ١٣٥٦هـ (١٩٣٧م) مبيِّناً الأبعاد الحقيقية لدعوته إذ يقول:

«حوريت فيكم العروبة: حتى ظن أنه قد مات منكم عرقها، ومسخ فيكم نطقها، فجئتم بعد قرن تصدح بلبلكم بأشعارها، ويهدر خطابؤكم بشقاشيقها، فتدك الحصون، والمعازل، ويهز كتابكم أقلامها فتصيب المفاصل.

وحورب فيكم الإسلام: حتى ظن أنه قد طمست أمامكم معالمه، وانتزعت عقائده ومكارمه، فجئتم بعد قرن ترفعون علم التوحيد، وتنشرون من الإصلاح لواء التجديد، وتدعون إلى الإسلام كما جاء به محمد ﷺ، وكما يرضى الله، لا كما حرفه الجاهلون وشوهه الدجالون، ورضيه أعداؤه.

وحورب فيكم العلم: حتى ظن أن قد رضيتم بالجهالة، وأخلدتم للنذالة، ونسيتم كل علم، إلا بما يخرج لكم بما هو أضر من الجهل عليكم،

(١) مقال «الجزائر والأصالة الثورية» - الثقافة - العدد ٥ السنة الأولى - رمضان ١٣٩١هـ (أول

فجئتم بعد قرن ترفعون للعلم بناء شامخاً، وتشيدون له صرحاً سامقاً.  
فأسستم على قواعد الإسلام، والعروبة، والعلم، والفضيلة جمعيتكم.  
(جمعية العلماء المسلمين الجزائريين).

وحوربت فيكم الفضيلة: ورُمِيتم بالصغار، حتى ظن أن قد زالت منكم  
المروءة والنجدة، وفارقتم العزة والكرامة، فارتضيتم الضيم، ورضيتم  
الخشف. . فجئتم بعد قرن تنفضون غبار الذل، وتهزهزون أسس الظلم،  
وتهمهمون همهمة الكريم المحقق، وتزمجرون زمجرة العزيز المهان، وتطالبون  
مطالبة من يعرف أن له حقاً لا بد أن يعطاه ويأخذه.

نهضنا بعد أصهرتنا نار الفتنة، وألطنا حوادث الزمان، وقارعنا  
الخطوب، ودافعنا الأيام ودافعناها ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ  
لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدِمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ  
وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾  
[الحج: ٤٠].

نعم نهضنا بعد قرن: بعد ما متنا وأقبرنا، وأحيينا وبعثنا، سنة كونية  
فقهناها من القرآن، ونعمة ربانية تلقيناها من الملك الديان ﴿ألم تر إلى الذين  
خرجوا من ديارهم﴾ . ﴿أو كالذي مر على قرية﴾ .

نعم نهضنا نهضة بنينا على الدين أركانها، فكانت سلاماً على البشرية،  
لا يخشاها والله النصراني لنصرانيته، ولا اليهودي ليهوديته، ولا المجوسي  
لمجوسيته، ولكن يجب أن يخشاها الظالم لظلمه، والخائن لخيانته.

والعروبة والإسلام والعلم والفضيلة هذه أركان نهضتنا. وأركان جمعية  
العلماء التي هي مبعث حياتنا، ورمز نهضتنا، فما زالت هذه الجمعية منذ

كانت تفقهنا في الدين وتعلمنا اللغة، وتيرنا بالعلم، وتحلينا بالأخلاق الإسلامية، وتحفظ علينا جنسيتنا، وقوميتنا، وتربطنا بوطننا الإسلامي الصادق، ولم يزل كذلك بإذن الله.

عرفت الأمم من تاريخها، لا تنهض إلا على صوت علمائها، فهو الذي يحل الأفكار من عقالها، ويزيل عن الأبصار غشاوتها، ويبعث الهمم من مراقدها، ويدفع بالأمم إلى التقدم في جميع نواحي الحياة...!!!  
وما كانت جمعية العلماء حتى كان العلماء القرآنيون الذين فقهوا الدين بفقه القرآن، وعرفوا الدين الأقوم بمعرفة سنة محمد ﷺ، وهدوا واهتدوا بما كان عليه السلف الصالح ورجال الدين العظام...

إن الإسلام عقد اجتماعي عام، فيه جميع ما يحتاج إليه الإنسان في جميع نواحي الحياة لسعادته، ورقيه، وقد دلت تجارب الحياة كثيراً من علماء الأمم المتقدمة على أن لا نجاة للعالم مما هو فيه إلا بإصلاح عام على مبادئ الإسلام، فالمسلم الفقيه في الإسلام غني به عن كل مذهب من مذاهب الحياة.

فليس للجمعية إذن من نسبة إلا الإسلام، وبالإسلام وحده تبقى سائرة في طريق سعادة الجزائر. لا نوالي الأحزاب، ولكننا ننصر الحق والعدل والخير، ونقاوم الباطل والظلم والشر، محتفظين بشخصيتنا ومبادئنا» (انتهى)  
نقلاً عن: تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي - أنور الجندي.

«ولعل من أبرز ما التفت إليه ابن باديس في حركته الإصلاحية الإسلامية التعليمية السياسية الاجتماعية، أنه حرص على وحدة الشعب الجزائري من عرب وبربر. فقد كانت توقيعات مقالاته تحمل اسم (الصنهاجي) فكتب ذات مرة مقالاً بعنوان: «ما جمعت يد الله لا تفرقه يد الشيطان».

ومن أقواله في هذا المجال: «إن أبناء يعرب، وأبناء مازيغ، قد وحد بينهم الإسلام منذ بضعة عشر قرنًا، ثم دأبت تلك القرون تمزج بينهم في الشدة والرخاء حتى كونت منهم منذ أحقاب بعيدة، عنصرًا مسلمًا جزائريًا، أمه الجزائر وأبوه الإسلام.

وقد كتب أبناء يعرب، وأبناء مازيغ آيات اتحادهم على صفحات هذه القرون بما أراقوا من دمائهم لإعلاء كلمة الله، وما أسالوا من محابرتهم لخدمة العلم، فأى قوة في العالم تستطيع أن تفرقهم، لولا الظنون الكواذب والأمانى الخوادم؟

يا عجبًا: لم يفرقوا وهم الأقوياء، فكيف يفرقون وغيرهم القوي؟ كلا والله، بل لا تزيد كل محاولة للتمييز بينهم إلا شدة في اتحادهم، وقوة رابطتهم - ذمتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم. الإسلام له حارس والله عليه وكيل»<sup>(١)</sup>.

□ يقول ابن باديس - رحمه الله -:

- «إن الحياة الخالية من الأخطار لا تساوي شيئًا».

- «من رام أن يحول بيننا وبين فكرتنا التي نؤمن بها فقد حاول عبثًا قلب الحقائق، فلن نتزحزح عن الفكرة قيد شعرة، مهما طال سيل الكوارث على أمة لها ما لشعب الجزائر من الصفات المرغوبة فيها، الكامنة كمون النور في الكهرباء».

- «أنا أحارب الاستعمار بالعلم، ومتى انتشر التعليم في أرض، أجدت على الاستعمار وشعر في النهاية بسوء المصير»، وكان يردد دائمًا: «اللغة هي القوة».

(١) نماذج من حركات الجهاد الإسلامية الحديثة (ص ٨٢).

- «إن هذه الأمة الجزائرية، ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تريد أن تصير فرنسا، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها وفي أخلاقها وفي عنصرها وفي دينها ولا تريد أن تندمج، ولها وطن محدود معين هو الوطن الجزائري».

- «إن لنا فكرة معروفة ولن نحيد عنها».

- «السعادة هي التضحية، هذه أمة - يقصد الجزائريين - أخذت تقدم الضحايا في سبيل سعادتها».

- «تستطيع الظروف أن تكيفنا، لكنها لا تستطيع أن تقهرنا».

- «ما جمعته يد الله لا تفرقه يد الشيطان» «سنن الكون نافذة، لا تتخلف، والويل لمن قعد أو تقاعس».

□ وإن الدارس لشخصية ابن باديس، ليجد فيها مواهب متعددة، وطاقات هائلة وظفها جميعها في سبيل نشر دعوته حتى فجرت طاقات الثورة بعد ذلك، وأكدت الهوية الإسلامية واللغة العربية بين أرجاء محاولات الفرنسة الملحة والضاغطة والذي لم تكشف عنه حتى الآن، رغم اقتباسنا الكثير من أقواله التي تحدد ملامح شخصيته ومنهاج دعوته، ذلكم هو أنه كان يقرض الشعر بسلاسة ويسر، ويوظفه كذلك في سبيل مبادئه. ومن ذلك القصيدة التي نظمها، موضحاً فيها لب دعوته. فيقول:

شعب الجزائر مسلم	وإلى العروبة ينتسب
من قال حاد عن أصله	أو قال مات فقد كذب
أو رام إدماجاً له	رام المحال من الطلب
خذ للحياة سلاحها	وخض الخطوب ولا تهب
وأذق نفوس الظالمين	السم يمزج بالرهب

واخلع جذور الخائنين  
واهزز نفوس اليائسين  
من كان يبغي ودنا  
أو كان يبغي دُننا  
هذا نظام حياتنا  
حتى يعود لشعبنا  
هذا لكم عهدي به  
فإذا هلكت فصيحتي

فمنهم كل العطب  
فلربما حيا الخشب  
فعلى الكرامة والرحب  
فله المهانة والحرب  
بالنور خُطُّ وباللهب  
من مجده ما قد ذهب  
حتى أوسد في الترب  
تحيا الجزائر والعرب!!<sup>(١)</sup>

□ نختم بما قال - رحمه الله - :

هكذا هكذا  
فاشهدى يا سما  
أنا للعلى  
هكذا سنعود  
واكتُبْ يا وُجودُ  
أنا للخلود<sup>(٢)</sup>

\* أمير ونابغة البيان مصطفى صادق الرافعي تحت «راية القرآن» يرد على

الزنادقة والغربان؛ ويدافع عن هوية الأمة في لغة القرآن :

□ لله درك يا رافعي:

لك في البيان رئاسة أزلية  
أحييت آداب اللسان ولم يزل  
ورفعتَ للقرآن أرفع «راية»  
أبدية، ليست تُباع وتُشترى  
فيها مؤلفك السراج الأزهرا  
فلذا غدوت «الرافعي» الأشهرا

(١) «الشهاب» (ج ٤ م ١٣)، الاثنين ١٣ ربيع الأول ١٣٥٦هـ (١١ جوان ١٩٣٧م).

(٢) «البصائر» عدد ٩٢ بتاريخ ٢٠ شوال ١٣٥٦هـ (٢٤ ديسمبر ١٩٣٧م).

□ نظر الرافعي فوجد المغرورين يسيئون للإسلام والعربية، ولهم ذبول تردّد ما يقولون، وهيئات منظمة تفسح الندوات لتأييد هجومهم الظالم، ورءوس من الاستعمار تنزلهم أحسن المنازل في مناصب الدولة وأمهاث الصحف والجرائد، وكلّما ازداد صيتهم عنفوا في مهاجمة اللغة العربية باعتبارها وعاء الإسلام الحافظ، وحصنه الواقى. لم يكن الرافعي مهاجمًا بادئ ذي بدء، ولكنّه التزم الفريضة في دفع المنكر، والأمر بالمعروف، وكانت المسألة بالنسبة إليه فرض عين لا فرض كفاية، إذ لا يستطيع أن يقوم مقامه أحد، فهو أصدق يقينًا، وأشدّ نفاذًا، وأبلغ حجة. والرجل في منعة من ربه وحده، فقد كان موظفًا متواضعًا بإحدى المحاكم، يرأسه من لم يبلغ الدرجة الرابعة حيثنذ!! ولكنّه كان يعارض أكبر وزير إذا شهد منه انحرافًا في الرأي، ويتصدى لأصحاب الأمر والنهي بسيف لا يقبل، ويصدع بكلمة الله جهيرة رنانة، حين ينكمش الوصوليون في جحورهم لا يهتمون بغير أنفسهم، وما يرسمون لمستقبلهم في الحياة!! أياكون البطل الباسل في حومة الدفاع مهاجمًا؟! بل يكون في رأي خصومه متعصبًا وهو يذود عن حرّمات، ويدفع أباطيل، إن الذين يهاجمون شريعة الله، وهم مسلمون، ويتقصون اللغة العربية، وهم عرب ويدعون إلى التبرج والخلاعة والانهيال وهم شريقيون!! كل هؤلاء غير متعصبين؟! بل مجدّدون تقدّميون؟! أما الذي يسلم وجهه إلى الله وهو محسن مستمسكًا بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، فهو المتعصب، وهو الرجعي؟! وهو أشدّ أعداء ما يسمّى بالتنوير؟! وهكذا تنقلب الأوضاع!!.

ماذا يصنع الرافعي إذا وجد الصحف الأولى في الجرائد تنشر قول من يقول<sup>(١)</sup>: «إن الرابطة الدينية وقاحة، فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن

(١) هو سلامة موسى عدو الإسلام صاحب كتاب «اليوم والغد». انظر «اليوم والغد»

نعمتد على الدين جامعة تربطنا، وقد كان مصطفى كامل لجهله بروح الزمن يخبرنا ولا يزال فلول المحررين من المؤيد والحزب والوطني يخبروننا نحن المصريين عن الإسلام».

«ماذا يصنع الرافي إذا وجد الصحف الأولى في الجرائد تنشر قول من يقول<sup>(١)</sup> : «إنِّي كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له، وشعوري بأنَّه غريب عني، وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقني بها، وزاد شعوري بأنها مني وأني منها. . أريدُ من التعليم أن يكون تعليماً أوروبياً لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه، وأن يتولى تعليم اللغة رجالٌ متمدُّون يفهمون على الأقل نظرية التطور، وأريد أديباً مصرياً أبطله فتيان مصر وفتياتها لا رجال الدولة العباسية، ولا رجال الفتوحات العربية».

ماذا يصنع الرافي إذا وجد من يقول: «لقد أدرك مصطفى كمال الذي لم تنجب بعدُ نهضتنا رجلاً مثله ولا نصفه ولا ربعه، ما للقبعة من القيمة بالإعلان في الانسلاخ من آسيا والانضمام إلى أوروبا، ولم تمتنع من استعمال السيف في سبيل ذلك، وسنبقى في نظر أنفسنا وفي نظر الأوربيين شرقيين حتى نتخذ القبعة لرجالنا ونسائنا، ونعلن انسلاخنا من الشرق»<sup>(٢)</sup>.

ماذا يصنع الرافي إذا وجد من يقول: «إن اللغة العربية لغة بدوية لا تكاد تكفلُ الأداء إذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التي نعيش بين ظهرانيتها إلى الآن.. وهي لغةٌ شاققة تكدِّ الذهن في حفظ قواعدها التي لا تنتهي كأنه ليس في العالم شيء جديرٌ بالبحث غير قواعدها. وكلٌّ من اختبرها يعرف أن قاسم أمين ولطفي السيد كانا على حقٍّ حين نصحا باستعمال العامية المصرية المهذبة بدلاً منها»<sup>(٣)</sup>.

(٢) «اليوم والغد» (ص ٢٥٤).

(١) «اليوم والغد» (ص ٧).

(٣) «اليوم والغد» (ص ٢٣٧).

هذا قليل مما قاله سلامه موسى عدو الله ورسوله، ونشره في أمهات الصحف ثم جمعه في كتاب «اليوم والغد» وقد عارضه الأستاذ الرافعي بمقالات رنانة لم يُجمع أكثرها، فقام الوصوليون عليه يرمونه بالتعصب، وأنه يهاجم الكاتب لمسيحيته، ونحن نسأل: من المتعصب؟ الذي يهاجم دين الأمة، ويرى الارتباط بالجامعة الدينية وقاحة؟ أم الذي قام يرد على هذا الهجوم!! إن الرافعي لم يهاجم هذا الكاتب وحده، ولكنه هاجم مصطفى كمال أتاتورك وطه حسين وأحمد لطفي السيد ومحمود عزمي وكل من هاجم العربية والقرآن والشرق وهم مسلمون!!<sup>(١)</sup>.

### \* الرافعي تحت راية القرآن يلقم طه حسين حجراً بل جبلاً:

«قام الأستاذ الرافعي في مواجهة ما تورط فيه الدكتور طه حسين مقاماً رائعاً ممتازاً وضع الحق في نصابه، حيث كان أول من نقض كتاب الشعر الجاهلي من الباحثين، وأول من لفت الأنظار إلى خطورة ما سجل من أوهام تتعلق بالقرآن والإسلام، ويسبب مقال الرافعي ثارت نائرة الشعب المسلم، وتحرك الأزهر فأصدر بيانه الملزم، وكتب الناقدون في الصحف، وتفرغ لنقض الكتاب أساتذة متخصصون من أمثال: الأستاذ محمد الخضر حسين، والأستاذ محمد لطفي جمعة، والأستاذ محمد أحمد الغمراوي، والأستاذ عبدالمتعال الصعيدي، وكلهم مشكورون، وقد جاءوا بالمنطق الفصل بعد أن قال الرافعي كلمته في مقالات بالصحف اليومية الذائعة، فهو الأصل الأصيل لمن جاء بعده، وليس معنى هذا أنهم ردّوا قوله، ولكن معناه أنه فتح لهم الطريق، ووضع السراج في شعابه المتشابهة المختلطة، فاطمأنوا في

(١) «مصطفى صادق الرافعي فارس القلم تحت راية القرآن» للدكتور محمد رجب البيومي (ص ١٢٧ - ١٣٠) - دار القلم بدمشق.

سيرهم واثقين .

إن ما يدعُونِي إلى تَسْطِيرِ هَذَا الْمَوْضُوعِ بِاعْتِبَارِهِ صَفْحَةً لَامِعَةً مِنْ صَفْحَاتِ الْجِهَادِ الدَائِبِ تَحْتَ رَايَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، أَنَّ حَفَلَاتِ تَكْرِيمِيَّةٍ لَذَكَرِي الدُّكْتُورِ طَه حَسِينٍ تَكَادُ تُقَامُ سَنَوِيًّا فِي مِصْرَ، وَكُلُّهَا تَزْعَمُ أَنَّهُ مِنْ حَمَلَةِ مِشَاعِلِ التَّنْوِيرِ بِمَا جَاءَ فِي كِتَابِهِ «الْأَدَبُ الْجَاهِلِي» وَمِنْ قَبْلِهِ «الشَّعْرُ الْجَاهِلِي». كَمَا يَقُومُ الْمُتَحَدِّثُونَ فِي هَذِهِ الْحَفَلَاتِ بِهَجُومٍ عَلَى الرَّافِعِيِّ لِأَنَّهُ خَاصِمُ الدُّكْتُورِ، وَقَدْ حَسِبُوهُ كَاتِبًا مُتَخَلِّفًا، يَقِفُ أَمَامَ مَا يَسْمُونَهُ بِالتَّنْوِيرِ، يَتَكَرَّرُ هَذَا اللَّغْطُ الْكَاذِبُ كُلَّ عَامٍ، وَكَأَنَّنا لَمْ نَقْرَأْ مَا كَتَبَهُ الدُّكْتُورُ طَه حَسِينُ مُخْطِئًا، وَمَا قَالَه الرَّافِعِيُّ مُصَحِّحًا مُصَوِّبًا، وَقَدْ كَانَ الْأَوْلَى بِهَؤُلَاءِ أَنْ يَذْكُرُوا أَنَّ نَاقِدِي طَه حَسِينٍ قَدْ أَدَوْا فَرِيضَةَ الْعِلْمِ حِينَ نَاقَشُوا الْكِتَابَ، أَمَا أَنْ يَكُونُوا فِي مَرَاتِهِمْ مِثَالًا لِلرَّجْعِيَّةِ وَالْجُمُودِ، فَهَذَا بَاطِلٌ شَائِهٌ يَقْلِبُ النُّورَ ظِلَامًا وَيَجْعَلُ السَّرَابَ مَاءً. لِذَلِكَ أُشِيرُ فِي هَذَا الْبَحْثِ إِلَى بَعْضِ مَا قَامَ بِهِ الرَّافِعِيُّ فِي هَذَا الْمَجَالِ، وَلَنْ أَتَسَعَّ فِي الْقَوْلِ لِأَنَّ لِي كِتَابًا بِرَأْسِهِ تَحْتَ عِنْوَانِ «النَّقْدُ الْأَدْبِي فِي الشَّعْرِ الْجَاهِلِي» أَصْدَرْتُهُ جَامِعَةُ الْإِمَامِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعُودٍ سَنَةَ ١٩٧٢، وَهُوَ يَعْالِجُ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ بِاسْطِطَاءِ مَا قَالَه الدُّكْتُورُ طَه حَسِينُ، وَمَا عَقَّبَ بِهِ مِخَالَفُوهُ، وَفِي مَقْدَمَتِهِمُ الْأَسْتَاذُ الرَّافِعِيُّ . .

لَمْ يَأْبَهُ الرَّافِعِيُّ بِاعْتِزَالِهِ وَإِبَائِهِ لِشَاءِ طَه حَسِينٍ عَلَيْهِ فِي كِتَابِ «الشَّعْرُ الْجَاهِلِي» بَلْ رَأَى الْمَسْأَلَةَ مَسْأَلَةَ دِينٍ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ مَسْأَلَةَ أَدَبٍ، وَإِذَا تَحَمَّسَ الرَّافِعِيُّ لِدِينِهِ فَمَنْ يَشِينُهُ؟!

عَلَى أَنْ مَا آلَمْنِي تَمَنَّى قَالُوا فِي مَهْرَجَانِ الْإِحْتِفَالِ بِذِكْرِي طَه حَسِينٍ، أَنَّهُمْ جَعَلُوا مَسْأَلَةَ النَّقْدِ الْخَاصِّ بِكِتَابِ الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ مَسْأَلَةً عَامِيَّةً سَطْحِيَّةً لَدَى نَفَرٍ مِنَ الْأَزْهَرِيِّينَ لَا صِلَةَ لَهُمْ بِالْبَحْثِ الْإِسْتِشْرَاقِيِّ ذِي الْأَصُولِ الْمُنْهَجِيَّةِ الدَّقِيقَةِ، وَهَذَا غَمَطٌ لِلْحَقِّ، فَمَنْ تَكَلَّمَ فِي نَقْدِ كِتَابِ الشَّعْرِ الْجَاهِلِيِّ مِنْ

الأزهريين، قد وُلِّيَ المقام حقّه؛ مثل الأستاذ محمد الخضر حسين في كتابه المستقل، ومثل الأستاذين عبدالمبتعال الصعيدي ومحمد سليمان في مقالاتهما بالمقطم والأخبار (الرافعية).. ولكن الأمر في الردّ لم يقتصر على الأزهريين، إذ ظهرت كتبٌ مستقلة لأعلام من غيرهم أشرتُ إليهم في صدر هذا المقال، كما أن كلية الآداب المصرية قد ناقشت الموضوع في رسائل جامعية خالفت منحى الدكتور ومنحت أصحابها أعلى درجات التقدير، ومن بين هؤلاء الدكتور ناصر الدين الأسد في رسالته عن مصادر الشعر الجاهلي وقد طُبعت عدة مرات، وفي أساتذة كلية الآداب من دحض الفرية في دراساته ولكن بأسلوب هادئ، وقد قرأتُ أخيراً كتاباً قيماً للدكتور (إبراهيم عوض) الأستاذ بكلية الآداب بجامعة عين شمس، وأحد المتخرجين من جامعة أكسفورد الإنجليزية تحت عنوان «معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين»، أتى فيه على كلّ ما تورط فيه الدكتور طه حسين من الأراجيف، فكيف يقول بعض المؤتمرين في حفلة الذكرى إن الثورة على كتاب الشعر الجاهلي كانت خاصةً بنفر من الأزهريين لا صلة لهم بالبحث، وقد كتب باحثٌ جامعي في جريدة الأهرام يُعلن أن الأستاذ الدكتور طه حسين لم يغتصب مقالات مرجليوث في دعوى انتحال الشعر الجاهلي وإنما جاء بها من عند نفسه!! وهذا تحجّن رَفْضُهُ الذين ناقشوا هذا القول، ولكنه لم يخدم دفاعه عن طه حسين إذ أثبت أنه صاحبُ الهجوم العاصف دون أن يتأثر بأحد! وكان على باحث الأهرام أن يقول إن الدكتور طه حسين لم يأت بهذه الآراء، إذا حاول تبرئته، ولكنه لا يستطيع.

كانت الصيحة الأولى للرافعي - بل ولن قرأ مقاله هذا في كوكب الشرق - فاحتذاه أن كتب فصلاً تحت عنوان «إلى الجامعة المصرية» يلخص فيه ما ترامي إليه من بعض دروس طه بالجامعة حيث يتساءل:

- ١ - هل قرّر أستاذها - الجامعة - أن المسلمين مَحَوَّ شعراً النصرى واليهود، ومنعوا روايته خوفاً على الإسلام، فمن أجل ذلك لم يَتَّه إلينا من أخبارهم شيء؟
- ٢ - وأنه لا يوجد شعراً جاهلي بل هو مصنوعٌ بعد الإسلام، وأن هذا الجاهلي لا يُستشهد به على القرآن، بل القرآن هو الذي يحتج به للشعر.
- ٣ - أن العصر الجاهلي الذي ضاع شعره قد حفظ؛ لأن القرآن الكريم يمثل.

٤ - وأن الغزل المروي لامرئ القيس هو لعمر بن أبي ربيعة!

وهذه الأسئلة مهما أبانت بعض أخطاء الدكتور طه لا تُسبب انزعاجاً شديداً، كالذي وقع من بعد؛ لأن القاصمة التي وقعت وقوع الصاعقة على القراء ما ذكره الرافعي في مقال تال تحت عنوان (أستاذ الآداب والقرآن) إلى هيئة كبار العلماء ومجلس إدارة الجامعة<sup>(١)</sup>، حيث نقل للقراء في هذا المقال العاصف قول طه حسين (ص ٢٦) من كتاب الشعر الجاهلي:

«للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يُحدثنا عنهما، ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة.. ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية من جهة، والتوراة والقرآن من جهة أخرى».

إن كل مسلم يعذر الرافعي حين يجده مشتدّاً في الهجوم على هذه الأباطيل الزائفة، وبخاصة إذا علم أنها منقولةٌ عن أكثر المستشرقين كيداً

(١) «تحت راية القرآن» للرافعي (ص ١٤٤).

للإسلام، وقد بدأ الرافعي نقضه لهذه الفرية بقوله:

«فانظر إلى هذه الوقاحة في قوله: «للقرآن أن يحدثنا» كأنه زعم زاعم، له أن يقول، وأن لا يقول، وإذا لم يكف النص في كتاب سماوي تدين به الأمة كلها لإثبات وجود المنصوص عليه، فما بقي معني لتصديقه، وما بقي إلا أن يكون القرآن «كما يزعم المستشرقون أساتذة طه حسين وأولياؤه» كلاماً من كلام النبي ﷺ نفسه، ومن نظمه وعمله كما نقل عن هذا الحرف المسمى كليمان هوار، فهو يدخله ما يدخل كلام الناس من الخطأ والغفلة والحيلة والكذب، فله أن يزعم ما شاء، ولكن ليس علينا أن نصدق وأن نطمئن، وإذا هو ذكر اثنين من الأنبياء، وإذا هو ورد فيه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧] فذلك غير كاف في رأي الجامعة المصرية، لإثبات أن إبراهيم وإسماعيل شخصان كان لهما وجود تاريخي، ولا أنهما هاجرا إلى مكة، ورفعوا قواعد البيت الحرام، وبنيا الكعبة، وإذن فالقصة في رأي الجامعة المصرية من الأساطير الموضوعية، ومما يلحق بحيل الروائيين التي يشدون بها المعاني الاجتماعية والسياسية والتاريخية، ويؤتى بها في الرواية على أنها من الكذب الفني توصلاً إلى سبك حادثة، أو تقرير معنى، أو شرح عاطفة».

ومضى الرافعي يفند هذا الرأي بما هو مقررٌ تاريخياً من انفصال المجتمع اليهودي عن العرب في دور البعثة، وبأن اليهود كانوا أهل كتاب وعلم فلا يقبلون من أمة أن تضع لهم التاريخ، وإذا كانت قريش قد قبلت الأسطورة الخرافية التي تُثبت أن الكعبة من بناء إبراهيم وإسماعيل، فأخذ الأسطورة من وضع القرآن عن قريش لأنه منهم؛ فالقرآن حينئذ كذب وتلفيق وليس من عند الله!!

هذا الفصل الذي كتبه الرافعي تحت عنوان «أستاذ الآداب والقرآن» من

أقوى ما دافع به الرافعي عن الحقيقة المؤمنة، وهو وحده كافٍ لتحطيم كتابٍ لم يَرَعِ حُرْمَةَ البَحْثِ، حين نقل أكاذيب الاستشراق عن القرآن وعن رسول الله، وقد وقع الدكتور طه في تناقض حين قرر أنه لا يجوزُ الاعتماد على الشعر الجاهلي في تصوير الحياة الجاهلية، وإنما يُلْتَمَسُ هذا التصوير في روايات التاريخ وفي الأساطير، وَوَجَّهَ التناقض ما ذكره الرافعي حين قال<sup>(١)</sup> :

«لقد عجبتُ لأستاذ الجامعة كيف يعتمدُ في تصوّر العصر الجاهلي على التاريخ والأساطير، وهو الذي يقولُ بالشك! وكيف تصحُّ عنده الأساطير، ويصحُّ التاريخُ العربي دون الشعر الجاهلي! وهل جاء هذا الشعرُ إلا من الطريق التي جاءت منها الأساطير والتاريخ، أي بالرواية والإسناد، ومن الحفظ والتلقين؟ وإذا جاءت ثلاثُها من طريق واحدة، وكان الكذبُ والوضعُ قد دَخَلَهَا جميعاً، ونص العلماءُ على أشياء من ذلك في الأبواب الثلاثة، فكيفَ يكونُ العصر الجاهلي صحيحاً في اثنين منها دون الثالث، مع أن الوضعَ فيهما أيسرُ من الوضع في الشعر، إذ هما كلامٌ كالكلام لا مؤونة فيه ولا تعب، ولا صناعة، ولا كذلك الشعرُ، وخاصةً ما يوضع على السنة فحول الجاهليين».

وكل ما ذكره الأستاذ الرافعي في هذا الفصل رائعٌ رائعٌ، وقد فتح به القول لكثيرٍ ممن ناقشوا الدكتور طه فيما بعد، وليس معنى ذلك أنهم أخذوا منه، ولكن معناه أن الناقد الكبير يفتحُ أبواباً كثيرة من القول، يقرؤها الدارس المتفحص، فتفتحُ عليه بكلامٍ جيدٍ يشدُّ أزرَ النقد الرافعي، فحديثه ذاك بذرةٌ جيدةٌ في أرضٍ خصبة لم تلبث أن صارت شجرةً مورقة.

أما فكرةُ الشك في العصر الجاهلي فقد أثبت الرافعي أنها مأخوذة من

(١) تحت راية القرآن للرافعي (ص ١٥١).

المستشرقين. وهو أول من أشار إلى ذلك وكان أميناً في إشارته، حيث أثبت عن الدكتور يعقوب صروف أن مجلة الجمعية الأسبوعية نشرت بحثاً لمرجليوث أنكر فيه صحة الشعر الجاهلي! وقد بحث الدارسون على مجلة الجمعية فوجدوا النقل صريحاً دون لبس، ومعنى ذلك أن الرجل تبنى أقوال غيره دون أن يشير إليه أدنى إشارة، وجاء أحد أشياعه فكتب أن ذلك من قبيل توارد الخواطر كما زعم طه حسين، وتوارد الخواطر لا يكون في نظرية ذات حجج وبراهين واستشهاد، ولكنه يكون في فكرة أو خاطرة أو معنى بيت مفرد! وإذا كان التوارد قد جاء في النظرية فلم تكون حججها وبراهينها واستشهاداتها متفقة؟!!

وتتبع الآراء الخارجة التي فندها الأستاذ الرافعي في كتابه «تحت راية القرآن» مما يتسع بالبحث إلى مدى فسيح، ولكن أذكر النقاط الهامة، نقلاً عن كتاب «معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين» للدكتور الباحثة إبراهيم عوض، حيث جمع هذه الخطرات الشاذة في موضع واحد من كتابه، وقد أشرت إلى حديث طه حسين عن القرآن والتوراة وعدم الركون إليهما، وبقي أن أقتبس ما قاله الدكتور عوض في حيزه<sup>(١)</sup> الوجيز مما فنده الرافعي أتم تفنيد، وهو منحصر في هذه النقاط:

١ - يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي أن ننسى قوميتنا وكلّ مشخصاتها، وننسى ديننا، وكلّ ما يتصل به.

٢ - إن قريشاً كانت في عصر ما قبل الإسلام ناهضةً نهضةً مادية تجارية، ونهضةً دينيةً وثنيةً، وهي بحكم هاتين النهضتين كانت تحاول أن توجد في البلاد وحدةً سياسيةً وثنيةً مستقلةً، وإذا كان هذا حقاً ونحن نعتقد أنه حقٌّ فمن المعقول أن تبحث هذه النهضة الجديدة عن أصل تاريخي يتصل

(١) «معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين» (ص ١٩) للدكتور إبراهيم عوض.

بالأمم التاريخية المجادة التي تتحدثُ عنها الأساطير، وإذن فليس ما يمنع قريشاً من أن تتقبل هذه الأسطورة التي تفيد ذلك ولأسباب مُتشابهة أسطورة أخرى صنعها اليونان تُثبت أن روما متصلةٌ بإيتياس بن بريام، صاحب طروادة، وكذلك ما قاله (ص ٨٠) من كتابه السالف الذكر: من أن القرآن «يذكر التوراة والإنجيل ويجادل فيهما اليهود والنصارى، وهو يذكر غير التوراة والإنجيل شيئاً آخر هو صحف إبراهيم، ويذكر غير دين اليهود والنصارى ديناً آخر هو ملة إبراهيم، هو هذه الحنيفية التي لم نستطع إلى الآن أن نتبين معناها الصحيح، وإذا كان اليهود قد استأثروا بدينهم وتأويله، وكان النصارى قد استأثروا بدينهم وتأويله، ولم يكن أحداً قد احتكر ملة إبراهيم ولا زعم لنفسه الانفراد بتأويلها، فقد أخذ المسلمون يردُّون الإسلام في خلاصته إلى دين إبراهيم، ويذكر (ص ٨٣): «وليس يعني هنا أن يكون القرآن قد تأثر بشعر أمية بن أبي الصلت أو لا يكون، وقوله (ص ٨٥) في الرد على المستشرق كليمان هوار، وزعمه أن النبي ﷺ قد استعان بشعر أمية بن أبي الصلت في تأليف القرآن: «من ذا الذي يستطيع أن ينكر أن كثيراً من القصص كان معروفاً بعضه عند اليهود وبعضه عند النصارى، وبعضه عند العرب أنفسهم، وكان من اليسير أن يعرفه النبي ﷺ، كما كان من اليسير أن يعرفه غير النبي، ثم كان النبي ﷺ وأمة متعاصرين، فلم يكن النبي ﷺ هو الذي أخذ من أمية، ولا يكون أمية هو الذي أخذ من النبي» والرافعي يلمح بهذا الكلام إلى أن النبي في نظر طه حسين هو مؤلف القرآن، وهو ما يفهم من قوله (ص ١٨٢) في تعليل مخالفته لمن يرون أن إنكار الشعر الجاهلي يسيء إلى القرآن لأن القرآن ليس بحاجة إلى شواهد من الشعر على ألفاظه ومعانيه عند العرب «إن أحداً لم ينكر عربية النبي فيما نعرف، فهو يرى في الإشارة الأخيرة أن القرآن هو كلامُ النبي وقوله (ص ٧٢)

- (٧٣): أنه يُوجد نوعٌ آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر وإضافته للجاهليين، وهو ما يُقصد بتعظيم شأن النبي من ناحيه أسرته ونسبه إلى قريش، فلأمر ما اقتنع الناس أن النبي يجب أن يكون صفوة بني هاشم، وأن يكون بنو هاشم صفوة بني عبد مناف، وأن يكون بنو عبد مناف صفوة مضر، وأن كون مضر صفوة عدنان، وعدنان صفوة العرب، والعرب صفوة الإنسانية كلها، وهذا تهكمٌ واستهزاءٌ بالحديث المروي عن رسول الله ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

هذه أمورٌ أوجزها مؤلف «معركة الشعر الجاهلي بين الرافعي وطه حسين» كما تحدّث عنها الرافعي في نقده لكتاب الشعر الجاهلي، وهي مسائلٌ من الخطورة بحيث لا تُترك دون ردٍّ ماحق، وقد قام الرافعي بهذا الرد أولاً، قبل أن يسبقه غيره من كبار النقاد، أفيجوز لمن يعقدون المؤتمرات أن يسخروا بالرافعي ويعدون عقبه في طريق ما يسمونه (بالتنوير)!! على حين يكون طه حسين علم الأعلام في التنوير المعاصر، ونحن نقرأ ما كتب طه وما ردَّ به الرافعي، وتزُنُّ كل قول بمقدارِ حظه من الصواب والخطأ، وإذا أراد المغرضون أن يهاجموا الرافعي فعليهم أن يثبتوا شيئاً واحداً هو أن الرافعي قد افترى هذه الأقوال ونسبها إلى طه حسين اختلاقاً وافتراءً، وهو منها بريء بريء، وأظنهم لا يستطيعون أن ينكروا الحق اللائح الصريح، وحينئذٍ عليهم أن يحترموا من جاهد في سبيل دينه ولغته وعرويته، ولم يُلْقِ السلاح في حومة النضال، حتى قابل ربه، وصحيفته بيضاء، وقدره ثابتٌ مكين<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

(١) انظر «مصطفى صادق الرافعي» للدكتور محمد رجب البيومي (ص ٢٠٣-٢١٦).

\* معركة الفصحى والعامية بين الرافعي وأحمد لطفي السيد :

□ دافع أحمد لطفي السيد عن صلاحية اللغة العامية كي تختار ألفاظها المستعملة، لتزاحم اللغة العربية، وهب إلى ضرورة أخذ أسماء المستحدثات من اللغة العامية وإمرارها على الأوزان العربية بقدر الإمكان؛ لأن في استعمال مفردات العامية وتركيبها إحياء للغة الكلام، وإلباسها لباس الفصاحة، فيكون من ذلك رفع العامية إلى الاستعمال الكتابي، كما أنه أباح استعمال العامية في الأسلوب الدارج إذا أدت إلى المعنى المراد، فالمسألة ليست مسألة أسماء المستحدثات فقط، ولكنَّ معها ما سمَّاه (بالمصير) أي إضافة الكلمات الذائعة في العامية في مصر متى احتاج إليها الكاتب.

□ وهذا الشطط المتسرِّع دعا الرافعي إلى معارضته فقال - رحمه الله -:  
«إننا إذا تابعناه فإننا نلتمس كل ما أشار إليه من العامية المصرية وحدها، ولعلَّ هذا الرأي أن يشيع من ناحيتنا نحن المصريين، ويطمئن في كل أمة لها عربية، فتأخذ مأخذنا في عاميتها، وتنزع إلى ما نزعنا إليه. فإذا أمكن أن يتفق ذلك وأن تتوافى عليه الأمم، كان لعمري أسرع في فناء العربية ومحوها، وعاد عليها شؤم هذا الرأي بما لا يعود به تألب الأعداء عليها، ويوشك أن يجيء يوم تكون فيه تلك اللغة الفصحى في كتابها الكريم، ضرباً من اللغات الأثرية. ثم إذا حاولنا مذهب الإصلاح بالعامية فليت شعري من أي لهجة نأخذ، وأي لهجة في مصر هي غير مصرية فننبذها، وإذا جاز للعامية أن يتابعوا الكتاب فيما يخلطون به العامية بالعربية، أيتابعونهم على العامي الذي يفهمونه وحده، أو تكون المتابعة على العامي والفصيح معاً، ولماذا لا نأتي بالأسلوب العربي المأنوس فيفهمه العامة ولا داعي لغيره.

□ ثم قال - رحمه الله -: «نحن لا نماري في وجوب الإصلاح

اللغوي، ووجوب أن يكون للغة في هذه النهضة مجمع يحوطها، ويضع لها الألفاظ والمصطلحات، ولا نقول إن هذه العربية كاملة في مفرداتها، ولا أنه ليس لنا أن نتصرف فيها تصرف أهلها، فإن من يذهب إلى ذلك لا يعدو باللغة وسيلة من وسائل العيش، وإذن فالدعوة إلى إنشاء مجمع لغوي يضع المصطلحات العلمية والألفاظ الدالة على المستحدثات مما يخدم اللغة ويجعلها ذات اقتدار... ثم إن الأمر في اللغة ليس أمر المفردات فقط ولكنه أمر الأوضاع والتراكيب؛ لأن اللغات الراقية هي التي تتميز بوجوه تركيبها، ونسق هذه الوجوه فيها، والعامية لا تصلح في تراكيبها وصيغها للكتابة ما لم تُفصَّح على وجه من الوجوه. وهي بعد لا وزن لها في كل ما ابتعدت به عن الفصح إلا في كلمات قليلة، فإذا هي نافرت الفصح لفظاً أو نسقاً فلست واجداً إلا أطلالاً من كلمات عربية ياباها من يعرفها صحيحة ماثلة، وكيفما أدرتها لا تعرف لها إلا رقة الشأن وسقوط المنزلة بإزاء أصلها الفصح الذي خرجت منه»<sup>(١)</sup>.

هذا قليل من كثير توسع فيه الرافي إذ كتبه في ثلاث عشرة صفحة، جمعها في كتاب «تحت راية القرآن» وكان قد نشرها في مجلة البيان سنة ١٩١٢ حين جهر الأستاذ لطفي السيد برأيه، وبانقضاء أكثر من ثمانين عاماً على هذا الجدل استقرّ الوضع على نحو ما ابتغاه الرافي، فأنشئ مجمع اللغة وصارت الفصحى حافلة بما يرجوه المتحدث والمترجم من أدوات التعبير.

\* الرافي «والجملة القرآنية»:

□ يقول الدكتور محمد رجب البيومي في كتابه «مصطفى صادق

(١) «تحت راية القرآن» (ص ٥٣) وما بعدها ملخصاً.

الرافعي»<sup>(١)</sup> :

وإذا كان الرافعي سيد بلغاء هذا العصر في نسقه الأسلوبى الممتد بجذوره إلى أعرق أساليب الفصاحة في عهدها الزاهر، فإنَّ بعض الناقدین قد أخذ عليه اهتمامه بما سماه «الجملة القرآنية والحديث الشريف»، وما درى هذا الناقد أنه آثار ناثرة الكاتب المؤمن بما أخذَ عليه، فكتب مقالاً ضافياً تحت عنوان «الجملة القرآنية» نشره بمجلة الزهراء، وجمعه في كتاب «تحت راية القرآن»<sup>(٢)</sup>، وقد تعرضتُ للإشادة بهذا المقال في كتابي «في ميزان الإسلام» إذ كشفتُ الضوء عن ظلام اكتنف مبعث هذا النقد، وقلت فيما قلت<sup>(٣)</sup> :

«وإذا كان نابغة البيان المعاصر الأستاذ مصطفى صادق الرافعي - رحمه الله - من أبرز البلغاء فصاحة وجزالة، وللجملة القرآنية في بيانه وهج والتماع، إذ يستشهدُ بها في كل مجال، فإنَّ بعضهم قد حاول أن يغمز بيانه من ناحية إبداعه، وهو هوى مغرض يجعل الزين شيئاً، والنهار ليلاً، فقال قائلهم: لو ترك الرافعي التزامه بالجملة القرآنية لكان ذلك أجدى وأنفع، وطار القولُ إلى الرافعي فنهض للرد عليه بما اشتهر به من إقناع، وقال فيما قال: «لقد ظهر لي من نور الجملة القرآنية ما لم أكن أراه من قبل، حتى لكانها مكروسكوب يفصح عما يُخفي من صغار الجراثيم، مما يكونُ دقيقاً فيستعظم، وخفياً فيستغلق». وبلغ موضع النفاذ المصيب، حين قال: وإذا تركت الجملة القرآنية وعربيتها وفصاحتها وسموها وقيامها في تربية الكلمة وإرهاق المنطق، وصقل الذوق، مقام نشأة خالصة في أفصح قبائل العرب، وردّها تاريخنا القديم إلينا حتى كأننا منه، وصلّتنا به حتى كأنه فينا، وحفظها

(١) (ص ١٣٦ - ١٣٨).

(٢) «تحت راية القرآن» (ص ٢٤).

(٣) «في ميزان الإسلام» للدكتور محمد رجب البيومي (ص ٦٧).

لنا منطق رسول الله ﷺ ومنطق الفصحاء من قومه حتى لكان ألسنتهم هي عند التلاوة تدور في أفواهنا، وسلاقتهم فينا تقيمنا على أوزانها!! إذا فعلت ذلك ورضيته أفتراي أتبع أسلوب الترجمة في الجملة الإنجيلية، وأعين بنفسي على لغتي وقومي، وأكتبُ كتابةً تُميت أجدادي في الإسلام ميتةً جديدةً، وتنقلب كلماتي على تاريخهم كالذود يخرج من الميت، ولا يأكل إلا الميت، وأنشئ على ستي المريضة نشأةً من الناس يكون أبغضُ الأشياء عندها هو الصحيح الذي يجب أن يكون أحب الأشياء إليها.

□ ولله دره وهو يقول عن لغة القرآن والكتاب الحكيم والذكر الكريم:

فدتك نفسي قرآنية رفعت	بكف جبريل ما في مسها طمع
وللنبي عليها لم يزل نفس	حي ومن وجهه في تورها لمع
لكاد والله في التنزيل قارئه	يحس صوت رسول الله يرتفع
إن النبي لحي في ضمائرنا	على الزمان يرى منها ويستمع!
تالله ما ناصب الفصحى سوى رجل	بالمكر يخدع أو بالجهل ينخدع
كم أجنبي غريب بات يحفظها	كحفظ عينيه أن يغشاهما الوجع
وكم ترى من بنيتها ذا مكالسة	لسانه كلسان النار تندلع
يا قوم لن يستحي مستنقع وخم	إذا جرت حوله الأنهار والترع! <sup>(١)</sup>

### \* أصحاب اللسان المرقع:

الذين يتباهون بكلمات إفرنجية يسوقونها في محادثاتهم، تشبهاً بالضالين من الصليبيين ونسوا ما قاله شاعر النيل حافظ إبراهيم عن العربية:

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية وما ضقت عن آي به وعظات

(١) «مصطفى صادق الرافعي» (ص ٢٥١ - ٢٥٢).

فكيف أضيّقُ اليومُ عن وصفِ آلهِ  
أنا البحرُ في أحشائه الدرُ كامنُ  
وتنسيقِ أسماءِ لمخترعاتِ  
سقى اللهُ في بطنِ الجزيرةِ أعظماً  
فهل ساءلوا الغوّاصَ عن صدقاتي  
يعزُّ عليها أن تلينِ قناتي

□ «جاء على مصر حين الدهر، كان بعض ساستها، ومن يَلُونِ

المناصب الكبرى بها، يتباهون بكلمات إفريقية يسوقونها في محادثاتهم، حين لا يدعو الحديث إلى هذه الرطانة المسفة، وهم يشعرون أنهم يتعالون على من يحدثونهم حين يرطنون بألفاظ يسألهم السائل عن معناها حين يتكلمون، فينطقون بمرادفها في العربية بعد أن يصطنعوا التفكير، وكأنهم عن العربية بمنأى إذ هي في نظرهم لغة العامة لا الخاصة، وقد يرون أن الحديث بها لدى من يَلُونِ الأمر من الإنجليز زُلْفَى للتقرب إليهم واعترافاً بأن لغة المحتل أو غيرها من اللغات الأوربية أجدر بالتداول من لغة المحتل أو غيرها من اللغات الأوربية أجدر بالتداول من لغة الأمة. في هذه الفترة الحالكة كتب الرافعي مقاله «اللسان المرقع» ليكشف دخيلة هؤلاء، ويريهم أنهم محترقون عند أبناء وطنهم حين يتخذون لغة غير لغتهم، ومحترقون عند المحتل حين يراهم يلتمسون وسائل الخضوع والزلفى باتخاذ لغة لا يجيدونها حق الإجابة، بل يتظاهرون بمعرفتها، وأكثرهم منها بموضع شاسع. وللرافعي طريقته البارعة في التهكم الساخر بهؤلاء، فهو لا يقرّر الحقيقة وحدها بل يلبسها الصورة المضحكة التي تميل بالقارئ إلى الاستهزاء بمن يظنون أنفسهم كباراً وهم زعائف وذبول، يقول الرافعي (١) :

«وكان حضرة صاحب السعادة يكلم الباشا بالعربية التي تلعبها العربية، مرتفعاً بها عن لغة الفصيح ارتفاعاً منحطاً، نازلاً بها عن لغة السوقه نزولاً

(١) «وحي القلم» (٢/٢٩٦).

عاليًا، فكان يرتضخ لكنةً أعجمية، بينا هي في بعض الألفاظ جرسٌ عالٍ بطن، إذا هي في لفظٍ آخر صوتٌ مريض يئن، إذا هي في كلمةٍ ثالثة نغمٌ موسيقيٌّ يرن، ورأيتُه يتكلَّف نسيان بعض الجمل العربية، ليلوي لسانه بغيرها من الفرنسية، لا تظرفًا ولا تملحًا، ولا إظهارًا لقدرة أو علم، ولكن استجابةً لشعور الأجنبي الخفي المتمكن في نفسه، فكانت وطنيةٌ عقله تأبى إلا أن تكذب وطنية لسانه، وهو بإحداهما زائفٌ على قومه، وبالأخرى زائفٌ على غير قومه، فلما انصرف الرجل قال الباشا: أفٌ لهذا وأمثال هذا، أفٌ لهم ولما يصنعون، إن هذا الكبير يلقبونه (حضرة صاحب السعادة)، ولأشرف منه والله رجلٌ قرويٌّ ساذجٌ «ينطق بلغته». . . إن عمله أن يعلن برطانيته الأجنبية أن لغة وطنه ذليلة مهينة، وأنه متجردٌ من الروح السياسي للغة قومه، إذ لا يظهر الروح السياسي للغة ما إلا في الحرص عليها وتقديمها على سواها»<sup>(١)</sup>.

### \* الرافعي وردّه على محمود عزمي المتباهي بالقبعة:

وهو مسخ مشوه لزنديق تركيا أتاتورك الذي حرّم على المسلمين لبس العمامة والأزهمم بالقبعة ونصب المشائق من أجل هذا، والقبعة هي الشعار الثالث للصليبيين بعد الزنا والصليب ظهر خاصة أثناء الحروب الصليبية، وهو لبس خاص بهم، ولذلك أفتى أهل العلم بتحريم لبسها ومنهم الإمام النووي، فأتى قوم أعجبهم كل ما في الغرب فساروا على نهجه حتى في القبعة وقلدوا تركيا أتاتورك، والرافعي يقول في ذلك على لسان من سمّاه «صاحب السر»<sup>(٢)</sup>:

«لقد نجمت في مصر حركةٌ بعقب أيام البدعة التركية، حين لم تبق

(١) «مصطفى صادق الرافعي» لمحمد رجب البيومي (ص ١٣٨ - ١٣٩).

(٢) «وحي القلم» (٢/ ٣٠١).

لشيء هناك قاعدة، إلا القاعدة الواحدة التي تقرّها المشانق، فمن أبى أن يخلع العمامة عن رأسه خلعوا رأسه، ومن قال «لا» انقلبت «لا» هذه مشنقة فعُلّق فيها. وكانت فكرة اتخاذ القبعة في تركيا غطاءً للرأس قد جاءت بعد نزعاتٍ من مثلها كما يجيء الخذاء آخر ما يلبس اللابس، فلم يشك أحد أنها ليست قبعةً على الرأس أكثر مما هي طريقة لتربية رأس المسلم تربيةً جديدةً، ليس فيها ركعة ولا سجدة، وإلا فنحن نرى هذه القبعة على رأس الزنجي والهمجي، وعلى رأس الأبله والمجنون، فما رأيناها جعلت الأسود أبيض، ولا عرفناها نقلت همجياً عن طبعه، ولا زعم أحد أنّها أكملت العقل الناقص، أو ردّت العقل الذاهب».

وقد احتجوا يومئذ لصاحب تلك البدعة أنه لا يرى الوجه إلا المدنية، ولا يعرف المدنية إلا مدينة أوربا، فهو يمثلها كما هي في حسناتها وسيئاتها، وما يحلّ وما يحرم، وما يكون في حاجه إليه وما يكون في غنى عنه؛ حتى لو أن الأوربيون كانوا عوراً الطبيعة، لجعل هو قومه عوراً بالصناعة ليشبهوا الأوربيين.. نعم إنها حاجة تامة لولا نقص في البرهان، يمكن تلافيه بإخراج طبعة جديدة من كتب الفتوح العثمانية، يظهر فيها الخلفاء العظام والأبطال المغاوير الذين قهروا الأوربيين لابسين قبعات، ليشبهوا الأوربيين. كان في القديم رجل سمع أن البصل بالخلّ نافع للصفراء، فذهب إلى بستان يملكه وقال لو كيّله: ازرع لي بصلاً بخل.. هكذا يريدون من القبعات أن تُخرج لهم تُركاً بأوربيين.

ليست هذه القبعة في تركيا هي القبعة، بل هي كلمة سب للعرب ورد على الإسلام ضاقت بها كل الأساليب أن تُظهرها واضحةً بينةً، فلم يف بها إلا هذا الأسلوب وحده. وهي إعلان سياسي بالمناوأة والمخالفة والانحراف عنا وإطراحنا، فإن الذي يخرج من أمته لا يخرج منها وهو في ثيابها

وشعارها؛ فهذا افتح لهم باب الخروج في القبعة دون غيرها مما يجري فيه التقليد أو يُبدعُه الابتكار؛ وإلا فأبي سر في هذه القبعات، ومتى كانت الأمم تقاس بمقاييس الخياطين.؟

هاهنا سيفُ أراد أن يكون مَقْصاً فعمل أولاً ما يعمل الحسامُ البتار، فأجاد وأبدع وأكبره الناسُ وأعظموه؛ ثم صنع ما يصنع المِقْصُ، فماذا عساه يأتي به إلا ما ينكره الأبطالُ والخياطون جميعاً؟

أَكْتُبَ عَلَيْنَا أَنْ نَنْظُرَ دَهْرَنَا نَبْحَثُ فِي التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى، وَالْأَيْحِيَا الشَّرْقِيِّ إِلَّا مُسْتَعْبِداً يَنْتَظِرُ فِي كُلِّ أَمْرِهِ مَنْ يَقُولُ لَهُ: اشْرَعْ لِي...؟ إِنْ بَحَثْنَا فَلْنَبْحَثْ فِي زِيٍّ جَدِيدٍ نَمَيِّزُ بِهِ، فَتَكُونُ الْقُوَى الْكَامِنَةُ فِيْنَا وَفِي طَبِيعَةِ أَرْضِنَا وَجُونَا هِيَ الَّتِي اخْتَرَعَتْ لظَاهِرِهَا مَا يَجْعَلُهُ ظَاهِرِهَا، كَمَا يُخْرِجُ زَوْرُ الْأَسَدِ لِبَدَّةِ الْأَسَدِ، غَايَةَ فِي الْمَنْفَعَةِ وَالْجَمَالِ وَالْمَلَاءِمَةِ.

□ هذا رأي الرافعي في القبعة، وقد أرادت مجلة الهلال (سنة ١٩٢٧) أن تُنبّه الأذهان إلى غطاء الرأس الذي بدأ ينتشر تقليداً لتركيا التي قلدت بدورها أوروبا فأتاحت الفرصة لكاتبين أن يُبدِيا رأيهما في القبعة، وهما الدكتور محمود عزمي والأستاذ مصطفى صادق الرافعي. أما عزمي فقد نبأه وافتخر بارتدائه القبعة، وقال: إن من رأوه يلبسها لأول مرة قالوا له: بدأ الشرقيون يفكرون براءوسهم، وأن القبعة التي بدأت تنتشر في الوسط الآخذ بالمذاهب الحديثة تُمثل لوناً خاصاً! وزاد فقال: إني أنا من الذين يريدون أن يأخذوا من المدينة العصرية وهي الحضارة الغالبة، وأن الخير كل الخير في شُحُوصِ الكتلة الشرقية المتكلمة لغة عربية إلى شواطئ البحر المتوسط الشمالية الغربية، وبأن كل نظرة إلى رمال التيه والبادية إنما تكون نُكُوصاً على الأعقاب في ميدان الجهاد الذي يسير فيه العالم سيراً هائل السرعة إلى الأمام.

□ هذا بعض ما قاله الأستاذ محمود عزمي بشأن القبعة. أما الأستاذ مصطفى صادق الرافعي فقد عارضه بمقال فخم نشر بمجلة الهلال المشار إليها، ولا أدري لماذا لم يجمع بين مقالات وحي القلم لجدارته بالذبيوع، قال الرافعي<sup>(١)</sup>: «القبعة على رأس المصري منفرداً بها دون قومه، بائناً من جملتهم، إنما هي مظهرٌ من مظاهر التحلل الاجتماعي، وارتكاسٌ في منطق الجملة المصرية، ونفيٌ لهذا الرقم من عبارة مجموعة، وهي في الرجال مشتقةٌ من المصدر الذي يخرج منه التهتكُ في النساء، وكلاهما ضدٌّ من صفة اجتماعية تقومُ بها فضيلةٌ شرقية عامة، ولا يهولنك ما أقررتك من أن القبعة على رأس المصري تهتكٌ أخلاقي أو تهتكٌ سياسي، أو تهتكٌ ديني، أو من هذه كلها معاً، فإنك تعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب، بعد أن تهتكت الأخلاق الشرقية الكريمة، وتحللت أكثر عقدها، وقاربت الحرية العصرية بين النقائص حتى كادت تختلطُ الحدود اللغوية، فحرية المنفعة تجعلُ الصادق والكاذب بمعنى واحد، فلا يقالُ إلا أنه وجد منفعته فصدق، ووجد منفعته فكذب، ومتى أزيلت الحدودُ بين المعاني كان طبيعياً أن يلتبس شيءٌ بشيء، وأن يحلَّ معنى في موضع معنى، وأصبح الباطل باطلاً بسبب، وحقاً بسبب آخر. ومن اختلاط الحدود تجيء القبعة على رأس المسلم، وما هي إلا حد يطمس حدّاً، وفكرة تهزم فكرة، ورذيلة تقول لفضيلة: ها أنذي قد جئت فاذهبي».

والمقالُ جيدٌ متصل التحليل، حارّ النَّفس، وفيه كفاء أي كفاء لمن يبتغي مقطع الصواب.

(١) «مجلة الهلال»: مجلد سنة ١٩٢٧، وقد أعيد نشر المقال في العدد الخاص من الهلال بمناسبة مرور ٧٥ سنة على إنشاء المجلة مع مقال الدكتور عزمي ليظهر الرأيان المتعارضان.

\* مصطفى صادق الرافعي يفضح أتاتورك ويأخذ بثأر الإسلام منه :

مصطفى كمال أتاتورك الذي أسقط الخلافة وذهب بمجد المسلمين عليه من الله ما يستحقه.

لقد كان مصطفى كمال ذا أبواق عالية الصدى رنانة الزئير في مصر، وقد صدرت كتب مصرية بأقلام مصريين ينتسبون إلى الإسلام!!! تؤيد هجومه على الإسلام وازدراءه للغة العربية، وجعل العطلة الأسبوعية يوم الأحد لا يوم الجمعة، وضرورة لبس القبعة، وإغلاق المساجد وتحويلها إلى متاحف أو متزهات!! صدرت كتب في مصر تؤيد اتجاهه الإلحادي، ومروقه عن دينه، فقام الرافعي زائداً عن دينه في وجه هذا الطاغية الذي ذهب وذهبت أفكاره إلى مزابل التاريخ وانقلب وهو حسير.

□ تكلم الرافعي عن أتاتورك في مقاله «تاريخ يتكلم بالجزء الثاني من وحي القلم وقد جعل حديثه الظاهري عن الحاكم بأمر الله كيلا يدخل تحت دائرة المسؤولية حين يعترض الأذنان. والمقالة الصريحة عن أتاتورك تحت عنوان «كفر الذبابة» وانظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافعي».

\* قال الرافعي عن أتاتورك :

«كانت أعماله في جملتها هي نقض أعمال الشريعة الإسلامية، وظن أنه مستطيع محو ذلك العصر من أذهان الناس وقتل التاريخ الإسلامي بتاريخ قاتل سفاك.

وسوّل له جنونه أن خلقَ تكديماً للنبوة؛ ثم أفرطَ عليه الجنونُ فحصلَ في نفسه أنه خلقَ تكديماً للألوهية؛ وفي تكذيبه للنبوة والألوهية يحملُ الأمة بالفهر والغلبة على ألا تصدقَ إلا به هو؛ وفي سبيل إثباته لنفسه صنّعَ ما صنع، فجاء تاريخه لا ينفي ألوهية ولا نبوة، بل ينفي العقل عن صاحبه؛

ابتلي هذا الطاغية بنقيصتين: إحداهما من نفسه، والأخرى من غيره؛ فأما التي من نفسه فإنني أراه قد خلِقَ وفي مخه لفافة عصبية من يهودية.

هذه اللفافة اليهودية في مخ هذا الطاغية ستحقق به قول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ...﴾ فهو لن يكون العدو للإسلام دون أن يكون الأشدَّ في هذه العداوة ويكون فيها الأشدَّ حتى يفعل بها الأفاعيل المنكرة. وما أرى هذه المآذن القائمة في الجو إلا تجري بمنظرها عينيه من بغضه للإسلام وانطوائه على عداوته؛ فويل لها منه!

وأما النقيصة الثانية فقد ابتلي بقوم فتنوه بأرائهم ومذهبهم، وقد لفقوا للدنيا مذهباً هو صورة عقولهم الطائشة، لا يجيء إلا للهدم، ثم يضع أول معاوله في قبة السماء ليهدمها..! ولو أنا جمعتُ هذا المذهب في كلمة واحدة لقلت هو حماقة حمقاء تريد إخراج الله من الوجود لإدخال الله في بعض الطُّغاة!

يرى هذا الطاغية أن الدين الإسلامي خرافة وسعودة عن النفس، وأن محو الأخلاق الإسلامية العظيمة هو نفسه إيجاد أخلاق، وأن الإسلام كان جريئاً حين جاء فاحتل هذه الدنيا، فلا يطرده من الدنيا إلا جراءة شيطان كالذي توقع على الله حين قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

□ أظهر الطاغية أن الله يؤيد به الإسلام، ليتآلف الجند والشعب ويستميلهم إليه، وكان في ذلك لئيم الكيد، دني الحيلة، يهودي المكر.

وكانت هذه المعاملة الإسلامية الكريمة من هذا الطاغية، هي بعينها ربا اللُفافة اليهودية في مخه؛ تُصلحُ بإقراض مائة وفيها نية الخراب بالسنتين في المائة..! فإنه ما كاد يتمكّن من الناس ويعرف إقبالهم عليه وثقتهم به، حتى طلبت اللُفافة اليهودية رأس المال والربا؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخراجها، وأبطل العيدين وصلاة الجمعة، وقتل الفقهاء.

إن هذا الطاغية ملكٌ حاكم، يستطيعُ أن يجعلَ حماقته شيئاً واقعاً، فيقتلَ علماءَ الدينِ بإهلاكهم، ويقتلَ مدارسَ الدينِ بإخرابها، ولو شاءَ لاستطاعَ أن يشنقَ من المسلمين كلَّ ذي عمامة، في عمامته. ويبلغ من كفره أن يتبجحَ ويرى هذا قوةً، ولا يعلم أنه لهوانه على الله قد جعله الله كالذبابة التي تُصيبُ الناسَ بالمرض، والبعوضة التي تقتلُ بالحمى، والقملة التي تُضربُ بالطاعون، فلو فخرت ذبابة، أو نجحت قملة، أو استطالت بعوضة، لجاز له أن يظنَّ ظنينه في العالم. وهل فعل أكثر مما تفعل؟

لقد أودى بأناسٍ يقوم إيمانهم على أن الموتَ في سبيل الحق هو الذي يُخلدُهم في الحق، وأن انتزاعهم بالسيف من الحياة هو الذي يضعهم في حقيقتها، وأن هذه الروح الإسلامية لا يطمسها الطغيان إلا ليجلوها.

إنه والله ما قتلَ ولا شنقَ ولا عذبَ، ولكن الإسلام احتاج في عصره هذا إلى قوم يموتون في سبيله، وأعوزه ذلك النوع السامي من الموت الأول الذي كان حياة الفكر ومادة التاريخ، فجاءت القملة تحمل طاعونها..!  
لقد أحياهم في التاريخ، أما هم فقتلوه في التاريخ، وجاءهم بالرحمة من جميع المسلمين، أما هم فجاءوه باللعنة من المسلمين جميعاً!

\* لو سمع لسمع المساجد والمقابر والشوارع تقول.. أخزاه الله..!!

□ هذه طبيعة كل حاكم فاسق مُلحد، يرى في نفسه رذائله عريانةً، فلا يكون كلامه وعمله وفكره إلا فحشاً يتعرى؛ وإن في هذا الرجل غريزة فسق بهيمية متصلة بطور الحيوان الإنساني الأول؛ فما من ريب أن في جسمه خلية عصبية مُهتاجة، ما زالت تسبحُ بالوراثة في دماء الأحياء، متلفقة على خصائصها، حتى استقرت في أعصاب هذا لفاسق، فانفجرت بكل تلك الخصائص.

ولست أرى أكثرَ أعماله ترجعُ في مَرَدِّها إلا أن طغيان هذه الغريزة فيه؛ فهو يحاول هدم الإسلام؛ لأنه دينُ العفة ودينُ صَوْنِ المرأة، يُلْزِمُها حجابَ عِفْتِها وإبائها، ويمنعُها الابتذال والخلاعة. وليعيناها أن تتخلَّصَ ممن يشتهيها، ولو كان الحاكم.. إنه يمقتُ هذا الدينَ القويَّ، كما يمقتُ اللصُّ القانون؛ فهو دينٌ يثقلُ على غريزته الفاسقة، ولكل غريزة في الإنسان شعورٌ لا مَهْنَأُ لها إلا أن يكون حرّاً حتى في التوهّم؛ وهل يُعجبُ السكيرُ شيءٌ أو يُرضيه أو يلذه، كما يُعجبه أن يرى الناس كلهم سُكارى؛ فينشئُ هو بالخمير، وتسكر غريزته برؤية السكر؟!!

وما زال رأيُ الفُسَّاقِ في كل زمن أن الحرية هي حرية الاستمتاع، وأن تقييد اللذة إفسادٌ للذة.

□ يزعم الطاغية أنه يُعزُّ قومه. وما أراه يُعزهم، لكنه يمتحنُ ذلهم وضعفهم وهوانهم على الأمم يتجرأ شيئاً فشيئاً، مُتَنظِراً ما يتسهَّل، مرتقباً ما يمكن؛ وهو يرى أن أخلاقنا الإسلامية هي أمواتنا دفنوا أنفسهم فينا؛ فمن ذلك يهدمُ الأخلاقَ ويظنُّ عند نفسه أنه يهدمُ قبوراً لا أخلاقاً.

اندلعت ثورة الفجور في المدينة لا من العبيد، ولكن من الحيوان العتيق المستقرّ في هذا الطاغية.

□ يزعم الطاغية أنه سيهدم كل قديم؛ واني لأخشى واللّه أن يأمرَ الناسَ في بعض سَطَوَاتِ جنونه: أن كل من كان له أبٌ أو أم بلغ الستين فليقتله، لتخلَّصَ الأمة من قديمها الإنساني..!

كانه لا يعرفُ أنه إنما يتسلط على أيام مُعاصريه لا على التاريخ، ويحكمُ على طاعة قومه وعصيانهم لا على قلوبهم وطباعهم وميراثهم من الأسلاف؛ فما هو إلا يهلك حتى ينبعث في الدنيا شيثان: نَتْنُ رَمْتِهِ في بطن الأرض، ونتاج أعماله على ظهر الأرض. إن هذا الرجلَ المسلَّطَ، كالغبارِ

المستطار لا يكس إلا بعد أن يقع..

□ لا يرضى الطاغية إلا أن يَمَحَقَ روحانية الأمة كلها، فلا يترك شيئاً روحانياً له في أعصاب الناس أثر من الوقار، وبمن يستظهر - ويله - إذا مُحِقَت روحانية الأمة وأشرفت نزعُها الدينية على الانحلال؟ كأنه لا يعلم أن حقيقة الوجود لأمة من الأمم إنما تُسَمَدُّ من إيمانها بالمثل الأعلى الذي يدفعها في سلمها إلى الحياة بقوة، كما يدفعها في حربها إلى الموت بقوة؛ وكأنه لا يعلم أن التاريخ كله تُقرره في الأرض بضعة مبادئ دينية.

أي مجنون أسخف جنوناً من هذا الذي يحسب النفوس الإنسانية كالأخشاب؛ تقبل كلها بغير استثناء أن تُدَقَّ فيها المسامير...؟  
سيعلم إذا نشبت حربٌ بينه وبين دولة أخرى، أنه كسر أشدَّ سيوفه مضاء حين كسر الدين!

\* كُفْرُ الذُّبَابَةِ\* .. أو كُفْرُ أَتَاتُورِك :

قال كَلِيلَةُ<sup>(١)</sup> وهو يعظ دمنةً ويحذره ويقضي حق الله فيه؛ وكان دمنةً قد داخله الغرورُ وزهاه النصر، وظهر منه الجفاء والغلظة، ولقي الثعالب من زيغه وإلحاده عنثاً شديداً:

«.. واعلم يا دمنة أن ما زعمته من رأيك تاماً لا يعتره النقص، هو بعينه الناقص الذي لم يتم؛ والغرور الذي ثبت به أن رأيك صحيح دون الآراء، لعله هو الذي يثبت أن غير رأيك في الآراء هو الصحيح. ولو كان الأمر على ما يتخيل كل ذي خيال، لصدق كل إنسان فيما

(\*) انظر «عود على بدء» من كتاب «حياة الرافي» لمحمد سعيد العريان.

(١) «كليلة ودمنة» هنا أسلوب من أساليب الأستاذ الرافي، يعمد إليه حين يريد تقرير المعاني بالتمثيل والمحاورة. وانظر مقاله «فلسفة الطائشة» في الجزء الأول.

يزعم، ولو صدق كلُّ إنسان فيما يزعم، لكذب كل إنسان؛ وإنما يدفعُ اللهُ الناسَ بعضهم ببعض، ليحيى حقَّ الجميع من الجميع. ويبقى الصغيرُ من الخطأ صغيراً فلا يكبر، ويثبت الكبيرُ من الصواب على موضعه فلا يُتقصص، ويصح الصحيحُ ما دامت الشهادةُ له، ويفسدُ الفاسدُ ما دامت الشهادةُ عليه، وما مثلُ هذا إلا مثلُ الأرنب والعلماء.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أن أرنباً سمعت العلماء يتكلمون في مصير هذه الدنيا، ومتى يتأذنُ اللهُ بانقراضها، وكيف تكونُ القارعة؛ فقالوا: إن في النجوم نجومًا مُدبَّبةً، لو التفت ذنبُ أحدها على جرم أرضنا هذه لطارت هواءَ كأنها نفخةُ النافخ، بل أضعف منها كأنها زفرةُ صدرٍ مريض، بل أوهى كأنها نفثةُ من شفتين. فقالت الأرنب: ما أجهلكم أيها العلماء! قد والله خرفتم وتكذبتم واستحمتم؛ ولا تزال الأرض بخيرٍ مع ذوات الأذنب؛ والدليلُ على جهلكم هو هذا - قالوا: وأرتهم ذنبها.!

قال كليلة: وكم من مغرورٍ ينزل نفسه من الأنبياء منزلةً هذه الأرنب من أولئك العلماء؛ فيقول كذبوا وصدقْتُ أنا، وأخطأوا جميعاً وأصبْتُ، والتبسَ عليهم وانكشف لي، وهم زعموا وأنا المستيقن. ثم لا دليلَ له إلا مثل دليل الأرنب الخرقاء من هنةٍ تتحركُ في ذنبها.

وكان يُقال: إنه لا يُجاهرُ بالكفر في قومٍ إلا رجلٌ هانَ عليهم فلم يعبأوا به، فهو الأذل المستضعف؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلم يعبأ بهم، فهو الأعزُّ الطاغية؛ ذاك لا يخشونه فيدعونه لنفسه وعليه شهادةٌ حمقه، وهذا يخشونه فيتركون معارضةً وعليه شهادةٌ ظلَّمه؛ وما شرٌّ من هذا إلا هذا.

وقالت العلماء: إن كنت حاكماً تُسئقُ من يخالفك في الرأي، فليس

في رأسك إلا عقلٌ اسمه الحبل؛ وإن كنت تُقتل من يُنكر عليك الخطأ،  
فليس لك إلا عقلٌ اسمه الحديد؛ وإن كنت تحبس من يعارضك بالنظر،  
ففيك عقلٌ اسمه الجدار؛ أما إن كنت تُناظرُ وتجادل، وتقنعُ وتتنع، وتدعو  
الناس على بصيرةٍ ولا تأخذهم بالعمى - ففيك العقلُ الذي اسمه العقل.

قال كليله: وأنا يا دمنة، فلو كنتُ قائداً مُطاعاً، وأميراً مُتبعاً، لا  
يُعصى لي أمر، ولا يُرد عليّ رأي، ولا ينكر مني ما يُنكر من المخلوق إذا  
أخطأ، ولا يقال لي دائماً إلا إحدى الكلمتين: أصبت؛ ثم هي دائماً أصبت؛  
ولا يلقاني أحدٌ من قومي بالكلمة الأخرى، رهبةً من سخطي رهبةَ الجبناء،  
أو رغبةً في رضاي رغبة المنافقين، وزعموا أنهم على ذلك قد صحّت نيّاتهم  
وخلص لي باطنهم جميعاً - فلو كنتُ وكانوا على هذا، لأحالي نقصهم إلي  
نقص العقل بعد كماله، وردّني فسولتهم إلى فسولة الرأي بعد جودته،  
فأخلق بي أن أعتبر وضعهم إياي في موضع الآلهة، هو إنزالهم إياي في  
منزلة الشياطين؛ وإلا كنتُ حقيقةً أن يُصيبني ما أصاب العنز التي زعموا لها  
أنها أنثى الفيل . . .

قال دمنة: وكيف كان ذلك .

قال: زعموا أنه كان في إحدى خرائب الهند جماعةٌ من العطاء، وكان  
فيها عَضْرُفُوطٌ كبيرٌ<sup>(١)</sup>، فملكته الجماعة وذهبت تأتمر على أمره وتنتهي . فمرّ  
بهذه الخربة فيلٌ جسيمٌ من الفيلة الهندية العظيمة، لم يحسنّ بالعطاء، ولم  
يُميّز فرقاً بين هذه الأمة من الحشرات وبين الحصى منثوراً يلتمع في الأرض  
هنا وهنا؛ قالوا: فغضب العضرُفُوطُ، وكان قائداً عظيماً، ثم تدبّر أمر الفيل  
ينظر كيف يصنع في مدافعتة، وكيف يحتال في هلاكه؛ فرآه لا يتحرك إلا

(١) العطاء: جمع عطاءة وعظاية، وهي هذه الدويبة التي يقال لها (السحلية)، والعضرُفُوط:

ضرب من العطاء يكون أكبر منها.

بأقدامه يَنْقُلُهَا وَاحِدَةً وَاحِدَةً؛ فَقَدَرَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَوْ أزالَ قَدَمَ الْفِيلِ عَنِ الْأَرْضِ زالَ الْفِيلُ نَفْسُهُ؛ فَجاءَ فَاعْتَرَضَ الطَّرِيقَ، وَدَبَّ دَبِيهَ؛ فَلَمَّا رَفَعَ الْفِيلُ قَدَمَهُ اهْتَبَلَ هَذِهِ الْعَفْلَةَ مِنْهُ.. وَانْدَسَّ تَحْتَهَا، فَانْدَسَّ مَقْبُورًا فِي التُّرابِ!

ثم إنَّ الْعِظَاءَ افْتَقَدَتْ أَمِيرَهَا. فَلَمَّا مَضَى الْفِيلُ لَسْبِيلَهُ وَرَأَتْ مَا نَزَلَ بِهَا، نَفَرَتْ إِلَى أَجْحَارِهَا، وَاسْتَكْنَتْ فِيهَا تَرْتَقِبُ وَتَتَرَبَّصُ، فَدَخَلَتْ إِلَى الْخَرِبَةِ عِزْرٌ جَعَلَتْ تَتَقَمَّمُ مِنْهَا وَتَرْتَعُ فِيهَا، وَرَأَتْهَا الْعِظَاءَ فَاجْتَمَعْنَ بِأَتَمَرْنَ..

فَقَالَ مِنْهَا قَائِلٌ: هَذِهِ أَنْثَى الْفِيلِ. فَسَأَلَتْ عِظَايَةَ مِنْهُنَّ: وَأَيْنَ النَّابَانِ

الْعَظِيمَانِ؟

قَالَتْ الْأُولَى: إِنَّ الْإِنَاثَ دُونَ الذَّكَوْرَةِ فِي خَلْقِهَا، وَالْأُنْثَى هِيَ الذَّكَرُ مَقْلُوبًا أَوْ مَخْتَصِرًا أَوْ مَشُوْهًا، وَلِذَلِكَ هُنَّ يَقْلِبْنَ الْحَيَاةَ أَوْ يَخْتَصِرْنَ أَوْ يَشُوْهِنَهَا، أَفَلَا تَرَيْنَ النَّابِيْنَ الْعَظِيْمِيْنَ الْبَارِزِيْنَ فِي ذَلِكَ الْفِيلِ الْجَسِيْمِ، كَيْفَ نَبْتَا صَغِيْرِيْنَ مَنقَلِبِيْنَ فَوْقَ رَأْسِ أَنْثَاهُ..؟

فَقَالَتْ وَاحِدَةٌ: إِنَّ جِازَ قَوْلِكَ فِي الرَّأْيِ فَأَيْنَ الْخُرْطُومُ؟

قَالَتْ الْأُخْرَى: هُوَ هَذِهِ الزَّمْمَةُ الْمُتَدَلِّيَةُ مِنْ حَلْقِهَا، وَذَلِكَ خُرْطُومٌ عَلَى

قَدْرِ أَنْوْثَةِ الْأُنْثَى..!

قَالُوا: ثُمَّ اجْتَمَعَ رَأْيُهُنَّ عَلَى أَنَّ يُمْلِكُنَّ أَنْثَى الْفِيلِ هَذِهِ؛ وَأَنَّ يَهْبِنَ لَهَا الْخَرِبَةَ وَأَمَّتْهَا. وَسَمِعَتْ الْمَاعِزَةَ كَلَامَهُنَّ فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا: لَا جَرَمَ أَنَّ تَكُونُ الْعِزْرُ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْعِظَاءِ، فَقَدَ قَالَتْ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهُ لَا كَبِيْرَ إِلَّا بِصَغِيْرٍ، وَلَا قَوِيًّا إِلَّا بِضَعِيْفٍ، وَلَا طَاعِيَةً إِلَّا بِذَلِيْلِ؛ وَإِنَّ الْعِظْمَةَ إِنْ هِيَ إِلَّا شَهَادَةُ الْحِقَارَةِ عَلَى نَفْسِهَا، وَإِنَّ رَبَّ عَظِيْمٍ طَاعِيَةً مُتَجَبِّرٍ مَا قَامَ فِي النَّاسِ إِلَّا كَمَا تَقُومُ الْحِيْلَةُ، وَلَا عَاشٍ إِلَّا كَمَا يَعِيْشُ الْكُذِبُ، وَلَا حَكَمٌ إِلَّا كَمَا يَحْكُمُ الْخِدَاعُ. وَهَذِهِ الدُّنْيَا لِلْمَحْظُوظِ كَأَنَّهَا دُنْيَا لَهُ وَحْدَهُ، فَمَتَى جَاءَتْ إِلَيْهِ فَقَدْ جَاءَتْ، وَلَوْ أَنَّهَا أُدْبِرَتْ عَنْهُ مِنْ نَاحِيَةٍ لَرَجَعَتْ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، لِيُثْبِتَ الْحِظَّ أَنَّهُ الْحِظُّ.

وتقدّم العطاء إلى العنز، فقلن لها: أيتها الفيلة العظيمة، إن قرينك العظيم قد مس أميرنا العصفوفَ بقدمه فغيبه تحت سبع أرضين، وأنت أئناه وسيدته، فقد اخترناك ملكة علينا، ووهبنا لك الخبرة وما فيها.

قالت العنز: فإني أتهب منكن هذه الهبة، ونعمًا صنعتن؛ غير أن بينكن وبينني ما بين العظاية والفيل. وما بين الحصاة والجبل، فإذا أنا قلت؛ فأنا قلت، وإذا أنا أمرت، فأنا أمرت؛ وإذا أنا فعلت، فأنا فعلت. هنا في هذه الأمة كلها (أنا) واحدة ليس معها غيرها؛ لأن هاهنا في هذا الرأس دماغ فيلة، وفي هذا الجسم قوة فيلة، وفي الخبرة كلها فيلة واحدة؛ فلا أعرفن منكن على الصواب والخطأ إلا الطاعة طاعة الأعمى للبصير. إلا وإن أول الحقائق أنني فيلة وأنكن عطاء؛ ومتى بدأ اليقين من هنا سقط الخلاف من بيننا وبطل الاعتراض منكن، وقوتني حق لأنها قوة، وباطلي كذلك حق لأنه من قوتي؛ وقد قال أسلافنا حكماء الفيلة: إن القوي بين الضعفاء مشيئة مطلقة، فهو مُصلح حتى بالإفساد، حكيم حتى بالحماقة، إمام حتى بالخرافة، عالم حتى بالجهالة، نبي حتى بالشعوذة...!

قالوا: وتُنكرُ عليها عَظَايَةَ صالِحَةً عالمةً كانت ذات رأي ودين في قومها، وكن يُسمينها: (العِمامة)، لبياضها وصلاحتها وطهارتها، فقالت: ولا كلُّ هذا أيتها الفيلة؛ لقد تخرصت غير الحق فإنك تحكمننا من أجلنا لا من أجلك، وما قولك إلا كلمات تُحققها أعمالنا نحن؛ فلك الطاعة فيما يصلحنا، وما كان من غيره فهو رد عليك، ورأيك شيء ينبغي أن تكون معه آراؤنا، لتبين الأسباب أسباب الموافقة والمخالفة، فنأخذ عن بينة ونترك عن بينة؛ وقد كان يقال في قديم الحكمة: إنه يجب على من يقدم رأياً للأمة الحازمة كي تأخذ به، أو يضع لها شرعاً ليحملها عليه، أو يسن لها سنة لتبناها - إنه يجب على هذا المتقدم لتحويل الأمة أو تحريرها أن يتقدم لأهل

الشورى وفي رأسه الرأي، وفي عنقه حبل؛ ثم يتكلّم برأيه ويسطّهُ ويدفعُ عنه، ويجادلُهُم ويجادلونه؛ فإن كان الرأيُ حقًّا أخذوا الرأي، وإن كان باطلاً أخذوا الحبل فشنقوا فيه هذا المتهور.

وفي ديننا أن الطاعة في المعصية معصيةٌ أخرى؛ ولقد كان لنا عضرفوطٌ بحائّةٍ في الأديان دراسة لكتبها علامةٌ نقابٌ؛ فكان مما علّمنا: أن المخلوق مبنِيٌّ على النقص إذ هو ماضٍ إلى الفناء، فيجب ألا يتمّ منه شيءٌ إلا بمقدار، وألا تكون القوة فيه إلا بمقدار؛ ولهذا كان العقلُ التامُّ في الأرض هو مجموع العقول العظيمة كلّها، وكان أتم الآراء وأصحّها ما أثبتت الآراءُ نفسها أنه أصحّها وأتمّها. فلا الدين اتّبع أيتها القبلة، ولا اتبعت فينا العقل، وليس إلا هذا (التفيلُ) الكاذب.

فلما سمعت العنزُ ذلك تنقّشت و غضبت، وقالت: إياكم وهذه الترهات من ألسنتكم، وهذه الأباطيل في عقولكم؛ لا أسمعن منكم كلمة الدين ولا كلمة الأنبياء ولا العضايف... فذلك وحي غير وحيي أنا؛ وإذا كان غير وحيي أنا فأنا لست فيه، وإذا لم أكن أنا فيه فهو لا يصلح للحكم الذي شرطه أن الدولة لي فيها إلا أنا واحدة. وذلك إن لم يجعلكم غرباء عني جعلني غريبةً عنكم، ما بُدُّ من إحدى الغريبتين، فهو أول القطيعة، والقطيعة أول الفساد. وما دام في الدين أمرٌ غيرٌ أمري، ونهيٌ غيرٌ نهبي، وتحليلٌ وتحريم لا يتغيران على مشيئتي - فأما مجنونة إن رضيت لكم هذا...!

فضحكّت (العمامة) وقالت للماعزة: بل قولِي: أنا مجنونة بـ (أنا)؛ أفلا يجوز وأنت خلقٌ من الخلق أن يعترِي عقلك شيءٌ مما يعترِي العقول؟ ولسنا ننكر أنك قوية الرأي في ناحية القوة، حسنة التدبير في ناحية الشجاعة، متجاوزة المقدار في ناحية الحزم والحرص على مصالح الدولة؛ ولكن ألم يقل الحكماء: إن الزيادة المسرفة في جهة من العقل، تأتي من

النقص المتحيّف لجهةٍ أخرى؛ وإنه ربّ عقلٍ كان تامّاً عبقرياً في أمور؛ لأنه ضعيفٌ أبلهٌ في غيرها؛ يُحسِنُ في تلك ما لا يُحسِنُه أحد، ويُحكِمُ منها ما لا يُحكِمُه أحد، ثم يغلطُ في الأخرى ما لا يغلطُ أحدٌ فيه؟

قالوا: فجاشت العنزُ وفارت من الغضب فورةَ الجبار، وخيّل إليها من عمى الغيظ أنها ذهبت بين الأرض والسماء، وأن زنمتها امتدّ منها خرطومٌ طويل، وأن قرنيها انبعج منهما نابان عظيمان؛ وقالت: ويحكم! خذوا هذه (العمامة) فاشنقوها؛ فإنها كما قالت؛ تقدّمت إلينا بالرأي والجلب!..!

وكان في العطاء ضعافٌ ومهازيلٌ وجبناءٌ، ومأكولون لكل أكل؛ فتشبح<sup>(١)</sup> لهم أن أنثى الفيل هذه.. ستخلقهم فيلةً إن هم أطاعوها؛ فإذا مردوا عليها فإنها من صرامة البأس بحيث تجعل كل ظلفٍ من أظلافها جبلاً فوقهم كأنه ظلّةٌ فتسوخُ بهم الأرض. ثم إنهم انخذلوا وتراجعوا، وأخذت (العمامة) الصالحةً فشنت، وخمدَ الرأي من بعدها، وانقطع الخلاف والدينُ والعقل الحر..؛ وأقبلت دولةُ العطاء على العنز تُجرّر أذيالها.

قالوا: واغترت الماعزةُ وأحست لها وجوداً لم يكن، وعرفت لنفسها وهي ماعزةٌ نباهةٌ شأن الفيل القوي، فلجت في عمّاتها وكفرت بجنسها، وقالت: لم يخلقني الله فيلةً وخلقني نفسي؛ فأنا لا هو..

وثبت عندها أنها ليست بعنزٍ وإن أشبهتها كلُّ عنزٍ في الدنيا؛ وذهبت تقلد وتعيشُ على مذاهب الفيلة بين العطاء، فإذا مشت ارتجبت وتحطرت كأنها بناء تفلقل، وإذا اضطجعت أنذرت الأرض أن تتمسك لا تدكّها بجنسها!..!

ومرّ ذلك الفيلُ بهذا الخرابِ مرّةً أخرى، فلاذت العطاءُ كلهن بالفيلة..

(١) أي خيّل إليهم وتمثّل.

وتأهبت هذه للقتال، وتحصَّفت في المبارزة والمناجزة.. (والمعاززة) فنصبت قرنيها، وحرَّكت زمنيها، وطأطأت، وشدت أظلافها في الأرض، وثبتت قوائمها، وصلبت عظامها، ونفشت شعرها، وتشوكت كالفنَّذ، وأصرتُ بكل ذلك إصرارها، وكانت عنزاً نطيحةً منذ كانت تتبعُ أمَّها وتتلوها، فكيف بها وقد تَفَيَّلتُ..؟

ثم إنها ثبتت في طريق الفيل ليرى بعينه هذا الهولَ الهائل.. فأقبل، فمدَّ خرطومَه، فنالها به، فلفها فيه، فقبضه، فرفَّعه، فكأنما ذهبت في السماء..!

وتَهَارَبَتِ العِظَاءُ ولذن بأجحارهن، ثم غَدَوْنَ على رزقهن؛ فإذا جِيفَةُ العنزِ غيرَ بعيد، فدببنَ عليها وارتعينَ فيها، وعلمنَ أنها كانت ماعزةً فيلها جنونها، وأدركن أن الكذبَ على الحقائق قد جعل الله له حقائقَ أخرى تقتله، وأن من غَلَبَ أمةَ العِظَاءِ على أمرها فليست الأيامُ والليالي عِظَاءَ فيغلبها؛ وأن تغييرَ المخلوقات، إنما يكونُ بتحويلِ باطنها لا بتحويلِ ظاهرها، وأن الإِنَاءَ الأحمرَ يُريك الماءَ محمراً والماءُ في نفسه لا حمرةً فيه، حتى إذا انكسر الإِنَاءُ ظهرَ كما هو في نفسه؛ وكلُّ ما يُخفي الحقُّ هو كهذا الإِنَاءِ: لَوْنُ عَلَى الْحَقِّ لَا فِيهِ؛ ثُمَّ أَيْقَنَنَّ أَنَّ مَحَاوِلَةَ إِخْرَاجِ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ مِنْ نَزَعَاتِ مَاعِزَةٍ مَأْفُونَةٍ، هِيَ كَمَحَاوِلَةِ اسْتِيلَادِ الْفِيلِ مِنَ الْمَاعِزَةِ..!

قال كليلة: واعلم يا دمنة أنه لولا أن هذه العنزُ الحمقاء قد كفرتُ كُفْرَ الذبابة، لما أخذها الله أخذَ الذبابة.

قال دمنة: وكيف كان ذلك؟

قال: زعموا أن ذبابةً سوداءَ كانت من حمقى الذبان، قُدِّرَتْ الحماقة عليها أبديةً، فلو انقلبت نقطة حبرٍ في دواةٍ لما كُتبتَ بها إلا كلمة: سُخْفٌ. ووقعت هذه الذبابةُ على وجه امرأةٍ زنجيةٍ ضخمة، فجعلت تقابلُ بين

نفسها وبين المرأة وقالت: إن هذا لمن أدل الدليل على أن العالم فوضى لا نظام فيه، وأنه مُرسلٌ كيف يتفق على ما يتفق، عبثاً في عبث، ولا ريب أن الأنبياء قد كذبوا الناس، إذ كيف يستوي في الحكمة خلقي (أنا) وخلق هذه الذبابة الضخمة التي أنا فوقها...؟

ثم نظرت ليلةً في السماء، فابصرت نجومها يتلألأان وبينها القمر؛ فقالت: وهذا دليلٌ آخر على ما تحقق عندي من فوضى العالم، وكذب الأديان، وعبث المصادقات؛ فما الإيمانُ بعينه إلا الإلحاد بعينه، ووضع العقل في شيء هو إيجاد الألوهية فيه، وإلا فكيف يستوي في الحكمة وضعي (أنا) في الأرض ورفع هذا الذبان الأبيض ويعسوبه الكبير<sup>(١)</sup> إلى السماء...؟

ثم إنها وقعت في دار فلاح، فجعلت تمورُ فيها ذهاباً وحيثاً، حتى رجعت الفلاح من مرعاها، فبهتت الذبابة وجمدت على غرَّتْها من أول النهار إلى آخره، كأنها تُزاوِلُ عملاً؛ فلما أمست قالت: وهذا دليلٌ أكبرُ الدليل على فوضى الأرزاق في الدنيا، فهاتان ذبابتان قد ثقبتا ثقبتين في وجه هذه البقرة... واكتتا فيهما تآكلان من شحمها فتعظمان سمناً؛ والناس من جهلهم بالعلم الذبائبي يسمونهما عينين.. وأنا قضيتُ اليومَ كله أحمشُ وأعضُ والسع لا تُقب لي ثقباً مثلهما فما انتزعت شعرة؛ فهل يستوي في الحكمة رزقي (أنا) ورزقُ هاتين الذبابتين في وجه البقرة...؟

ثم إنها رأت خنفساء تدب دبيبها في الأرواث والأقذار؛ فنظرت إليها وقالت: هذه لا تصلح دليلاً على الكفر؛ فإني (أنا) خيرٌ منها؛ (أنا) لي أجنحة وليس لها، (وأنا) خفيفةٌ وهي ثقيلة؛ وما كأنها إلا ذبابةٌ قديمة من ذباب القرون الأولى، ذلك الذي كان بليداً لا يتحركُ فلم تجعل له الحركة

(١) اليسوب: أمير النحل والذبان ونحوهما، خيل للذبابة أن القمر أمير هذا الذباب الأبيض.

جناحاً<sup>(١)</sup> . ثم إنها أصغت فسمعت الخنفساء تقولُ لأخرى وهي تحاورها: إذا لم يجد المخلوقُ أنه كما يشتهي فليكفر كما يشتهي؛ يا ويحنا! لمَ لم نكن جاموساً كهذا الجاموس العظيم، وما بيننا وبينه فرق إلا أنه وجدَ من يَنفُخُه ولم نجد .؟

فقالت الذبابة: إن هذا دليلُ العقل في هذه العاقلة، ولعمري إنها لا تمشي مثاقلةً من أنها بطيئةٌ مرهقةٌ بعجزها، ولكن من أنها وقورٌ مثقلةٌ بأفكارها، وهي الدليلُ على أي (أنا) السابقةُ إلى كشف الحقيقة .! .  
وجعلت الذبابةُ لا يسمعُ من دندنتها إلا، أنا، أنا، أنا . . من كُفِرَ إلى كُفِرَ غيره، إلى كُفِرَ غيرهما؛ حتى كأن السماوات كلها أصبحت في معركة مع ذبابة . .

ثم جاءت الحقيقةُ إلى هذا الإلحاد الأحمق تَسعى سعيها؛ فبينما الذبابةُ على وجه حائط، وقد أكلت بعوضةً أو بعوضتين، وأعجبتها نفسها، فوقفت تحكُّ ذراعها بذراعها - دنت بطةٌ صغيرة قد انفلقت عنها البيضةُ أمس، فمدت منقارها، فالتقطتها .

ولما انطبق المنقارُ عليها قالت: آمنتُ أنه لا إله إلا الذي خلَقَ البطة . .! . هـ من وحي القلم .

✽ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ :

من علم ما فعل غبار الغنم في أتاتورك وهو في أوج غروره، وما فعل النمل بحسده ويقصره، وكيف مات وكيف أخذه الله أخذ عزيز مقتدر علم روعة بيان الرافيعي نابغة الزمان .

(١) إشارة إلى أن الوظيفة تخلق العضو كما زعموا .

□ يقول الرافعي متهكماً بأعداء الخلافة الإسلامية:

رأى الطفل ناب الليث مسمار فكّه  
فلما دنا منه وصمّم وانتحى  
فلما دنا منه وصمّم وانتحى  
فلما دنا منه وصمّم وانتحى  
فيا طفلها ما كل ما أنت مصلح  
أتوا وبهم ریح الجنون ليعصفوا  
رموا شبكات الحرب في لجة السما  
ثرى الأرض قد مدّ الزوابع سلماً  
فصبت عليهم جنده بل نجومه  
ترف لهم راياتهم أين ررفت  
حنيفة إن هم لله جيشها  
مساعير حرب لا تنام همومهم  
فيا جبل الدنيا وإن كنت راسخاً  
\* دفاعه عن علماء الإسلام:

حين سقطت الخلافة على أيدي المتآمرين على حكم الله، نهض قوم من علماء الأزهر يكتبون في الصحف اليومية مستنكرين ما قام به كمال أتاتورك من محاربة الشريعة في أقوى مظهر لها، وهو الخلافة الإسلامية، ولكن الذين في قلوبهم مرض قد شغبوا على العلماء في غير هوادة، وتجرءوا على التاريخ الإسلامي حين حكموا بأن علماء الإسلام في كل العصور كانوا مطايا للظالمين، وأبواقاً للفساد السياسي، وتحولوا إلى علماء تركيا في عهد

(١) «مصطفى صادق الرافعي» لمحمد رجب البيومي (ص ٢٤٠ - ٢٤١).

الخِلافة فرمومهم بالرشوة وسلب الأموال، وافتروا على الله الكذب في كل ما قالوه إذ لم يُقدِّموا دليلاً واحداً على صحة هذه المفتريات، وقد ردَّ الأساتذة: علي سرور الزنكلوني وعبدالباقي نعيم سرور وعبد ربه مفتاح من علماء الأزهر، على كل ما قيل من الأراجيف، ونظر الرافعي فوجد أن تاريخ العلماء في عصور الإسلام لم يُكتب على وجهه الصحيح، حين ظلَّ مهملاً في كتب الطبقات، دون أن يرجع إليه باحثٌ ما فيظهر ما كان لهؤلاء الأعلام من سطوات جبارة في وجه الباطل، ومن ثم أخذ يكتب سلسلةً أدبية عن كبار العلماء ممن جابهوا السلطان في غير هواة، ليقول للمنكرين إنكم لم تقرأوا التاريخ، أو قد تكونون قرأتموه، وغلب عليكم المراء، فأبدلتم الحق باطلاً.

وقلم الرافعي في مضمار التصوير التاريخي لا يلحقه مصورٌ مهما افتنَّ في صنعته، لذلك جاءت كتاباته عن سعيد بن المسيب وأبي عامر الشعبي ومالك بن دينار وأحمد بن حنبل والحسن البصري والعز بن عبدالسلام وغيرهم من أفضاذ الأبطال، أبطال الفكر التزيه، والرأي الصريح، مما أحدث التفاتةً كبرى لدى المثقفين نبَّهت الأذهان إلى جلال العلم وسطوة العلماء. حلَّق بنا الرافعي ببلاغته العلوية اتي تسمو بنا وتسمو.

طلعت مقالته عن علماء الإسلام على الدنيا شمساً ساطعة، عرفت معها الدنيا كيف تكون حُصيات الليل لآلئ النهار. . ولم تكن دنيا الناس في زمانه تعرف من الأدب إلا الذي يسقط عليهم من باريس، أو لندن أو «بوينس إيرس» فغطَّى الرافعي على خيام أهل الجديد ودورهم المبنية من الطين والقش بقصر شامخ من الصخر يثبت ما ثبت الدهر.

□ لله در الرافعي وهو يحدثك عن «أمراء للبيع» وسلطان العلماء العز

ابن عبدالسلام. . . وحين يتحدث عن ابن دقيق العيد.

وانظر إليه في حديثه. عن شيخ الإسلام أبي الحسن بنان الجمال الزاهد حين واجه بن طولون في جبروته الأثم، فاستشاط الحاكم بأمره غضباً، وأمر بإحضار أسد شرس من آساد ولده خمارويه ليأكل الشيخ مفترساً جزاءً على تهجمه بالحق، وجلس الشيخ. وخرج الأسد الجائع، فطاف حول الشيخ، ولم يمسه بسوء، وارتاع ابن طولون لهول ما وجد من كرامة الشيخ، فتخاذل وذهب ليسترضيه، قال الرافعي يُصوِّرُ الموقف الرهيب، الرهيب حقاً!! بأروع ما يحتمل هذا اللفظ من معان<sup>(١)</sup> :

«وكان الأسد الذي اختاروه للشيخ أغلظ ما عندهم، جسيماً ضارياً، عارم الوحشية، متزيّل العَصَل، شديد عصب الخلق، هراساً فراساً، أهرت الشدق يلوحُ شدقه من سعته وروعته كفتحة القبر، يُنبئُ أنّ جوفه مقبرة، ويظهرُ وجهه خارجاً من لبدته، يهم أن يقذف على من يراه فيأكله.

وأجلسوا الشيخ في قاعة، وأشرفوا عليه ينظرون، ثم فتحوا باب القفص من أعلاه، فجذبوه فارتفع، وهَجَّهْجُوا بالأسد يزجرونه، فانطلق يزمجر ويزار زئيراً تنشق له المرائر، ويتوهم من يسمعه أنه الرعد وراء الصاعقة!!

ثم اجتمع الوحش في نفسه واقشعر، ثم تمطى كالمجنيق يقذفُ الصخرة، فما بقي من أجل الشيخ إلا طرفة عين، ورأيناهُ على ذلك ساكناً مطرقاً، لا ينظرُ إلى الأسد، ولا يحفل به، وما منّا إلا من كاد ينهتك حجاب قلبه من الفرع والرعب والإشفاق على الرجل!!.

ولم يرعنا إلا ذهول الأسد عن وحشيته، فألقى على ذنبه، ثم لصق بالأرض هنيهةً يفترش ذراعيه، ثم نهض نهضةً أخرى، كأنه غير الأسد،

(١) «وحي القلم» للرافعي (٣/ ٥٠).

فمشى مترقفاً ثقيل الخطو، تُسمع لمفاصله قعقعةً من شدته وجسامته، وأقبل على الشيخ وطفق يحثك به ويلحظه ويشمه، كما يصنع الكلب مع صاحبه الذي يأنس به، وكأنه يعلن أن هذه ليست مُصاولةً بين الرجل التقي والأسد، ولكنها مبارزةٌ بين إرادة ابن طولون وإرادة الله!! .

ثم ماذا؟! لقد جرى الرافي إلى غاية فتملك ناحية التأثير، فهل أنقل كل ما قال؟! وإنه لرائع خلوب!!

\* رثاء الرافي لشيخ العروبة أحمد تيمور:

«أما رثاء الرافي لأحمد تيمور - رحمه الله - فصرخة عالية من صرخات التفجع لمغيب مسلم صادق غيور بذل ماله وعلمه ووقته في نصرة الإسلام واللغة العربية، جامعاً شتى مخطوطاتها من أقصى جنبات الأرض مهما كلفته جهد الجسم والعقل، وضخامة ما يبذل من مال حين يُغالي تجار المخطوطات مغالاة من لا يتوقع الرفض من حريص أمين، وآية العظمة في أحمد تيمور أنه كان استثناءً نادراً بين أبناء طبقته من ذوي الألقاب الضخمة، والمال الوافر، والحسب العريض، فلم يركن لمجده الأسري، ولقبه اللامع وراثته الضخم ركون من يظن الحياة لعباً ولهواً، ولكنه جعل ذلك كله وسيلة لخدمة الإسلام، وكُتِبَ العربية، كما كان حربياً على أعوان التفرنج، ودعاة التغريب ومدعي الاستقرائية، غيوراً كل الغيرة على مقدسات الدين وتعاليم الشرع، عدواً لمن يحاول أن ينتقص قليلاً من مفاخر السلف، وهذا ما جعل الرافي يحس وقع الصدمة العنيفة في معسكر المؤمنين الخالص بفقده المفاجئ، فقال في لوعه<sup>(١)</sup> :

على امرئٍ فيه بِنِيانٍ لَنَا يَقَعُ  
إِنْ لَمْ تَجِدْ صَدْرَ حُرِّ فِيهِ تَمْتَنَعُ

يا ضربة الموت ما باليت أن تقعي  
على الذي كان حصن الضاد يمنعها

(١) «الحديقة» (١٠/٧٤).

حصن بأسواره أنصارها احتشدوا  
 رأس على الصخر من دين ومن خلق  
 ومن يكن للدفاع الضاد منجرداً  
 وليجف مثل جفاء القفر ممتعاً  
 وليدرع صدره الصحراء كاشرةً  
 لمن بأسواره أعداؤها انصرعوا  
 فليس يعرف صخر منه يُقتلع  
 فلينتصب كالرواسي فيمن اتضعوا  
 على المذلة في أخلاق من خضعوا  
 لمن بسفساف أوربا قد أدرعوا

□ كآني بالرافعي كان يتحدث عن نفسه إذ رأى في اتجاه تيمور مثيلاً  
 لاتجاهه!! فأوصى سامعه أن ينتصب كالرواسي فيمن اتضعوا، وليجف مثل  
 جفاء القفر ترفعاً عن المذلة، وليدرع الصحراء هرباً من سفساف أوربا، ويعني  
 بالسفساف ما أغرم به الشباب لعهد من بريق كاذب يجده في اللهو العابت،  
 والتبرج الشائن، دون أن يُعَرمَ باكتشافات أوربا العلمية وتقدمها الصناعي!!  
 فكان من أسباب انحدار أمته وفساد جيله، ولو شاء لعزف عن أساليب  
 السقوط كما يعزف الأباة الناهضون، وهذا ما صوره الرافعي أبلغ تصوير حين  
 قال:

قالوا أتى الليث حلاقٌ يعلمه  
 يا ليثُ قلها لذا الحلاق زمجرة  
 يا ليثُ قلها لذا الحلاق همهمة  
 يا ليثُ قلها لذا الحلاق دمدمة  
 لو كلُّ مزمارٍ فنٌّ عندنا خنثٌ  
 إذن لكانت لنا بين الورى لغة  
 ويح الفضائل من باغين لوئهم  
 يجددون لنا أخلاقنا زعموا  
 يا من يحطم بلوراً ليسمع من  
 قص الأظافر تجميلاً كما ابتدعوا  
 إن الخالب في كفي هي السبع  
 زدني مقصك ظفراً منه أنتفع  
 الظفر لليث بالدنيا وما تسع  
 لنا به مدفع فنانه بشع  
 متى تقل قولها في العالم اقتنعوا  
 هوى أوربا، فهم ناس وهم بقع  
 ضرروا لنفع فقد ضرروا وما نفعا  
 أنغامه ويلك اسمع، إنه قطع

□ وهكذا يجد الرافعي في المناسبة الباكية مجالاً لثورة عارمة يصيح بها صياح الأسد الجريح، وقد كانت وثباته الفكرية دائماً تلتقي مع أناته الوجدانية فتُحرِّك جامدَ الإحساس، وتنقلُ السامع من الخاص إلى العام، ومن مُصيبة فرد إلى مصيبة أمة، وقد كان تيمور في مرآة الرافعي نجماً ساطعاً، أخلاقه نوره يستمد عظمته من عظمة دينه الذي ملأ شعاب نفسه، وتفرغ في جسمه فلم يُبق لغيره مكاناً:

من الرجال المصابيح الذين همو كأنهم من نجوم حية صنعوا  
أخلاقهم نورهم من أي ناحية أقبلت تنظر في أخلاقهم سطعوا  
يُحقق العلم في إنسانه مثلاً من قوة الدين، لا زيف ولا بدع  
دين تفرغ في جسم فوقه كما يرى مُفرغاً في جسمه السبع<sup>(١)</sup>

□ وقد أطلت في الاستشهاد بقلائد من هذه النادرة الناضرة؛ لأنها تصوّر اتجاه الرافعي أدباً وخلقاً ودينياً، ولو لم يعلم عنه أحد شيئاً وقرأ رثاءه التيموري لعرف خلاصة ما يجب أن يعرف من اتجاه الأديب الكبير، ولا أصدق دلالة على الرافعي من أدبه الصارخ الذي يزار به في مدلهامات الأحداث زئير الليث تحت العاصفة، وقد نهض لغوث أشباله والريح تدمدم، والبرق يلمع، والرمال تهيج!! أما امتزاج الصورة الرائعة بالفكرة الحية فأوضح من أن ندلّ عليه في سياقه الرصين<sup>(٢)</sup> ١.هـ.

\* نصح الرافعي للمرأة، ومحاربتة للسفور والتبرج:

قال الكذّابون الدجالون عن الرافعي أنه عدو المرأة الذي يطالب بسجنها الأبدى خلف الجدران، وهذا باطل لا صلة للحقيقة به، وكل ما يؤلمهم أن الرافعي يدعو إلى تصون المرأة، وعدم تبذّلها بالتبرج الخادع.

(١) الحديقة (١٠/٧٤).

(٢) «مصطفى صادق الرافعي» (ص ٢٤٩ - ٢٥١).

لقد اشتدّ تبرج المرأة المصرية عقب الحركة الكمالية في تركيا؛ لأن الزعيم الجريء قد سمح للمرأة أن تذهب إلى أبعد ما تُوَجِّه الفضيلة وبمليه العفاف، فكان لذلك صدىً بعيد لدى المحللين في مصر والشرق العربي، فأخذوا يُجذبون اتجاه أتاتورك ويعدون رمز التقدم والرفق، وقد أفردت جريدة السياسة الأسبوعية مقالاً كبيراً تحت عنوان (فتاة تركيا) نقل الدكتور محمد محمد حسين جزءاً منه في كتابه جاء فيه عن الباخرة التي جعلتها وزارة التجارة التركية معرضاً عاماً، في رحلة على نفقة الحكومة: «إنها تنتقل بين موانئ أوروبا الشهيرة.. وهي تقلّ خمساً وعشرين فتاة من فتيات تركيا الجديدة، كلهنّ جميلات مقصوصات الشعور، لا يكاد يميّزهن الرائي عن فتيات لندن وباريس، وأكثر الفتيات يتكلمن الإنجليزية بإتقان يدعو للدهشة، وقد قالت إحداهن بلغة الإنجليزية: «إن المرأة التركية اليوم حرة، فلن تسير إلى الطرقات في الظلام، وإننا نلبس أحدث الأزياء الأوربية والأمريكية، ونرقص وندخنّ ونسافر بغير أزواجنا، «والمعيشة - كما قالت فتاة أخرى - على ظهر الباخرة معيشة سرور وصفاء لا يُوصف، كلهنّ يرقص، وبعد العشاء يبدأ الرقص من تانجو وفوكس ترون» ثم يعلق مراسل الصحيفة بقوله: إن هذا من أظهر الآثار التي تدل على تقدم المرأة التركية ومجاراتها لأختها الغربية في ميدان العمل والجهاد الفكري والاقتصادي (أين الجهاد الاقتصادي يا هذا) ولا يسع كلّ محب لتركيا إلا أن يغطها على هذه الخطوات»<sup>(١)</sup>.

هذه الأقوال التي أخذت تنتشر على مدى أوسع في الصحف المصرية، ثم ما تبعها من تطبيق عملي أدى إلى بعض المآسي التي نشرتها الصحف إذ ذاك مما دفع الرافعي إلى محاربة التبرج والسفور، فكتب كثيراً عن التصون والحجاب في حدود ما أباح الله وقال فيما قال:

(١) الاتجاهات الوطنية (٢/ ٢٤٤) نقلاً عن السياسة الأسبوعية (١٧/ ٧/ ١٩٢٦).

«وما الحجاب إلا حفظ روحانية المرأة للمرأة، وإغلاء سعرها في الاجتماع، وصونها من التبذل الممقوت، لضبطها في حدود كحدود الربح من هذا القانون الصارم: قانون العرض والطلب، والارتفاع بها أن تكون سلعة باثرة يُنادى عليها في مدارج الأسواق: العيون الكحيلة، الخدود الوردية، الشفاه الياقوتية، الثغور اللؤلؤية، الطرق والأسواق: الأعطاف المرتجة...؛ وليس فتياتنا قد انتهين من الكساد بعد نبذ الحجاب إلى هذه الغاية، وأصبحن إن لم ينادين على أنفسهن بمثل هذا، فإنهن لا يظهرن في الطرق إلا لتنادي أجسامهن بمثل هذا؟!»

لقد مُحق الصبر، وتراخت قوة المدافعة في أكثر الفتيات المتعلمات، فابتلن من ذلك بالضجر والملل، وتشويه النفس، ووقع في نفوسهن معنى كمنى العفن في الثمرة الناضجة، وجهلن بالعلم حتى عن طبيعتهن، فما منهن من عرفت أن طبيعتها سلبية في ذاتها، وأنه لا يشدها ولا يقيمها إلا الصفات السلبية، وملاكها الصبر: فروعه وأصوله، وجمالها الحياء والعفة، ورمزها وحارسها والمعين عليها هو الحجاب وحده. وما تُخطئ المرأة في شيء خطأها في محاولة تبديل طبيعتها وجعلها إيجابية، وانتحالها صفات الإيجاب وتمردا على صفات السلب، كما يقع لعهدنا، فإن هذا لن يتم للمرأة، ولن يكون منه إلا أن تعتبر المرأة نقائص أخلاقها من أخلاقها، كما نرى في أوروبا، ومن هذا تلقى الفتاة حياءها، وتبذؤ وتفحش، إن لم يكن بالألفاظ والمعاني جميعاً فبالعاني وحدها، وإن لم يكن بهذه ولا بتلك فبالفكر في هذه وتلك، وكانت الاستجابة لهذا ما فشا من الروايات الساقطة، والمجلات العارية، فإن هذه وهذه ليست شيئاً إلا أن تكون علم الفكر الساقط»<sup>(١)</sup>.

هذا مقال من مقالات الرافعي التي كتبها حين انتشر التبرج المتبذل،

(١) «وحي القلم» (١/١٩٥).

وعمّت الروايات الخليعة، وتباهت المجلات بعرض الصور المغرية في وجهات صفحاتها كمثال للأثوثة الصارخة.. وانتشرت دور السينما في الأقاليم لتعرض أفلام الانحلال الخلقي في الغرب، وتجعل من المخادنة أمراً طبيعياً، بين الرجل والمرأة الأجنيين، ثم ما نشرته صفحات الحوادث من مآسي الإجهاض والحمل السري، والقتل انتقاماً للشرف المسلوب، فالسجن الشاق عقاباً على القتل، وتشرد الأطفال بعد موت الأم، وسجن الأب، ولا من راحم، كل ذلك دفع الرافعي إلى أن ينادي بالالتزام الشرعي، وإلى أن يجهر بصيحته في وجوه من يكتبون قصص الإغراء، وينشرون صور الانحدار، ولم يكتب بالمقالات وحدها، بل أرسل قصائد في هذا المجال أشرت إلى نموذج منها في حديثي عن الرافعي الشاعر. ولكن صيحات الرافعي كانت تصدم أذنياء الإغراء والتحلل، فأوسعت صحائف الخلاعة هجوماً وانتقاصاً، وعدوه عدو المرأة والتقدم، وجعلوا ذلك مصدر انتقاص، ولم يكن الرجل عدو المرأة ولن يكون، فالمرأة هي أمه وزوجته وأخته وبنته فكيف يكون عدوها؟! ومن المفارقات أن الكاتب الكبير الأستاذ توفيق الحكيم قد باهى في بعض أدوار حياته بأنه (عدو المرأة) فلم يؤاخذة هؤلاء بشيء، بل ابتسموا لقوله ورددوه مغتبطين؛ لأنه لم يكن مهاجماً ملتزماً وصاحب حمية كحمية الرافعي، فكيف صار العدو حبيباً مع اعترافه، وصار الرافعي عدواً وهو لم يكتب عن المرأة غير ما يوحيه الإخلاص!!.

لقد كتب الرافعي عن المرأة الملتزمة أجمل ما كتبه أديب في العالم العربي لعهد، فقد تحدث عنها بأسلوبه البياني المؤثر، حديث المؤمن المصلح الذي يُقدّر ما يأخذ وما يدع من معاني البناء الأسري الوثيق كأن يقول:

«إذا ضاقت الدار فلم لا تتسع النفس التي فيها؟ المرأة وحدها هي الجو الإنساني لدار زوجها، فواحدة منهن تدخل الدار فتجعل فيها الروضة ناضرة

مُتْرَوِّحَةٌ بِاسْمَةٍ، وَإِنْ كَانَتِ الدَّارُ قِحْطَةً مَسْحُوتَةً لَيْسَ فِيهَا كَبِيرٌ شَيْءٌ؛ وَامْرَأَةٌ تَدْخُلُ الدَّارَ فَتَجْعَلُ فِيهَا مِثْلَ الصَّحْرَاءِ بِرِمَالِهَا وَقِيظِهَا وَعَوَاصِفِهَا، وَإِنْ كَانَتِ الدَّارُ فِي رِيَاشِهَا وَمَتَاعِهَا كَالجَنَّةِ السَّنْدَسِيَّةِ؛ وَوَاحِدَةٌ تَجْعَلُ الدَّارَ كَالقَبْرِ. وَالمْرَأَةُ حَقُّ المْرَأَةِ هِيَ الَّتِي تَتْرِكُ قَلْبَهَا فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهَا عَلَى طَبِيعَتِهِ الإِنْسَانِيَّةِ، فَلَا تَجْعَلُ هَذَا القَلْبَ لِزَوْجِهَا مِنْ جِنْسٍ مَا هِيَ فِيهِ مِنْ عَيْشَةٍ: مَرَّةً ذَهَبًا، وَمَرَّةً فِضَّةً، وَمَرَّةً نَحَاسًا أَوْ خَشْبًا أَوْ تَرَابًا، فَإِنَّمَا تَكُونُ المْرَأَةُ مَعَ رَجُلِهَا مِنْ أَجْلِهَا وَمِنْ أَجْلِ الأُمَّةِ مَعًا، فَعَلِيهَا حَقٌّ لَّا حَقٌّ وَاحِدٌ، أَصْغَرُهُمَا كَبِيرٌ، وَمَنْ ثَمَّ فَقَدَ وَجِبَ عَلَيْهَا إِذَا تَزَوَّجَتْ أَنْ تَسْتَشْعِرَ الذَّاتَ الكَبِيرَةَ مَعَ ذَاتِهَا، فَإِنْ أَغْضِبَهَا الرِّجْلُ بِهَفْوَةٍ مِنْهُ، تَجَافَتْ لَهُ عَنْهَا، وَصَفَحَتْ مِنْ أَجْلِ الجَمَاعَةِ الكَبِيرِ، وَعَلَيْهَا أَنْ تَحْكُمَ حِينَئِذٍ بِطَبِيعَةِ الأُمَّةِ لَّا بِطَبِيعَةِ نَفْسِهَا، وَهِيَ طَبِيعَةٌ تَأْتِي التَّفَرُّقَ وَالاِنْفِرَادَ وَتَقُومُ عَلَى الوَاجِبِ.

وَمَتَى كَانَ الدِّينُ بَيْنَ كُلِّ زَوْجٍ وَزَوْجَتِهِ، فَمَهْمَا اخْتَلَفَا وَتَدَابَرَا وَتَعَقَّدَتْ نَفْسَاهُمَا، فَإِنْ كُلُّ عَقْدَةٍ لَّا تَخْرُجُ إِلَّا وَمَعَهَا طَرِيقَةٌ حَلَّتْهَا، وَلَنْ يَشَادَ الدِّينُ أَحَدًا إِلَّا غَلْبَةً؛ وَهُوَ اليَسْرُ وَالمَسَاهَلَةُ، وَالرَّحْمَةُ وَالمَغْفِرَةُ، وَلَيْنَ القَلْبِ وَخَشْيَةِ اللّهِ، وَهُوَ العَهْدُ وَالمَوْفَاءُ وَالمُكْرَمُ وَالمُؤَاخَاةُ وَالإِنْسَانِيَّةُ، وَهُوَ اتِّسَاعُ الذَّاتِ وَارْتِفَاعُهَا فَوْقَ كُلِّ مَا تَكُونُ بِهِ مَنحَطَةً أَوْ ضَيِّقَةً<sup>(١)</sup>.

وَانظُرْ إِلَيْهِ حِينَ يَبِينُ مَآثِرَ الزَّوْجَةِ الوَفِيَّةِ، وَمَنْزِلَتَهَا لَدَى زَوْجِهَا فِي نَفْسِهِ وَفِي بَيْتِهِ، وَفِي مَعِيشَتِهِ وَمَخْتَلَفِ أَحْوَالِهِ عَلَى لِسَانِ أَبِي رَبِيعَةَ الفَقِيهَ إِذْ مَاتَتْ زَوْجَتُهُ فَوَقَّفَ عَلَى قَبْرِهَا رَائيًا، بِمَا تَرَجَّمَهُ الرَّافِعِيُّ عَنْهُ فَقَالَ:

«يَرْحَمُكَ اللّهُ يَا فَلَانَةَ، الآنَ شَفِيتُ أَنْتِ وَمَرَضْتُ أَنَا، وَعُوفِيتِ وَابْتَلَيْتِ، وَتَرَكْتِنِي ذَاكِرًا، وَذَهَبْتِ نَاسِيَةً، وَكَانَ لِلدُّنْيَا بِكَ مَعْنَى، فَسَتَكُونُ بَعْدَكَ بِلَا مَعْنَى، وَكَانَتْ حَيَاتِكَ لِي نِصْفَ القُوَّةِ، فَعَادَ مَوْتُكَ لِي نِصْفَ

(١) «وحي القلم» (١/١٤٨).

الضعف، وكنت أرى الهموم بمواساتك همومًا في صورها المخففة فستأتيني بعد اليوم في صورها المضاعفة، وكان وجودك معي حجابًا بيني وبين مشقات كثيرة، فستخلص كل هذه المشاق إلى نفسي، وكانت الأيام تمر أكثر ما تمر في رقتك وحنانك، فستأتيني أكثر ما تأتي متجردة في قسوتها وغلظتها، أما إن واللّه لم أرزأ منك في امرأة كالنساء، ولكنني رزئتُ في المخلوقة الكريمة التي أحسست معها أن الخليفة كانت تتلطف بي من أجلها»<sup>(١)</sup>.

### \* حديثه عن البنت :

أما حديثه عن البنت فمن أشف وأرق وأصفي ما يكنه الوالد لابنته «البنت الطاهرة هي جهاد أبيها وأمها في هذه الدنيا، كالجهاد في سبيل اللّه، وإنها فوز لهما في معركة الحياة، يكونان هما والصبر والإيمان في ناحية منها قبلاً، ويكون الشيطان والهم والحزن في الجهة المناوحة قبلاً آخر.

إن البنت هي أم ودار، وأبواها فيما يكابدان من إحسان تربيتهما وتأديبها وحياطتها والصبر عليها واليقظة لها، كأنما يحملان الأحجار على ظهريهما حجراً حجراً، ليتنبا تلك الدار في يومٍ يومٍ إلى عشرين سنة أو أكثر، ما صحبته وما بقيت في بيته، فليس ينبغي أن ينظر الأب إلى بنته إلا على أنها بنته، ثم أم أولادها، ثم أم أحفاده، فهي بذلك أكبر من نفسها، وحقها عليه أكبر من الحق، فيه حرمتها وحرمة الإنسانية معاً، والأب في ذلك يُقرض اللّه إحساناً وحناناً ورحمة، فحق على اللّه أن يوفيه من مثلها، وأن يُضعف له»<sup>(٢)</sup>.

### \* محاربته للتبرج والسفور والعري : «لحوم البحر» :

انظر إلى الرافعي لله درّه وهو يتكلم عن العري والفسفور والتبرج على

(١) «وحي القلم» (١/٢٢١).

(٢) «وحي القلم» (١/٢٤٤).

رمل الشاطئ في الإسكندرية:

«قال الشيطان:

«ألا إن البهيمة والعقلية في هذا الإنسان؛ مجموعهما شيطانية..  
ألا وإنه ما من شيء جميل أو عظيم إلا وفيه معنى السخرية به.  
هنا تتعرى المرأة من ثوبها، فتتعرى من فضيلتها.  
هنا يخلع الرجل ثوبه، ثم يعود إليه فيلبس فيه الأدب الذي خلعه..  
رؤية الرجل لحم المرأة المحرمة نظراً بالعين والعاطفة.  
يرمي ببصره الجائع كما ينظر الصقر إلى لحم الصيد.  
ونظراً المرأة لحم الرجل رؤية فكر فقط..  
تُحول بصرها أو تخفضه، وهي من قلبها تنظر..  
يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار..!

\*\*\*

«يا لحوم البحر! سلخك جزار من ثيابك.  
جزار لا يذبح بألم ولكن بلذة..  
ولا يحز بالسكين ولكن بالعاطفة..  
ولا يميت الحي إلا موتاً أديباً..  
إلى الهيجاء يا أبطال معركة الرجال والنساء.  
فهنا تلتحم نواميس الطبيعة ونواميس الأخلاق.  
للطبيعة أسلحة العري، والمخالطة، والنظر، والأنس، والتضحك،  
ونزوع المعنى إلى المعنى..  
وللأخلاق المهزومة سلاح من الدين قد صدئ؛ وسلاح من الحياة  
مكسور! يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار..

\*\*\*

«الشاطيءُ كبيرٌ كبيرٌ، يسعُ الآلاف والآلاف.

ولكنه للرجل والمرأة صغيرٌ صغيرٌ، حتى لا يكون إلا خلوة.

وتقضي الفتاة سنتها تتعلم، ثم تأتي هنا تتذكر جهلها وتعرف ما هو.

وتمضي المرأة عامها كريمة، ثم تحيي لتجد هنا مادة اللؤم الطبيعي.

لو كانت حجاجاً صوامعاً، للعتها الكعبة لوجودها في «استانلي».

الفتاة ترى في الرجال العريانيين أشباح أحلامها، وهذا معنى من السقوط.

والمرأة تسارقهم النظر تنوعاً لرجلها الواحد، وهذا معنى من المواخير.

أين تكون النية الصالحة لفتاة أو امرأة بين رجال عريانيين؟

يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار..!

\*\*\*

«هناك التريبة، وهنا إعلان الإغفال والطيش.

وهناك الدين، وهنا أسباب الإغراء والزلل.

هناك تكلف الأخلاق، وهنا طبيعة الحرية منها.

وهناك العزيمة بالقهر يوماً بعد يوم، وهنا إفسادها بالترخص يوماً بعد

يوم.

والبحر يعلم اللائي والذين يسبحون فيه كيف يغرقون في البر..

لو درى هؤلاء وهؤلاء معرة اغتسالهم معاً في البحر، لاغتسلوا من

البحر.

فقطرة الماء التي نجستها الشهوات قد انسكبت في دمائهم.

وذرة الرمل النجسة في الشاطيء، ستكبر حتى تصير بيتاً نجساً لأب

وأم..

يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار..!

\* \* \*

«يجيئون للشمس التي تقوى بها صفاتُ الجسم؛  
 ليجد كل من الجنسين شمسَه التي تضعفُ بها صفاتُ القلب.  
 يجيئون للهواء الذي تتجددُ به عناصرُ الدم؛  
 ليجدوا الهواء الآخر الذي تفسدُ به معاني الدم.  
 يجيئون للبحر الذي يأخذون منه القوة والعافية؛  
 ليأخذوا عنه أيضاً شريعته الطبيعية: سمكةٌ تطاردُ سمكةً..  
 ويقولون ليس على المصيفِ حرج،  
 أي لأنه أعمى الأدب، وليس على الأعمى حرج.  
 يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار..!»

\* \* \*

«المدارس، والمساجد، والبيع، والكنائس، ووزارة الداخلية؛  
 هذه كلّها لن تهزم الشاطئ.  
 فأمواجُ النفس البشرية كأموج البحر الصاخب، تنهزمُ أبداً لترجع أبداً.  
 لا يهزم الشاطئ إلا ذلك «الجامع الأزهر»، لو لم يكن قد مُسِّخ  
 مدرسة!  
 فصرخةٌ واحدةٌ من قلب الأزهر القديم، تجعل هدير البحر كأنه تسييح.  
 وتردُّ الأمواج نقيّةً بيضاء<sup>(١)</sup>، كأنها عمائم العلماء.  
 وتأتي إلى البحر بأعمدة الأزهر للفصل بين الرجال والنساء.

(١) يرى بعضهم أن مثل هذا الوصف خطأ، وأن الصواب أن يقال «بيض»، ولسنا من هذا الرأي، وقد غلط فيه المبرد ومن تابعوه، لغفلتهم عن السير في بلاغة الاستعمال مرة في الوصف بالمفرد، ومرة في الوصف بالجمع.

ولكنني أرى زمناً قد نُقل حتى إلى المدارس رُوح «الكازينو» .!  
يا لحوم البحر! سلخك من ثيابك جزار .!

\*\*\*

«هنا على رغم الآداب، مملكة للصيف والقيظ، سلطانها الجسم المؤنث العاري.

أجسام تعرض مفاتها عرض البضائع؛ فالشاطئ حانوت للزواج!  
وأجسام تعرض أوضاعها كأنها في غرفة نومها في الشاطئ.  
وأجسام جالسة لغيرها، تُحيط بها معانيها ملتصمة معانيه؛ فالشاطئ سوق للرفيق..

وأجسام خفيرة جالسة للشمس والهواء؛ فالشاطئ كدار الكفر لمن أكره<sup>(١)</sup>.  
وأجسام عليلة تفتحها الأعين فتزديها؛ لأنها جعلت الشاطئ مستشفى..!

وأجسام خليعة أضافت من (استانلي) وأخواتها إلى منارة الإسكندرية ومكتبة الإسكندرية مزبلة الإسكندرية..

كان جدال المسلمين في السفور، فأصبح الآن في العري.  
فإذا تطور، فماذا بقي من تقليد أوروبا إلا الجدل في شرعية جمع المرأة بين الزوج وشبه الزوج<sup>(٢)</sup>؟»

انتهى ما استطعت ترجمته، بعد الرجوع في مواضع من القصيدة إلى

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿... إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾.

(٢) يسمى هذا في اللغة الضمد بفتح الضاد والميم، وهو أن يخال الرجل المرأة ولها زوج، ومنه قول الشاعر:

تريدين كيما تضمديني وخالداً وهل يجمع السيفان ويحك في غمد

ومن هذا يقال في الرجل: ذاق الضماد (بكر الضاد) أي فاق الطعم الذي وصفه أناتول فرانس..

بعض القواميس الحية.. إلى بعض شبان الشاطي<sup>(١)</sup>.

\* ويقول للفتاة المترجة:

كملت تبرجاً فكملت حسناً  
لمن تتبرجين وذو سبيل  
أما تخشين أنك في طريق  
وأن ذئاب هذا الحسن تمشي  
عرضت لكي نرى فلقد رأينا  
كأنك لست بنت أب وإلا  
أأخت أنت أم زوج وأم  
نقابك ذاك؟ أم لون رقيق  
وما هذا الدهان لناظريه  
ألا إن الغيار أذى فمن ذا  
وما لك تسألين الحق منا  
أعزك فتية هم عار قوم  
جبالهم مهياة لكيد  
وكل قائل فالقول حي

ولكن جاء نقصك من كمالك  
وما هي أفق شمسك أو هلالك  
يرف به الحرام على حلالك  
مسعرة اللحاظ على غزالك  
لديك الحسن إلا في فعالك  
فما لأبيك لم يخطر ببالك؟  
فما منهن واحدة كذلك  
نراه بين ألوان احتيالك  
سوى روح التلون من خلالك  
يظن غيار وجهك من جمالك  
وخلقتك الجواب على سؤالك  
إذا قيسوا بفتيان الممالك  
فكيف إذا التفنن على حبالك  
وكل فاعل فالفعل هالك<sup>(٢)</sup>

\* الشباب الرقيق الخنث:

وإذن فالرافعي، لا يلوم الفتاة وحدها، ولكنه يلوم الفتى المتبدل معها؟  
فليس متحزباً لجنس ولكنه ينعي على التبدل في شتى مظاهره. وقد أتبع هذه  
القصيدة بأخرى قالها في (تخنث الشباب) من الذين ظنوا التقدم في رقة

(٢) «مصطفى صادق الرافعي» (ص ٢٤٣).

(١) «وحي القلم» (٢/ ١٩٠ - ١٩٣).

الملبس، ونعومة اللفظ، وتصنيف الشعر، وترصد خطوات الرائحات الغاديات، وهو مما شاع وذاع في المجتمع المصري، حين تشربه دعاة التقدم الزائف والمحاكاة السفهية لخلاعات ذوي السقوط من الأجانب، وأعجب ما عجب منه الرافعي أن يكون من هؤلاء من تعلم وظفر بالإجازة في معاهد أوربا، ولكنه رجع إلى مصر لا يستفيع بما وعى من علم، بل ليتعالى باللبس والشارة والأناقة المتكلفة والحديث الهابط:

غصونٌ في رياض العلم تنمو  
فلا يغررك شكلُ العود وانظر  
شهاداتٌ ولا عمل يزكي  
وما نفعُ اليقين بما علمنا  
بنفسك لا بعلمك أنت منا  
ألا إن الشراب له إناء  
لكان الليث أسهل ما ركبنا  
ألا يا قوم للفتيان فينا  
رأيتُ لبعضهم أمراً عجاباً  
يسيل تخنثاً ويذوب ظرفاً  
ولأن كآته فينا اعتذار  
ومطمحه الذي يزور إليه  
وهمتُهُ الشياب فليس يمشي  
ملوناً مصبغةً لوجه  
أما في هذه الدنيا أمور  
أما في هذه الدنيا أسود

وتثمر بعد ذلك بما يُعاب  
فإن لناره صنع الثقاب  
كان حضور حاضرهم غياب  
وفي الآداب شكٌ وارتباب  
وأنت لنا ثوابٌ أو عقاب  
فإن دنسته دنس الشراب  
إذا لم يحمه ظفر وناب  
وزينتهم، وما حمدوا وعابوا  
وليس كمثلته أمرٌ عجاب  
فهل في أرضنا رجلٌ مذاب  
تقدمه حوادثنا الصعاب  
من العلياء نافذةً وباب  
إذا ما سار بل تمشي الشياب  
له في لونه منها اقتراب  
سوى الشهوات تحرزها الطلاب  
كما في هذه الدنيا كلاب<sup>(١)</sup>

(١) المصدر السابق (ص ٢٤٣ - ٢٤٥)، ومجلة الرسالة العدد ٨٤٤.

\* نصيحة للمرأة الشرقية المسلمة :

قصيدة مترجمة عن الملك :

\* احذري...!!

ترجمنا عن الشيطان قصيدة (لحوم البحر). وهذه ترجمة عن أحد الملائكة؛ رأني جالساً تحت الليل وقد أجمعتُ أن أضع كلمةً للمرأة الشرقية فيما تُحاذرُه أو تتوجسُّ منه الشرُّ؛ فتخايلُ الملكُ بأضوائه في الضوء، وسنح لي بروحه، وبث في من سره الإلهي، فجعلتُ أنظرُ في قلبي إلى فجر من هذا الشعر ينبعُ كلمةً كلمة، ويُشرقُ معنى معنى، ويستطيرُ جملةً جملة، حتى اجتمعت القصيدة وكأنا سافرتُ في حلم من الأحلام فجئتُ بها. وانطلق ذلك الملك وتركها في يدي لُغَةً من طهارته للمرأة الشرقية في ملائكتيها:

\*\*\*

\* احذري...!!

«احذري أيتها الشرقية وبالغي في الحذر، واجعلي أخصَّ طباعك الحذر

وحده.

احذري تمدن أوروبا أن يجعل فضيلتك ثوباً يوسع ويضيِّق؛ فلبس الفضيلة على ذلك هو لبسها وخلعها..

احذري فنهم الاجتماعي الخيِّث الذي يفرض على النساء في مجالس الرجال أن تؤدِّي أجسامهنَّ ضريبة الفن..

احذري تلك الأنوثة الاجتماعية الظريفة؛ إنها انتهاء المرأة بغاية الظرف والرقة إلى.. إلى الفضيحة.

احذري تلك النسائية<sup>(١)</sup> الغزلية؛ إنها في جملتها ترخيص اجتماعي

(١) نحن نستعمل: النسائية والنسوية، وكلاهما عندنا صحيح، والاختيار في كل موضع للأفصح في موقعه.

للحرّة أن . . أن تُشارك البغيّ في نصف عملها .

أيتها الشرقية! احذري احذري!

«احذري التمدن الذي اخترع لقتل لقب الزوجة المقدّس، لقب «المرأة

الثانية» . .

واخترع لقتل لقب العذراء المقدّس، لقب «نصف عذراء» . .

واخترع لقتل دينية معاني المرأة، كلمة «الأدب المكشوف» . .

وانتهى إلى اختراع السرعة في الحب . . فاكتمى الرجل بزوجة ساعة . .

وإلى اختراع استقلال المرأة، فجاء بالذي اسمه (الأب) من الشارع،

لتلقي بالذي اسمه (الابن) إلى الشارع . .

أيتها الشرقية! احذري احذري!

\*\*\*

«احذري وأنت النجم الذي أضاء منذ النبوة، أن تقلدي هذه الشمعة

التي أضاءت منذ قليل .

إن المرأة الشرقية هي استمرار متصل لأداب دينها الإنساني العظيم .

هي دائماً شديدة الحفاظ حارسة لحوزتها؛ فإن قانون حياتها دائماً هو

قانون الأمومة المقدّس .

هي الطهر والعفة، هي الوفاء والأنفة، هي الصبر والعزيمة، هي كلُّ

فضائل الأم .

فما هو طريقها الجديد في الحياة الفاضلة، إلا طريقها القديم بعينه؟

أيتها الشرقية! احذري احذري!

\*\*\*

«احذري (ويحك) تقليد الأوروبية التي تعيش في دنيا أعضائها محكومة

بقانون أحلامها . .

لم تعد أنوثتها حالة طبيعية نفسية فقط، بل حالة عقلية أيضاً تشك

وتُجادل..

أنوثته تُفكِّسَتْ فرأت الزواج نصف الكلمة فقط.. والأم نصف المرأة فقط..

ويا ويل المرأة حين تنفجر أنوثتها بالمبالغة، فتنفجر بالدواهي على الفضيلة..

إنها بذلك حرة مساوية للرجل، ولكنها بذلك ليست الأنثى المحدودة بفضيلتها..

أيتها الشقية! احذري احذري!

\*\*\*

«احذري خجل الأوروبية المترجلة من الإقرار بأنوثتها.

إن خجل الأنثى يجعل فضيلتها تخجل منها..

إنه يسقط حياءها ويكسو معانيها رجولة غير طبيعية،

إن هذه الأنثى المترجلة تنظر إلى الرجل نظرة رجل إلى أنثى..

والمرأة تعلقو بالزواج درجة إنسانية، ولكن هذه المكذوبة تنحط درجة

إنسانية بالزواج.

أيتها الشقية! احذري احذري!

\*\*\*

«احذري تهؤس الأوروبية في طلب المساواة بالرجل.

لقد ساوته في الذهاب إلى الحلاق، ولكن الحلاق لم يجد في وجهها

الللحية..

إنها خلقت لتحيب الدنيا إلى الرجل، فكانت بمساواتها مادة تبغض.

العجيب أن سر الحياة يأبى أبداً أن تتساوى المرأة بالرجل إلا إذا خسرت.

والأعجب أنها حين تخضع، يرفعها هذا السر ذاته عن المساواة بالرجل

إلى السيادة عليه .

أيتها الشرقية! احذري احذري!

\*\*\*

«احذري أن تخسري الطباع التي هي الأليقُ بأَم أنجبت الأنبياء في الشرق .  
أم عليها طابعُ النفس الجميلة، تنشرُ في كل موضعٍ جوَّ نفسها العالية .  
فلو صارت الحياةُ غيمًا ورعدًا وبرقًا، لكانت هي فيها الشمس الطالعة .  
ولو صارت الحياةُ قِظًا وحرورًا واختناقًا، لكانت هي فيها النسيم يتخَطَّر .  
أم لا تُبالي إلا أخلاقِ البطولةِ وعزائمها، لأن جداتها ولدن الأبطال .  
أيتها الشرقية! احذري احذري!

\*\*\*

«احذري هؤلاء الشبان المتمدنين بأكثر من التمدن . .  
يُبَالِغُ الحَيْثُ في زيتته، وما يدري أن زيتته مُعلنةٌ أنه إنسانٌ من الظاهر .  
ويبَالِغُ في عَرْضِ رُجولتهِ على الفتيات، يحاولُ إيقاظِ المرأةِ الراقدةِ في  
العدراء المسكينة!

ليس لامرأةٍ فاضلةٍ إلا رَجُلُها الواحد؛ فالرجالُ جميعًا مصائبُها إلا  
واحدًا .

وإذ هي خالطت الرجال، فالطبعي أنها تُخالطُ شهوات، ويجب أن  
تُحذَرُ وتُبَالِغُ .

أيتها الشرقية! احذري احذري!

\*\*\*

«احذري؛ فإن في كل امرأةٍ طباعٌ شريفةٌ متهورّة؛ وفي الرجالِ طباع  
خسيسة متهورّة .

وحقيقة الحجاب أنه الفصل بين الشرف فيه الميل إلى النزول، وبين الخِسة فيها الميل إلى الصعود.

فيك طبائعُ الحب، والحنان، والإيثار، والإخلاص، كلما كَبُرَتْ كَبُرَتْ. طبائعُ خَطِرَةٍ، إن عملت في غير موضعها. . جاءت بعكس ما تعمله في موضعها. فيها كل الشرف ما لم تنخدع، فإذا انخدعت فليس فيها إلا كلُّ العار أيتها الشرقية! احذري احذري!

«احذري كلمةً شيطانيةً تسمعيها: هي فنية الجمال أو فنية الأنوثة وافهميها أنت هكذا: واجبات الأنوثة وواجبات الجمال.

بكلمة يكون الإحساس فاسداً، وبكلمة يكون شريفاً.

ولا يَتَسَقَطُ الرجل امرأةً إلا في كلمات مُزِينَةٍ مثلها. .

يجب أن تتسلح المرأة مع نظرتها، بنظرة غضب ونظرة احتقار.

أيتها الشرقية! احذري احذري!

\*\*\*

«احذري أن تُخدعي عن نفسك؛ إن المرأة أشدُّ افتقاراً إلى الشرف منها

إلى الحياة.

إن الكلمة الخادعة إذ تقال لك، هي أخت الكلمة التي تقال ساعة إنفاذ

الحكم للمحكوم عليه بالشنق. .

يَغْتَرُونَكِ بكلمات الحب والزواج والمال، كما يقال للصاعد إلى

الشناقة<sup>(١)</sup> ماذا تشتهي؟ ماذا تريد؟

(١) كلمة «الشنقة» ليست عربية، ولكن لها وجهاً في الاشتقاق، غير أن كسرة ميمها تجعلها

ثقيلة، وكان اسمها قديماً «الشناقة»، ذكرها ياقوت في معجم الأدباء، وهي أفصح وأخف

فلعل الشناقة بعد هذا تشنق المشنقة. .

الحب؟ الزواج؟ المال؟ هذه صلاة الثعلب حين يتظاهر بالتقوى أمام الدَّجاجة..

الحب؟ الزواج؟ المال؟ يا لحمَ الدَّجاجة! بعض كلمات الثعلب هي أنياب الثعلب..

أيتها الشرقية! احذري احذري!

\*\*\*

«احذري السقوط؛ إن سقوط المرأة لهوله وشدته ثلاث مصائب في مصيبة:

سقوطها هي، وسقوط من أوجدوها، وسقوط من توجدهم!  
نوائب الأسرة كلها قد يسترها البيت، إلا عار المرأة.  
فقد العار تقلب الحيطان كما تقلب اليد الثوب فتجعل ما لا يرى هو ما يرى.

والعار حكمٌ ينفذه المجتمع كله، فهو نفيٌ من الاحترام الإنساني.  
أيتها الشرقية! احذري احذري!

\*\*\*

«لو كان العار في بئر عميقة قلبها الشيطان مئذنةً ووقف يؤذن عليها.  
يفرح اللعين بفضيحة المرأة خاصةً، كما يفرح أب غنيٌ بمولود جديد في بيته..

واللص، والقاتل، والسكير، والفاسق، كل هؤلاء على ظاهر الإنسانية كالحر والبرد:

أما المرأة حين تسقط فهذه من تحت الإنسانية هي الزلزلة.  
ليس أفزعُ من الزلزلة المرتجة تشق الأرض، إلا عار المرأة حين يشق

الأسرة.

أيتها الشرقية! احذري احذري!«<sup>(١)</sup>.

\* من درر الرافعي ونصحه للنساء في «وحي القلم»:

□ قال - رحمه الله - عن المرأة المتبرجة ونساء الليل تحت عنوان «الجمال

البائس»:

«إذا خرجت المرأة من حدود الأسرة وشريعتها، فهل بقي منها إلا الأثني مجردة تجريدًا الحيواني المتكشف، المتعرض للقوة التي تناله أو ترغب فيه؟ وهل تعمل هذه المرأة عند ذلك إلا أعمال هذه الأثني؟  
«وما الذي استرعاهما الاجتماع حينئذ فترعاه منه وتحفظه له، إلا ما استرعى أهل المال أهل السرقة؟ إن الليل ينطوي على آفتين: أولئك اللصوص، وهؤلاء النساء.

«وكيف ترى هذه المرأة نفسها إلا مشوهة ما دامت رذائلها دائماً وراء عينيها، وما دام بإزاء عينيها دائماً الأمهات والمحصنات من النساء، وليس شأنها من شأنهن؟ إن خيالها يحرز في وعيه سورتها الماضية من قبل أن تنزل، فإذا خلّت إلى نفسها كانت فيها اثنتان، إحداهما تلعن الأخرى، فترى نفسها من ذلك على ما ترى.

«وهي حين تطالع مرآتها لتتبرج وتحتفل في زينتها، تنظر إلى خيالها في المرأة بأهواء الرجال لا بعيني نفسها، ولهذا تبالغ أشد المبالغة؛ فلا تعنى بأن تظهر جميلة كالمرأة، بل مثمرة كالتاجر. وتكسبها بجمالها يكون أول ما تفكر فيه؛ ومن ذلك لا يكون سرورها بهذا الجمال إلا على قدر ما تكسب منه؛ بخلاف الطبع الذي في المرأة، فإن سرورها بمسحة الجمال عليها هو أول

(١) «وحي القلم» (٢/ ١٩٤ - ١٩٧).

فكرها وآخره.

«إن الساقطة لا تنظر في المرأة - أكثر ما تنظر - إلا ابتغاء أن تتعهد من جمالها ومن جسمها مواقع نظرات الفجور وأسباب الفتنة، وما يستهوي الرجل وما يفسد العفة عليه؛ فكأن الساقطة وخيالها في المرأة، رجل فاسق ينظر إلى امرأة، لا امرأة تنظر إلى نفسها..»<sup>(١)</sup>

جمالها، ففتتها، سحرها، حديثها لهوها؛ آه لا يبقى لهذا كله عين ولا أثر، آه حين لا يبقى من هذا كله إلا ذنوب، وذنوب، وذنوب!

«المرأة من هذا النوع إذا طمعت فيما هو أعلى عندها من الذهب والجوهر والمتاع، طمعت في الاحترام من رجل شريف متعفف، ولو احترام نظرة، أو كلمة. تقنع بأقل من ذلك وترضى به، فالقليل مما لا يدرك قليله، هو عند النفس أكثر من الكثير الذي لا يُنال كثيره».

«يا بؤسنا من نساء! لقد وضعنا وضعاً مقلوباً، فلا تستقيم الإنسانية معنا أبداً اليقظة ليس لها عندنا النهار بل الليل، والصحو لا يكون فينا بالوعي بل بالسُّكر، والراحة لا تكون لنا في السكون والانفراد، بل في الاجتماع والتبدل؛ وماذا يردُّ على امرأة من واجباتها السهر والسكر والعريضة، التبدل، وتدريب الطباع بالوقاحة، وتضرية النفس على الاستغواء، والتصدي بالجمال للكسب من رذائل الفساق وأمراضهم، والتعرض لمعروفهم بأساليب آخرها الهوان والمذلة، واستماحتهم بأساليب أولها الخداع والمكر؟

إن حياة هذه هي واجباتها، لا يكون البكاء والهَمُّ إلا من طبيعة من يحيها، وكثيراً من نُعالج الضحك لنفتح لأنفسنا طرقاً تتهارب فيها معاني البكاء؛ فإذا أثقلنا الهَمُّ وجَلَّ عن الضحك وعجزنا عن تكلف السرور، ختلنا

(١) «وحي القلم» (١/٤٠٤).

العقلَ نفسَه بالخمر؛ فما تسكرُ المرأةُ منا للسكر أو النشوة، بل للنسيان،  
للقدرة على المَرَحِ والضحك، ولإمداد محاسنها بالأخلاقِ الفاجرة، من  
الطيش والخلاعةِ والسَّفه وهذيانِ الجمال الذي هو شعره البليغ.. عند بُلْغَاءِ  
الفُسَّاقِ<sup>(١)</sup>.

«إن المستقبلَ هو أخوفُ ما نخافُه على أنفسنا، وليس من امرأةٍ في هذه  
الصناعة إلا وهي مُعِدَّةٌ لمستقبلها: إما نوعاً من الانتحار، وإما ضرباً من  
ضُروب الاحتمالِ للذل والخسف؛ وليس مستقبلنا هذا كمستقبل الثمار النَّضِرَةِ  
إذا بقيت بعد أوانها، فهو الأيام العِفْنَةُ بطبيعةٍ ما مضى.. بلى إن مستقبل  
المرأة البغي هو عقابُ الشر.

□ «هذا كلامٌ ينبغي أن تعلمه الزوجات؛ فالمرأةُ منهنَّ قد تَبَرَّمَ بزوجها  
وتضجَرَ وتغتم، وتزعمُ أنها مُعذبة؛ فتتسَخَّطُ الحياةَ، وتندبُ نفسها، ثم لا  
تعلم أنه عذابٌ واحدٌ برجل واحد، تألفه، فتعتاده، فترزقُ من اعتياده الصبرَ  
عليه، فيسكنُ بهذا نفارها؛ وتلك نعمة واجبها أن تحمدَ اللهَ عليها، ما دام  
في النساءِ مثلُ الشَّهيداتِ، تتعذبُ الواحدةُ منهنَّ فنوناً من العذابِ بمائة  
رجل، وبألفِ رجل، وهم مع ذلك يبتلونَ روحها بعددهم من الذنوب  
والآثام.

وقد تستقلُّ الزوجةُ واجباتها بين الزوج والنسل والدار، فتغتاظُ وتشكو  
من هذه الرَّجْرَجَةِ اليوميةِ في الحياة؛ ثم لا تعلم أن نساءَ غيرها قد انقلبت  
بهن الحياةَ في مثل الخسف بالأرض.

وقد تجزعُ للمستقبل وتَنسى أنها في أمانِ شرفها، ثم لا تعلم أن نساءَ

(١) المصدر السابق (١/٢١٤).

يترقب هذا الآتي كما يترقبُ المجرمُ غَدَ الجريمة، من يومٍ فيه الشرطةُ والنيابةُ والمحكمةُ وما وراء هذا كله.

فقلتُ: وهناك حقيقةٌ أخرى فيها العزاءُ كلُّ العزاءِ للزوجات، وهي أن الزوجة امرأةٌ شاعرةٌ بوجود ذاتها، والأخرى لا تشعر إلا بضياغ ذاتها. والزوجة امرأةٌ تجدُ الأشياءَ التي تتوزعُ حبها وحنان قلبها، فلا يزال قلبها إنسانياً على طبيعته، يفيضُ بالحب، ويستمدُّ من الحب؛ والأخرى لا تجد من هذا شيئاً، فتقلب وحشية القلب، يفيضُ قلبها بردائل، ويستمدُّ من رذائل؛ إذ كان لا يجدُ شيئاً مما هيأته الطبيعة ليتعلق به من الزوج والدار والنسل.

والزوجة امرأةٌ هي امرأةٌ خالصةُ الإنسانية، أما الأخرى فمن امرأةٍ ومن حيوانٍ ومن مادةٍ مهلكةٍ.

وتَمَامُ السعادةِ أن النسلَ لا يكونُ طبيعياً مستقراً في قانونه إلا للزوجات وحدهن؛ فهو نعمتهنَّ الكبرى، وثوابُ مستقبلهنَّ وماضيهنَّ، وبركتهنَّ على الدنيا؛ ومهما تكن الزوجةُ شقيةً بزوجها، فإن زوجها قد أولدها سعادتها، وهذه وحدها مزية ونعمة؛ أما أولئك فليس لهن عاقبة؛ إذ النسلُ قلب لحالتهن كلها؛ وهو غني إنسانياً، ولكنه عندهن لا يكون إلا فقراً؛ وهو رحمة، ولكنها لا تكون إلا لعنة عليهن وعلى ماضيهن. وقد وضعت الطبيعة في موضع حب الولد الجديد من قلوبهن، حب الرجل الجديد، فكانت هذه نقمة أخرى.

يا عجباً!! كل شيء في الحياة يُلقى شيئاً من الهم أو النكد أو البؤس على هؤلاء، كأن الطبيعة كلها ترجمهن بالحجارة.

وليست الحجارة هي الحجارة فقط، بل منها ألفاظ تُرجم بها كسمية الناس لها «بالساقطة»؛ فهذه الكلمة وحدها صخرة لا حجر.

□ وقال - رحمه الله - :

«والمراة التي لا يحميها الشرف»<sup>(١)</sup> لا يحميها شيء، وكل شريفة تعرف أن لها حياتين إحداهما العفة، وكما تدافع عن حياتها الهلاك، تدافع السقوط عن عفتها؛ إذ هو هلاك حقيقتها الاجتماعية؛ وكل عاقلة تعرف أن لها عقلين تحتمي بأحدهما من نزوات الآخر، وما عقلها الثاني إلا شرف عرضها.

«ما تسامح الرجال في شرف العرض إلا جعلوا المرأة كأنها بنصف عقل فاندفعت إلى الطيش والفجور والخلاعة، أرادوا ذلك أم لم يريدوه.

إن عفاف المرأة لا تحفظه المرأة بنفسها، ما لم تهياً لها الوسائل والأحوال التي تُعين نفسها على ذلك؛ وأهم وسائلها وأقواها وأعظمها، تشدُّد الرجال في قانون العرض والشرف.

فإذا تراخى الرجال ضعفت الوسائل، ومن بين هذا التراخي وهذا الضعف تنبثق حرية المرأة متوجهةً بالمرأة إلى الخير أو الشر، على ما تكون أحوالها وأسبابها في الحياة. وهذه الحرية في المدينة الأوروبية قد عودت الرجال أن يعضوا ويتسمحوا، فتهافت النساء عندهم، تنال كل منهن حكم قلبها ويخضع الرجل..

على أن هذا الذي يسميه القوم حرية المرأة، ليس حرية إلا في التسمية، أما في المعنى فهو كما ترى:

إما شرود المرأة في التماس الرزق حين لم تجد الزوج الذي يعولها أو يكفيها ويقيم لها ما تحتاج إليه، فمثل هذه هي حرة حرية النكد في عيشها؛ وليس بها الحرية، بل هي مستعبدة للعمل سراً ما تستعبد امرأة.

وإما انطلاق المرأة في عبثاتها وشهواتها، مستجيبةً بذلك إلى انطلاق

(١) شرف المرأة في التزامها بأوامر دينها وبعدها عن نواهي.

حرية الاستمتاع في الرجال، بمقدار ما يشتريه المال، أو تُعين عليه القوة، أو يسوغه الطيش، أو يجلبه التهتك، أو تدعو إليه الفنون؛ فمثل هذه هي حرة حرية سقوطها؛ وما بها الحرية، بل يستعبدُها التمتع.

والثالثة حرية المرأة في انسلاخها من الدين وفضائله، فإن هذه المدنية قد نسخت حرام الأديان وحلالها بحرام قانوني وحلال قانوني، فلا مسقطه للمرأة ولا غضاضة عليها قانوناً. فيما كان يعد من قبل خزيًا أقيح الخزي وعاراً أشد العار؛ فمثل هذه هي حرة حرية فسادها، وليس بها الحرية، ولكن تستعبدُها القوضى.

والرابعة غطرسة المرأة المتعلمة، وكبرياؤها على الأنوثة والذكورة معاً؛ فترى أن الرجل لم يبلغ بعد أن يكون الزوج الناعم كقفار الحرير في يدها، ولا الزوج المؤنث الذي يقول لها نحن امرأتان. فهي من أجل ذلك مُطلقة مخللة كيلا يكون عليها سلطان ولا إمرة؛ فمثل هذه حرة بانقلاب طبيعتها وزينها، وهي مستعبدة لهوسها وشذوذها وضلاتها.

حرية المرأة في هذه المدنية أولها ما شئت من أوصاف وأسماء، ولكن آخرها دائماً إما ضياع المرأة وإما فساد المرأة.

والدليل على التواء الطبيعة في المدنية، استواء الطبيعة في البادية؛ فالرجال هنا قوامون على النساء، والنساء بهذا قوامات على أنفسهن؛ إذ ينتقمون للمنكر انتقاماً يقور دماً؛ وبهذه الوحشية يقررون شرف العرض في الطبيعة الإنسانية، ويجعلونه فيها كالغريزة، فيحاجزون بين الرجال والنساء أول شيء بالضمير الشريف الذي يجد وسائله قائمة حوله»<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

(١) «وحي القلم» (١/٢١٤ - ٢١٨) باختصار.

\* لِلَّهِ دَرْكٌ يَا أَبَا السَّامِيِّ :

□ ما أحلى ما قيل فيك وفيمن زعموا أنهم أنصار الجديد<sup>(١)</sup> .

كثُرَ التَّفِيهُقُ فِي الجَدِيدِ وَنَهَجِهِ  
وَعَدَا رِجَالٌ يَحْلُمُونَ بِأَنْ يَرَوْا  
حَرَجَتْ صَدُورُهُمْ بِأَنْ يَجِدُوا مِنْ أَلِ  
فَتَقَصَّدُوا أَنْ يَطْفِئُوا ذَاكَ الضِّيَاءِ  
وَتَغْفَلُوا قَوْمًا أَبَتِ أَحْلَامُهُمْ  
فَمَحَا بِنُورِ الْحَقِّ آيَةَ لَيْلِهِمْ  
وَرَمَاهُمْ بِكَتَائِبٍ مِنْ كُتُبِهِ  
وَاقَاهُمْ بِبِلَاغَةِ مُطَرِّيَّةٍ  
فَعَدَّتْ سَفَاسِفُهُمْ لَدَى آيَاتِهِ  
مَنْ ذَا يُضَارِعُ فِي الْبَيَانِ عَصَابَةَ  
هَمْ ذَلِكَ السَّلْفِ الَّذِينَ لِسَانُهُمْ  
مَنْ ذَا يَطَاوُلُ فِي الْبِلَاغَةِ أَحْمَدًا  
الْمُعْرَبِينَ إِذَا أَجَالُوا خَاطِرًا  
وَالْمَانِعِينَ الْمُسْكِرَاتِ وَقَوْلُهُمْ  
تِلْكَ الْعَصَابَةُ مِنْ يَحْدُنْ عَنْ سُبُلِهَا  
زَعَمَ الْأَلْيُ نَحْوًا الْجَدِيدَ بِأَنَّهُ  
حَسَبُوا التَّدْنِيَّ فِي الْبَيَانِ تَقَدَّمَ

كَمْ مَنْ تَكَلَّمَ بِالْجَدِيدِ وَمَا دَرَى  
شَمَلَ الْعَرُوبَةَ فِي الْبَيَانِ مَبْعَثِرَا  
قِرَآنَ مُورَدَ أُمَّةٍ وَالْمَصْدِرَا  
وَتَعَمَدُوا أَنْ يَفْصِمُوا تِلْكَ الْعُرَى  
أَنْ تَسْتَبِينَ الرَّشْدَ أَوْ تَتَدَبَّرَا  
وَأَرَاهُمْ عَنْهُ النَّهَارَ الْمُبْصِرَا  
فَتَطَايَرُوا كَالْحُمْرِ لَاقَتْ قَسُورَا  
مَا كَانَ مَعْجَزُهَا حَدِيثًا يَفْتَرَى  
نَارَ الْحُبَّاحِبِ نَاوَحَتْ نَارَ الْقُرَى  
قَدْ أَوْضَحُوا نَهْجَ الْبِلَاغَةِ نِيرَا  
تَنْحَطُّ عَنْهُ جَمِيعُ أَلْسِنَةِ الْوَرَى  
وَصَحَابِهِ، وَأَبَا تَرَابٍ حَيْدِرَا؟  
عَنْهُ بِأَعْدَبَ مَا يَكُونُ وَأَقْصِرَا  
مَا دَارَ فِي الْأَلْبَابِ إِلَّا أَسْكَرَا  
حَقًّا يُقَالُ لِمِثْلِهِ: أَطْرُقُ كِرَا  
عَصْرٌ تَحْتَمُّ أَنْ يَخَالَفَ أَعْصِرَا  
رَأُوا الرِّكَاكَةَ بِالْثِقَافَةِ أَجْدِرَا

(١) من رثاء شكيب أرسلان للرافعي من كتاب «مصطفى صادق الرافعي» (ص ٢٩١ -

حدثاً يبلغهم مراداً مُضمرًا  
 أن القديم مَضَى، وولّى مدبرًا  
 ومذاقُ طعمِ الشهد لن يتغيرًا  
 متألقًا يحكي الصباح المسفرًا  
 فهو الثمين، وليس يبرح جوهرًا  
 يتبدل الأدنى، ويبغي الأحقرًا  
 عنها كلامًا مثل أحلام الكرى  
 ويعودُ قارئه اللبيب وما قرأ  
 وأذاقهم مرَّ الكفاح المقرًا  
 وأعادَ خُضرتهم هشيمًا أغبرًا  
 فانقاد طوعًا من أبى واستكبرًا  
 بَغض، ولكنَّ يحرقون العنبرًا  
 حتى إذا شهد السفاهة قصرًا  
 ذاك اليراعَ الجاحظيَّ مكسرًا  
 في الخطب يهزأ بالحديد مُعصفرًا  
 أبديةً، ليست تُباع وتشتري  
 أقصرُ فكل الصيد في جوف الفرى

عمدوا إلى التغيير حتى يُحدثوا  
 واستظفروا بمقالة تلخيصها  
 قد فاتهم أن الخلاوة سرمد  
 كم من قديم لا يزال رواؤه  
 مهما تقادمَ جوهرٌ في عتقه  
 من حاد عن حبّ الجمال تعنتًا  
 لغة قلّوا أسلوبها، وتخيروا  
 يرتد وارده وما ذاق الروى  
 أخنى «أبو السامي» على غلوائهم  
 وذرا دعائوهم كما نثر الهبّا  
 زحفت بلاغته تجرّ جيوشها  
 قد يحرقون عليه من حسد، ومن  
 ما زال في الأدب النزيه ميرزا  
 أعزّز «أبا السامي» عليّ بأن أرى  
 من أسرة القصب الضعيف وفعله  
 لك في البيان رئاسة أزلية  
 قل للمحاول أن يرى أنداده

\* شيخ العروبة وحامل لوائها فارس التراث أبو فهر الشيخ محمود محمد شاكر (١٣٢٧هـ - ١٤١٨هـ) = ١٩٠٩ - ١٩٩٧م :

الفارس الأخير الذي سقط تحت «راية القرآن» وفي حومة الدفاع عن مقومات هذه الأمة وأصالتها وقرآنها وفُصْحَها وتراثها وهويتها الإسلامية، التي ضاعت الأمة بعد أن أضاعتها.

□ لله در أبي فهر الحاصل على جائزة الملك فيصل في الأدب العربي، ولقد كان شيخ العربية الشيخ محمود شاكر صاحب منهج يقوم على العودة إلى التراث، وعلى التمسك بلغة القرآن وأدب العربية الأصيل، في شعره الجاهلي وما بعد الجاهلي، ليكون من ذلك كله درع تصدّ عن الأمة تيار التغريب الجارف الذي ضيَع هوية الأمة بالتقليد الأعمى لكل ما لدى الغرب. وأقام الشيخ لمنهجه المعالم والصوى.

□ وكان للشيخ فُرادة في مجالات عديدة أجاد فيها، سواء في مجال التحقيق الذي كان صاحب منهج منفرد فيه، أم في مجال الدراسات الأدبية والفكرية، أم في مجال الإبداع الذي بلغ ذروة العطاء في ملحمة «القوس العذراء» التي قال فيها الناقد الكبير الدكتور إحسان عباس: «لا ريب عندي في أن الشعر الحديث قد ضل كثيراً حين لم يهتد إلى (القوس العذراء) وأن الناقد الحديث كان يعيشوا إلى أضواء خادعة حين انقاد وراء التأثير بشعر أجنبي ورموز غريبة، ولم يستطع أن يكتشف أدواته في التراث كما فعلت القوس العذراء»<sup>(١)</sup>.

□ الشيخ محمود بن محمد شاكر بن أحمد بن عبدالقادر، من أسرة أبي علياء من أشرف جرجا بصعيد مصر، وينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي عليه السلام.

(١) مجلة الأدب الإسلامي - العدد السادس عشر (ص ١).

□ ولد في الاسكندرية الساعة السادسة العربية من ليلة عاشوراء الاثني عشر المحرم سنة ١٣٢٧ للهجرة، الموافق الساعة الثانية عشر الإفريقية أول فبراير سنة ١٩٠٩ الميلادية.

□ انتقل إلى القاهرة في صيف عام ١٩٠٩م بتعيين والده وكيلاً للجامع الأزهر (١٩٠٩ - ١٩١٣م) وكان قبل ذلك شيخاً لعلماء الاسكندرية.

□ تلقى أول مراحل تعليمه في مدرسة الوالدة أم عباس في القاهرة سنة ١٩١٦م.

□ بعد ثورة سنة ١٩١٩م انتقل إلى مدرسة القرية بدرب الجماميز.

□ في سنة ١٩٢١ دخل المدرسة الخديوية الثانوية.

□ مع بداية عام ١٩٢٢م قرأ على الشيخ سيد بن علي المرصفي، صاحب «رغبة الأمل» فحضر دروسه التي كان يلقيها بعد الظهر في جامع السلطان برفوق، ثم قرأ عليه في بيته «الكامل» للمبرد، و«حماسة أبي تمام» وشيئاً من «الأمالى» للقالبي وبعض أشعار الهذليين. واستمرت صلته بالشيخ المرصفي إلى أن توفي - رحمه الله - في سنة ١٣٤٩هـ / ١٩٣١م.

□ حصل على شهادة البكالوريا (القسم العلمي) عام ١٩٢٥م.

□ في سنة ١٩٢٦م التحق بكلية الآداب - الجامعة المصرية (قسم اللغة العربية) واستمر بها إلى السنة الثانية، حيث نشب خلاف شديد بينه وبين أستاذه الدكتور طه حسين حول منهج دراسة الشعر الجاهلي، كما بينه في مقدمة الطبعة الثانية من كتاب «المتنبي» وترتب على ذلك تركه الدراسات الجامعية.

□ في سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٨م ترك الجامعة وسافر إلى الحجاز مهاجراً فأنشأ - بناء على طلب من الملك عبدالعزيز آل سعود - مدرسة جدة السعودية

الابتدائية وعمل مديراً لها، ولكنه ما لبث أن عاد إلى القاهرة في أواسط عام ١٩٢٩م.

□ بعد عودته إلى القاهرة انصرف إلى الأدب والكتابة، فكتب في مجلتي «الفتح» و«الزهراء» لصاحبهما الأستاذ محب الدين الخطيب، وأكثر ما له فيهما الشعر، وكان من كتابهما منذ كان طالباً.

□ بدأت صلته بالعلماء، منذ شب في بيت أبيه، فعرف السياسيين والعلماء الذين كانوا يترددون على والده، كما اتصل مباشرة بعلماء العصر أمثال: محب الدين الخطيب، وأحمد تيمور باشا، والشيخ محمد الخضر حسين، وأحمد زكي باشا، والشيخ إبراهيم أطفيش، ومحمد أمين الخانجي وغيرهم، كما تعرف إلى الشاعر أحمد شوقي، وكان يلتقي به في الأماكن العامة التي كان الشاعر الكبير يتردد عليها.

□ راسل الأستاذ مصطفى صادق الرافعي منذ سنة ١٩٢١م، وهو طالب في السنة الأولى الثانوية طلباً للعلم، واتصلت المعرفة بينهما، وظلت هذه الصلة وثيقة إلى وفاة الرافعي - رحمه الله - في سنة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م، فحزن عليه حزناً شديداً صرفه عن استكمال ردوده على الدكتور طه حسين في موضوع المتنبي التي كانت تنشر في جريدة البلاغ.

ومكانة الرافعي عنده يوضحها تقديمه لكتاب سعيد العريان عن حياة الرافعي، وقد ظلت هذه الرابطة بينهما تحول سنين عديدة دون التواصل بينه وبين الأستاذ العقاد، ثم صارت بينه وبين الأستاذ العقاد صحبة وصدقة عميقة بعد ذلك.

□ تعاطف مع الحزب الوطني القديم، فقد كانت هناك صلة بين والده والزعيم مصطفى كامل، كما كان شقيقه الشيخ علي محمد شاعر عضواً عاملاً بالحزب الوطني، فصحب شباب الحزب الوطني واتصل برجاله ومنهم:

حافظ رمضان، وعبدالرحمن الرافعي، وأحمد وفيق والدكتور محجوب ثابت، والشيخ عبدالعزيز جاويش.

□ صاحب فكرة «جمعية الشبان المسلمين»، ولكنه تركها لاختلافه مع السيد محب الدين الخطيب وأحمد تيمور باشا والدكتور عبدالحميد سعيد، على الصورة التي صارت إليها.

□ بدأ الكتابة في مجلة «المقتطف» منذ سنة ١٩٣٢م ثم في مجلتي «الرسالة» و«البلاغ» ولكنه كان على صلة دائمة بالرسالة في كتابة متقطعة إلى أن توقفت عن الصدور.

□ في سنة ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م أخذ امتياز إصدار مجلة «العصور» من الأستاذ إسماعيل مظهر، لتصدر أسبوعية بعد أن كانت شهرية، وصدر منها عددان الأول في ٢٧ رمضان ١٣٥٧هـ/ ١٩ نوفمبر ١٩٣٨م، والثاني في ١٧ شوال ١٣٥٧هـ/ ٩ ديسمبر ١٩٣٨م ثم توقفت عن الصدور بعد أن كان قد دفع بغيرها الثالث إلى المطبعة، وكان مقرها: شارع الإسماعيلية (عمر بن الخطاب) بمصر الجديدة.

□ في هذه الفترة قامت صداقة عميقة وعلاقة وطيدة بينه وبين كل من الكاتب الكبير الأستاذ يحيى حقي، والشاعر العظيم الراحل محمود حسن إسماعيل، وكان كل منهما يعتبر الأستاذ محمود شاعرًا إمامًا عليماً بأسرار البيان العربي في شعره ونثره ومرجعاً حياً للثقافة العربية في مجموعها، يأنسان إلى ذخيرته في إبداعهما الأدبي، وقد عبر كل منهما عن تلك الرابطة في أكثر من مقام من مقامات القول، منها: قصيدة الأستاذ محمود حسن إسماعيل في تقديم «القوس العذراء» كما ذكر الأستاذ يحيى حقي في بعض أحاديثه الصحفية أنه قرأ أمهات كتب الأدب العربي على الأستاذ شاعر.

□ بناء على دعوة من صديقه فؤاد صروف، صاحب المقتطف، ساهم

في اختيار وترجمة مواد مجلة «المختار» بدءاً من عددها الثاني، ولكنه توقف بعد قليل.

□ وفي الفترة القليلة التي شارك فيها في إخراج «المختار» استطاع أن يقدم مستوى للترجمة الصحفية لم يعرف من قبل، وأدخل عدداً من المصطلحات الجديدة في اللغة للتعبير عن وسائل واختراعات حديثة من نوع «الطائرة النفاثة» وما زال عدد من الصحفيين الحاليين يعتبرون عناوين «المختار» التي كان يصوغها نموذجاً يحتذى في هذا الباب.

□ في أوائل الأربعينات تعرف على الأستاذ فتحي رضوان، وبدأت صلته بالحزب الوطني الجديد في سنة ١٩٥٠م، وساهم بالكتابة في مجلة «اللواء الجديد».

□ انقطع عن الكتابة في الصحف والمجلات، بعد إغلاق «الرسالة» القديمة في سنة ١٩٥٢م، وتفرغ للعمل بالتأليف والتحقيق ونشر النصوص، فأخرج جملة من أمهات الكتب العربية مثل: «تفسير الإمام الطبري» (سته عشر جزءاً)، و«طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحي، و«جمهرة نسب قریش» للزبير بن بكار، وشارك في إخراج «الوحشيات» لأبي تمام، و«شرح أشعار الهذليين».

ونشر في عام ١٩٥٢م قصيدته «القوس العذراء» التي تعد معلماً على طريق الشعر الحديث رغم التزامها بحراً متساوي الشطرين ومحافظة على وحدة القافية، ثم أعاد نشرها مرة ثانية في سنة ١٩٦٤م.

كما ألف كتابه الشهير «أباطيل وأسمار» وهو مجموعة مقالات (٢٥) مقالة) كتبها في مجلة الرسالة الجديدة، ثم طبعت مرتين، المرة الأولى سنة ١٩٦٥م وصدر مجلد واحد (فيه قسم من المقالات) وصودر المجلد الثاني، والمرة الثانية سنة ١٩٧٢م في مجلدين ضمما جميع المقالات.

وكان سبب كتابة هذه المقالات التعليق على ما نشره الدكتور لويس عوض، المستشار الثقافي لجريدة الأهرام القاهرية حينذاك، في جريدة الأهرام بعنوان «على هامش الغفران» وذهب فيما نشره إلى تأثر المعري بالحديث الإسراء والمعراج، كما ألمح فيه إلى أثر الأساطير اليونانية وغيرها في الحديث النبوي، مما دفع الأستاذ محمود شاكر إلى بيان تهافت كلام لويس عوض وجهله وافترائه، ثم انتقل إلى الكلام عن الثقافة والفكر في العالم العربي والإسلامي وما طرأ عليهما من غزو فكري غربي ولاسيما حركة التبشير التي غزت العالم العربي والإسلامي، وما تنطوي عليه هذه الحركة من أساليب ووسائل، وقاده البحث إلى تناول قضايا هامة بحيث يعد «أباطيل وأسما» من أهم كتبه، بل من أهم الكتب التي ظهرت في المكتبة العربية في العشرين عاماً الأخيرة.

وأعاد طبع كتابه الإمام عن «المتنبى» الذي نشر كعدد مستقل من المقتطف سنة ١٩٣٦م، وقد أثار الكتاب ضجة كبيرة حين صدوره بمنهجه المبتكر وأسلوبه في البحث والإبداع، ومقدمته التي عنوانها: «لمحة من فساد حياتنا الأدبية» التي تناولت بكل صراحة ما اعترى الحياة الأدبية في النصف الأول من هذا القرن من فساد، وما أصاب أجيال المثقفين من تفرغ، تولى كبره واضع نظم التعليم في مصر، المبشر «دنلوب» الذي سيطر سيطرة تامة على التعليم، والذي لا تزال آثاره باقية على أشنع صورة في نظمنا التعليمية.

□ في الفترة التي صاحبت انتقاله إلى مسكنه في شارع السباق ثم إلى مسكنه الحالي في شارع حسين المرصفي بضاحية مصر الجديدة، بدأت أجيال من دارسي التراث العربي والمعنيين بالثقافة الإسلامية، من كافة أرجاء العالم الإسلامي، يختلفون إلى بيته، ويترددون على مجالسه العلمية يأخذون عنه ويفيدون من علمه ومكتبته الحافلة التي يسرها للدارسين والباحثين ومنهم:

الدكتور ناصر الدين الأسد، والدكتور إحسان عباس، والدكتور شاعر الفحاح، والأستاذ أحمد راتب النفاخ، والدكتور محمد يوسف نجم.

□ في سنة ١٩٥٧م أسس - مع الدكتور محمد رشاد سالم والأستاذ إسماعيل عبيد - مكتبة دار العروبة، لنشر كنوز الشعر العربي، ونوادير التراث، وكتب بعض المفكرين، وباعتقاله هو وشريكه في ٣١ أغسطس ١٩٦٥م تم وضعها تحت الحراسة.

□ شارك في عدد من المؤتمرات والملتقيات العربية فحضر «مؤتمر الأدباء العرب» في بغداد سنة ١٩٧٠م، ودعي إلى حضور الدروس الرمضانية التي تعقد في ليالي رمضان في القصر الملكي بالرباط بالمملكة المغربية (رمضان ١٣٩٥هـ).

□ كذلك لبي دعوة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض وألقى سلسلة من المحاضرات عن «الشعر الجاهلي» ستصدر في كتاب بعنوان «قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام الجمحي».

وحالت ظروفه دون تلبية كثير من الدعوات لحضور مؤتمرات وملتقيات عربية وإسلامية كثيرة.

□ انتخب عضواً مراسلاً في «مجمع اللغة العربية» بدمشق في سنة ١٩٨٠م.

□ اعتقل مرتين في زمن حكم الرئيس جمال عبدالناصر: الأولى لمدة تسعة أشهر في الفترة من ٩ فبراير ١٩٥٩م إلى أكتوبر ١٩٥٩م. والثانية لمدة ثمانية وعشرين شهراً من ٣١ أغسطس ١٩٦٥م وحتى ٣٠ ديسمبر ١٩٦٧م (٣٠ رمضان ١٣٨٧هـ).

□ كرمته الدولة فأهدته «جائزة الدولة التقديرية في الآداب» عن عام

١٩٨١م تقديراً لجهوده وإسهاماته المتعددة في خدمة تراث الإسلام ودرأته  
الواسعة بعلوم العربية، ومكانته المتميزة في تاريخ الفكر الإسلامي.  
وتسلم الجائزة في احتفال أقيم مساء يوم الثلاثاء ٨ رمضان ١٤٠٢هـ/  
٢٩ يونيه ١٩٨٢م.

□ وعلى المستوى العربي نال جائزة الملك فيصل العالمية في الأدب  
العربي، وتسلم الجائزة في احتفال بحضور الملك فهد بن عبدالعزيز في  
الرياض في ٢٤ جمادى الأولى سنة ١٤٠٤هـ الموافق ٢٥ فبراير ١٩٨٤م.  
□ انتخب عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٨٢م.  
□ عضو المجلس الاستشاري لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي (١٩٩١ -  
١٩٩٧م).

□ عضو مجلس إدارة دار الكتب والوثائق القومية (١٩٩٤ - ١٩٩٧م).  
□ انتقل إلى جوار ربه تعالى مساء يوم الخميس ٣ ربيع الآخر ١٤١٨هـ  
الموافق ٧ أغسطس ١٩٩٧م.

\* ثانياً: آثاره:

أ- مؤلفاته:

١- المتنبي.

- عدد خاص من المقتطف عام ١٩٣٦م.

- ط ثانية في مجلدين القاهرة ١٩٧٧م.

- ط ثالثة مطبعة المدني - القاهرة - دار المدني بجدة ١٤٠٧هـ -

١٩٨٧م.

٢- القوس العذراء.

- نشرت أول مرة في مجلة الكتاب ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

- مكتبة دار العروبة - القاهرة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م .
- مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م .
- ٣ - أباطيل وأسمار .
- الجزء الأول مكتبة دار العروبة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م .
- الجزءان الأول والثاني مطبعة المدني - القاهرة ١٩٧٢م .
- ٤ - برنامج طبقات فحول الشعراء .  
مطبعة المدني القاهرة ١٩٨٠م .
- ٥ - نمط صعب ونمط مخيف .  
دار المدني - جدة ١٩٩٦م .
- [ وهو سبع مقالات نشرت في مجلة «المجلة» عام ١٩٦٩ ، ١٩٧٠م ] .
- ٦ - قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام .  
دار المدني - جدة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .
- ٧ - رسالة في الطريق ثقافتنا .  
صُدِّرَ بها كتابُ المتنبي في طبعته الثالثة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م ثم صدرت في كتاب مستقل في سلسلة كتاب الهلال بالقاهرة .
- ب - تحقيقاته :
- ١ - فضل العطاء على العسر لأبي هلال العسكري المطبعة السلفية -  
القاهرة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م .
- ٢ - إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع لتقي الدين المقرئزي .
- لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ١٩٤٠م .

- ٣ - المكافاة وحسن العقبي لأحمد بن يوسف بن الداية الكاتب .  
 - المكتبة التجارية ١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م .
- ٤ - طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي .  
 - دار المعارف ط أولى ١٩٥٢م - ط ثانية ١٩٧٤م .  
 ٥ - تفسير الطبري .  
 - الأول والثاني - دار المعارف ١٩٥٤م .  
 - الثالث والرابع دار المعارف ١٩٥٥م .  
 - السادس والسابع والثامن دار المعارف ١٩٥٦م .  
 - من التاسع إلى الثاني عشر دار المعارف ١٩٥٧م .  
 - الثالث عشر والرابع عشر دار المعارف ١٩٥٨م .  
 - الخامس عشر دار المعارف ١٩٦٠م .  
 - السادس عشر دار المعارف ١٩٦٩م .
- ٦ - جمهرة نسب قریش وأخبارها للزبير بن بكار .  
 - ج١ مكتبة دار العروبة ١٣٨١هـ السفر الأول .
- ٧ - تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار للطبري .  
 مسند علي بن أبي طالب - مسند عبدالله بن عباس - السفر الأول .  
 - منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض  
 ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م .  
 - مسند عبدالله بن عباس - السفر الثاني .  
 - مسند عمر بن الخطاب .  
 - منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض

١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م .

٨ - دلائل الإعجاز لعبدالقاهر الجرجاني .

- مكتبة الخانجي - القاهرة ١٩٨٩م .

٩ - أسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني .

- دار المدني - جدة ١٤١٢هـ / ١٩٩١م<sup>(١)</sup> .

□ قال عنه تلميذه عبدالقدوس أبو صالح رئيس تحرير مجلة الأدب

الإسلامي ورئيس رابطة الأدب<sup>(٢)</sup> :

«لم تكن ذاكرة الشيخ الفريدة، ولا اطلاعه الواسع الشامل، هما اللذان أوصلا الشيخ محمود شاعر إلى أن يكون شيخ العربية دون منازع، وإن أعانا على بلوغه تلك المنزلة العالية، ولكن الذي بوأه مكائنه طول معاشته للتراث، وطول تأمله فيه، حتى خالط لحمه ودمه، وحتى ألقى إليه مقاليد أسراره، فكان كما شهدت وشهد الكثيرون أفرس الناس ببيت الشعر، وكان صاحب أسلوب كالبنيان المرصوص، وكان أن ندب نفسه ليكون سادئاً للغة القرآن، وحامياً لتراث الأمة ونذيراً لها من هجمة التغريب الشرسة.

وكان الشيخ محمود شاعر يعد تقصير المحققين للتراث خيانة سافرة

لهذا التراث، وكان منهجه يقوم على استفراغ الجهد في التحقيق، بكل ما يقتضيه منهج التحقيق العلمي.

ودليل على تبحره في اللغة ما نجده في «فهارس طبقات فحول

الشعراء»، إذ نجد فهرساً عجيباً بعنوان: «ألفاظ من اللغة، أخلت بها المعاجم

(١) استعنا في سيرة حياته وآثاره بالكتيب الذي صدر عن: الهيئة العامة لدار الكتب القومية

والمجلس الأعلى للثقافة في ١٥/٩/١٩٩٧م.

(٢) من مقاله «الشيخ محمود شاعر كما عرفته» لعبدالقدوس أبو صالح - مجلة الأدب

الإسلامي العدد السادس عشر (ص ٩ - ١٥).

أو قصرت في بيانها»، وقد جاء هذا الفهرس العجيب في أربع صفحات ونصف الصفحة، وما كان الشيخ محمود شاكر ليضع لفظة واحدة في هذا الفهرس الكبير، الذي استظهره من تحقيقه لكتاب واحد، لولا أنه استعرض كتب اللغة ومعجماتها، ثم وضع نفسه نداءً لأئمة اللغة التي ألفوها، ومضى يستدرك ما أخلوا به أو قصروا في بيانه.

□ كنت أستمع إليه عندما ما يرى العرب يختلفون ويقتلون، وبهزلون ويعبثون فيردد في حرقة بالغة: «إيه يا بني إسماعيل.. أنتم في تيه دونه تيه بني إسرائيل».

«وتزداد كآبة الشيخ مع الأيام، حين لا يرى بارقة أمل، ولا بارقة فجر، وحين يرى العرب الذين يفترض فيهم أن يقودوا العالم الإسلامي وقد فقدوا هويتهم، بعد أن تنكروا للغة القرآن، وبعد أن جعلوا الأدب أدباً فاسداً بمقدار فساد الحياة الأدبية، وبعد أن غربوا حياتهم، بدءاً من مناهج التعليم، وانتهاءً بفصل الدين عن الدولة، والنظر إلى الدين الذي هو سر بقائهم وشريان حياتهم على أنه سبب التأخر والجمود.

ومع ذلك كله فقد غالب الشيخ كآبته ويأسه، وظروفه الشخصية، ليكون بحق فارس التراث، وشيخ العربية، وأديبها الكبير.

وعلى الرغم من قلة ما ترك الشيخ لأئمة من المؤلفات، فإنه كان في مواقفه ومقالاته وكتبه يمثل صورة الفارس الأخير، الذي حمل راية القرآن من الرافعي، كاتب الإسلام الأكبر، واستطاع أن يقف أمام طه حسين الذي فجر تيار التغريب في هذه الأمة، حين مضى يدعو إلى انسلاخ مصر، قلب العالم العربي، عن هذا العالم، بل عن الشرق كله، ويدعو في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» إلى أن يأخذ المصريون حضارة الغرب بخيرها وشرها، وحلوها ومزها، وما يجب منها وما يستكره.

وكذلك استطاع أن يتصدى في «أباطيل وأسما» إلى لويس عوض، الذي يمثل الجيل الذي خلف طه حسين، وزاد عليه في التنكر للتراث، وفي دفع الأمة إلى مهاوي العلمانية واليسار والاشتراكية.

□ وقد أنكر بعض الناس أن يتصدى الشيخ محمود شاكر، وهو العملاق الكبير، لقزم لا يطاوله، ولكني أقول: لقد أراد الشيخ أن يجعل لويس عوض مثلاً لتحطيم الأصنام، التي أخذت أجيال من هذه الأمة المسكينة يعدونهم دعاة التنوير، ودعاة التقدم بعد أن تسنم الكثيرون منهم مقاليد الأمور وسيطروا على وسائل الإعلام المختلفة، وعلى دور النشر الرسمية.

وإذا كانت الأمة قد بدأت صحوتها الإسلامية لتعود إلى الإسلام من جديد، فلقد كان محمود شاكر من مهدوا لقيام هذه الصحوة، على أساس مكين من التمسك بالقرآن ولغته الفصحى، والاعتماد على تراث الأمة، والوقوف أمام تيار التغريب، سعياً وراء منهج يعيد الأمة، كما أرادها الله، خير أمة أخرجت للناس.

□ يقول الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى رئيس قسم البلاغة السابق بكلية اللغة العربية جامعة القاهرة في مقاله «محمود محمد شاكر.. والفجر الصادق»<sup>(١)</sup>:

«قليل هم في زماننا الذين عاشوا هموم الوجود العربي الإسلامي، ومن هذا القليل الأستاذ محمود محمد شاكر الذي انقطع لهموم العرب والمسلمين، وجعل هذا الهم شاغله في ليله ونهاره، وفيما يكتب، وفيما يقرأ، وفيما يحدث به من يرتادونه، وكأن هذه الأمة العربية الإسلامية مع

(١) مجلة الأدب الإسلامي - العدد السادس عشر (ص ١٦ - ٢٤) ملخصاً.

تنائي أقطارها، واتساع ديارها، واختلاف أجناسها، إنما هم أبناء أمه وأبيه، وهم أهله، وعشيرته، الذين يقوم لهم، ويقعد.

وقد درس تاريخ الإسلام، والصراعات التي دارت في دوله، سواء كانت هذه الصراعات في داخل ديار الإسلام، كما كان يحدث بين الأجناس المختلفة المتصارعة في دولة الخلافة، من الفرس، والترك، والعرب، أو كان هذا الصراع بين دول الإسلام والأمم الأخرى، وخاصة الأمم الأوربية منذ بداية الحروب الصليبية، ثم فتح القسطنطينية، وتوغل جيوش المسلمين في قلب أوروبا الشمالية ثم الاستعمار الحديث، وحملاته، وجهاد المسلمين له، توسع في دراسة كل ذلك، وتعمقه، وفرغ له، حتى يخيل إليك وأنت تقرأ ما كتب أنه عاش الأحداث التي يحدثك عنها، وداخل الأشخاص الذين يصنعونها، وكأنه كان يعيش مع رهبان أوروبا وملوكها وقادتها، وهم يُجيشون جيوش الصليبية، وكأنه كان يعيش في قلب وعقل الجنود، وكأنه كان يعيش مع المستشرقين، ورجال التبشير، والاستعمار، وهم يعدون العدة في الزمن بعد الزمن وفي الجليل بعد الجليل لتدمير دولة الإسلام.

□ وكان - رحمه الله - يعتقد اعتقاداً جازماً أن الثقافة العربية الإسلامية المتكاملة والمتضاربة، والمتداخلة، والحية - كما كان يصفها - والتي انبثقت أصولها، وتسلسلت يناييعها من النظر في كلام الله وفي كلام رسوله ﷺ، هي أصل هذا الوجود العربي الإسلامي، وهي أصل قوته، وهي الرابط الجامع لوحده، والقوة الحية المتحركة في ضميره، وأن هذه الأمة خاضت معاركها مع الأمم والشعوب والعقائد والأديان والثقافات والحضارات وانتصرت وسادت وعمرت الأرض، بهذا الدين

العظيم، وهذه العلوم التي هي شارحة له، ومستنبطة من النظر فيه، ودائرة حوله.

□ وكان علماء الصحابة رضي الله عنهم هم الذين مهدوا لهذه العلوم، وطرقوا طرقها، وفتحوا أبوابها بما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان مثله فيهم كمثل الغيث أصاب أرضاً، ثم جاء التابعون ومن بعدهم وأجيال العلماء، جيلاً من بعد جيل، الكل يراجع وينقح ويستنبط ويضيف ويكشف ويشرح، حتى أقاموا أصول هذه العلوم العربية الإسلامية، والتي قامت عليها حضارة الإسلام، وشرحت للناس دين الله، وصانته من التعديل، والتحريف، والتغيير ودسائس أعدائه، الذين كانوا يمحرون في فقهه كما يمحرون في أرضه، وبقي بها الحلال حلالاً والحرام حراماً حتى يومنا هذا كيوم أنزله الله.

□ ويرى الأستاذ محمود محمد شاكر في كل ما كتبه، أنه من المحال، أن نجد هذه الأمة سبيلاً إلى النهوض، إلا بأن تنهض علومها التي هي عقلها وقلبها وذات نفسها، وأن النهضة تبدأ من نقطة واحدة وهي نهضة العلوم التي تمثل الثقافة العربية الإسلامية المتكاملة، وأي محاولة تتجاوز هذه النقطة هي محاولة باطلة، وأن علماء الأمة أدركوا ذلك لما تنبهوا إلى ما أصاب المسلمين من الوهن، الذي يصيب الأمم كلها، وذكر الشيخ خمسة من العلماء الأعلام، وسنذكرهم فيما بعد ووصفهم بقوله: «أحسوا بالخطر المبهم المحقق بآمتهم، فهبوا بلا تواطؤ بينهم، كانوا رجالاً أيقاظاً مُفَرِّقِينَ فِي جَنَابَاتِ أَرْضِ مِثْرَامِيَةِ الْأَطْرَافِ مُتَبَاعِدَةً أَوْطَانَهُمْ لَا يَجْمَعُهُمْ إِلَّا هَذَا الَّذِي تَوَجَّسُوهُ فِي قَرَارَةِ أَنْفُسِهِمْ مَبْهَمًا مِنْ خَطَرِ مُحَدِّقٍ أَحْسَوْا الْخَطَرَ فَرَامُوا إِصْلَاحَ الْخَلَلِ الْوَاقِعِ فِي حَيَاةِ دَارِ الْإِسْلَامِ خَلَلُ «اللُّغَةِ» وَخَلَلُ «الْعَقِيدَةِ» وَخَلَلُ «الْعُلُومِ الدِّينِ» وَخَلَلُ

«علوم الحضارة» وبأناة وصبر عملوا وألقوا وعلموا تلاميذهم وبهمة وجد أرادوا أن يدخلوا الأمة عصر النهضة نهضة دار الإسلام»<sup>(١)</sup> ، وذلك في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجري، وكان الأستاذ - رحمه الله - يواجه بهذه الحقائق هذا الزيف الذي ضلل العقل العربي الإسلامي، وغرس في الأجيال الناشئة الاعتقاد بأن النهضة بدأت باجتياح الغزو المسيحي لهذه الديار، وانتهاب ثرواتها وتدمير حضارتها، وسفح دمائها وتخريب بنيانها، وقد صدقنا ذلك وكتبناه في كُتُبنا وصار من العلم الذي نخرج به من الظلمات، إلى النور، ويقول الشيخ: إن هذا عكس الحقيقة التاريخية؛ لأن هذا الزحف المسيحي أو الزحف المسيحي المقدس كما كان يسميه الأوربيون أنفسهم، والذي يحقق لهم أهدافاً روحية كما قالوا، أيضاً إنما كان لتدمير اليقظة التي بدأت في القرنين الحادي عشر، والثاني عشر الهجري، وهو يقابل نهاية القرن السابع عشر إلى نهاية الثامن عشر، أعني أوائل التاسع عشر، وفي هذين القرنين ظهر خمسة من الأعلام سماهم الشيخ صناديد النهضة واليقظة الإسلامية وهم<sup>(٢)</sup> :

- ١ - عبدالقادر البغدادي صاحب الخزانة المتوفي ١٠٩٣هـ الموافق ١٦٨٣م.
- ٢ - الجبرتي الكبير المتوفي ١١١٨هـ الموافق ١٧٧٤م.
- ٣ - الشيخ محمد بن عبدالوهاب المتوفي ١٢٠٦هـ الموافق ١٧٩٢م.
- ٤ - المرتضى الزبيدي صاحب تاج العروس والمتوفي ١٢٠٥هـ الموافق ١٧٩٠م.

(١) «الطريق إلى ثقافتنا» لمحمود محمد شاكر (ص ٨١).

(٢) انظر المصدر السابق (ص ٨٠) وما بعدها.

٥ - الشوكاني المتوفى ١٢٥٠هـ الموافق ١٨٣٤م ومعروف أن الذي توجه إلى إحياء اللغة هو البغدادي، والزبيدي، والذي توجه إلى علوم الحضارات هو الجبرتي الكبير، الذي كان يدرس في الأزهر علوم الصناعات والهندسة وكان يحضر درسه «طلاب» من الفرنجة كما قال ابنه المؤرخ<sup>(١)</sup>.

□ والذي توجه إلى إصلاح خلل العقيدة هو الشيخ محمد بن عبدالوهاب والذي توجه إلى إصلاح خلل علوم الدين أعني الفقه هو محمد ابن علي الزبيدي الشوكاني.

□ وادرس تاريخ هؤلاء الرجال ومؤلفاتهم وما أحدثوا من يقظة، لتأكد أن الزحف العسكري المسيحي من هذا التاريخ - حملة نابليون على مصر كانت سنة ١٧٩٨م - إنما كانت لتدمير هذه اليقظة، وكانت المسافة بيننا وبينهم في هذا الزمن قريبة يمكن أن تدرك بقليل من الجد.

□ وهذا المعنى أكده الأستاذ محمود شaker تأكيداً قاطعاً، بما رواه من أحداث ثورة القاهرة الكبرى على الوجود الفرنسي، وكان ذلك في ١٠ جمادى الأولى ١٢١٣هـ - ٢١ من أكتوبر ١٧٩٨م، أي بعد ثلاثة أشهر من تدنيس نابليون أرض مصر، فارتكب في قمع هذه الثورة من القسوة والتدمير وذبح الرجال والنساء وسفح الدماء الغزيرة ما ارتكب، ونذر - وأوفى بنذره - أن يذبح عند شروق كل شمس خمسة أو ستة «تقطع رءوسهم ويطاف بها في أنحاء القاهرة».

□ ويقول الشيخ: «ولا شك عندي أن هؤلاء الخمسة، أو الستة هم من طلاب العلم في الأزهر، ومن المحرضين على مقاومة هذا الغازي المنتهك لحرمة ديار الإسلام، وأن الاستشراق هو الذي كان يقدمهم لهذا الجزار، وأنه

(١) راجع النص في رسالة «الطريق إلى ثقافتنا» (ص ٨٣) وما بعدها.

كان يتخيرهم له؛ لأنه كان على معرفة سابقة بهم، وأنهم كانوا من الطلبة النابيين من ورثة الجبرتي الكبير والزبيدي، أي أنهم كانوا من طلائع اليقظة التي جاءت الحملة الفرنسية قبل كل شيء لوأدها في مهدها»<sup>(١)</sup>.

□ ويكرر الأستاذ هذه الفكرة وهي أن وأد اليقظة في ديار الإسلام كان من أهداف الحملات العسكرية على دياره، وأن الاستشراق كان وراء ذلك وأنه خبر هذه الديار، وعاش فيها وعرف ما يجري وأفزعه ما رآه من يقظة فكتبوا إلى دولهم، وحرصوهم على الانقراض على هذه اليقظة، قبل أن تشتد، وتاريخ هذه الكتابات بدأ مع تاريخ اليقظة ومنهم من كان يحضر دروس الجبرتي في الهندسة وعلوم الصناعات، ويسخر الأستاذ سخريه مرة من هذا الفساد المخجل الذي نعيشه حين نقول: إن غزو نابليون لمصر هو بدء النهضة.

□ ويقول - رحمه الله - بعدما بين تخريب مدينة القاهرة، التي كانت من أحسن مدن العالم بعمارتها وفنونها وبركها ومنتزهاتها، وبعدها خرجت جيوش نابليون منها...: «ولكن صار هذا التدمير في عين حياتنا الأدبية الفاسدة هو رسول الحضارة الذي جاء ليخرجنا من ظلمات الجهل إلى عصر النور والتنوير لا تضحك ولا تبك، ولكن أطرق إطراقة الخزي والمهانة والعار»<sup>(٢)</sup>.

□ ولم يقف الخطأ عند هذا الخزي وهذه المهانة وهذا العار، الذي دل على جهلنا بتاريخنا ورجالنا الذين أسسوا لنهضتنا، ووضعوا لها المنار، وسلكوا الطريق، ونبهوا، وأيقظوا وأحس عدوهم بخطرهم وأنه عمي علينا،

(١) المصدر السابق (ص ١٠٤).

(٢) المصدر السابق (ص ٩٦).

وجهلنا كل ذلك، وجعلنا تاريخ وأد هذه النهضة هو بداية النهضة، أقول: لم يقف الأمر عند هذا، وإنما تجاوزه إلى ما هو أشنع منه وأشنع وهو طريق النهضة نفسه، إذ تركنا الطريق الصحيح الذي بدأه خمسة الأعلام وسقطنا في أخطر ما سقط فيه عقل أمة وهو الاعتقاد بأن سبيل النهوض هو السير وراء هؤلاء الذين دمروا نهضتنا والأخذ عنهم في المعارف والثقافات والآداب والفنون وبدأ إغراء العقل الإسلامي بالثقافة الأوروبية المسيحية وآدابها وفنونها، وجعلنا أن الثقافات والآداب والفنون، وكل فصيلة العلوم الإنسانية كلها متدفقة من قلب العقائد، وآية ذلك ثقافة الإسلام وآدابه وفنونه وأن الإسلام يداخل كل هذا وكثير من المسلمين أيام الفتح الإسلامي، دخلوا في هذا الدين بعدما عاشوا ثقافته؛ لأن المسلمين لم يكرهوا أحداً على الدخول في دين الله؛ لأن الله حرم هذا، فبقي كثير من الناس على دينهم، ولما انغمسوا في ثقافة الإسلام دخلوا فيه، وهكذا فعل المسلمون في الأندلس، لم يلزموا القوط باعتراف الإسلام، وإنما خلوا بين الناس وما يريدون، ولما بدأ القوم يتساقطون في حب الثقافة العربية والإسلامية فطن القساوسة إلى هذا الخطر، وقالوا لهم: لو غلبتكم ثقافة العرب المسلمين فلن تعود إليكم بلادكم.

لا شك أن الثقافة ومنها الفنون والآداب وما يتبعها من معارف إنما هي تجسيد للدين، وأن هذه النهضة الكاذبة دفعت بنا دفعا في هذا التيار، فغيبت عنا علومنا وآدابنا وتاريخنا التي هي القوة الفاعلة والقادرة على تغييرنا وإحداث اليقظة والنهضة وعشنا تحت سيطرة ثقافة مسيحية وثنية تقتلع جذورنا، وتدفعنا دفعا في تيار التبعية، ومضى على هذا الحال أكثر من قرنين، ولا نزداد في طريق النهضة الخادعة إلا تعثراً وضلالاً؛ لأنه من المخالف لفطرة الأشياء أن تنهض أمة بعقل أمة، وأن يعتقد المغيب النائم،

الذي ينتفع بعلوم المستيقظين أنه استيقظ وحين يردد كلام المجتهدين يعتقد أنه اجتهد، وكذلك حين يقول مقالة المجددين أنه جدد، كل ذلك وهو نائم وكأننا نعاني ازدواج الشخصية وهذا هو جوهر النهضة المضللة التي قطعنا فيها قرنين ونحن كما ترى، وتأمل هذ جيداً لأن مصيبتنا تكمن فيه أقرأ كلام المجددين فأجده كلام الآخرين نقلوه، وأسأل نفسي بأي عقل اعتقد هؤلاء أنهم مجددون؟! هل يمكن أن يجدد النائمون!!؟

□ ولما بدأت النهضة بفجرها الصادق، الذي رفع مناراته الخمسة الذين ذكرهم الشيخ أحدث هذا الفجر الصادق أثراً قوياً في النفوس؛ لأنها بدأت من ذات النفس؛ لأن علومنا وتاريخنا وآدابنا كل ذلك له رنين خفي في داخل نفوسنا، وهو قطعة منها، وهي قطعة منه ولا يزال صدى هؤلاء الأعلام يتردد ويفعل فعلة ليس هناك دارس للغة إلا ونفت البغدادي في قلبه وعقله ومثله المرتضى الزبيدي الحسيني، وليس هناك دارس للسنة إلا واهتدى بهدي الشيخ ابن عبد الوهاب، ومثله الشوكاني، ولو قارنت عطاء واحد من هؤلاء بعطاء جميع الرواد الذين ولدتهم النهضة الكاذبة والذين لقبوا بالرواد لمزيد من الإقناع بالخداع والباطل والذين قام عملهم على ارتضاخ الثقافة المسيحية الغربية لوجدت اختلافاً لا تصح معه المقارنة، وشرط هذه الموازنة أن تكون من القادرين على قراءة مثل الخزانة؛ لأن قراءة هذه الكتب تحتاج إلى أدوات.

ولم يعط الأستاذ محمود شاكر قضية من القضايا، ما أعطاه لهذه القضية من دراسة وعرض وتحليل وتكرار وكأنه كان يتعمد تكرارها في كل ما يكتب حتى في اللقاءات الصحفية؛ لأنها هي قضيته الأم ولا يجوز الحديث عنه في غيبتها.

\* فساد الحياة الأدبية «ومحنة الشعر الجاهلي»:

والكلام في فساد حياتنا الأدبية يدور حول نقطتين: الأولى هي تغييب علومنا، وإسدال الستار عليها، في جامعاتنا ومدارسنا وأنديتنا وصحافتنا، وكل وسائل الثقيف، ثم شغل هذا كله بمقتبسات عن الثقافة الغربية المسيحية وقد ندخل على هذا الاقتباس شيئاً من التحوير أو التعديل وهذا هو الفساد الوبيل كما كان يصفه - رحمه الله - وما سماه الأستاذ «محنة الشعر الجاهلي» كانت رؤية منه لرأس هذه القضية وهي تطل من قاعات الدرس الجامعي لأول مرة فصدمته، وهو في السابعة عشرة من عمره وكان نافذاً نفاذاً غريباً إذ أدرك هذا وهو في هذه السنة، ونفذ من وراء ضجيج الدكتور طه حسين إلى جوهر ما وقع الرجل فيه ولم يخدعه عن ذلك شيء، وليست المشكلة أن الدكتور طه ذهب إلى أن الشعر الجاهلي شعر صنعه الرواة في الإسلام ونحلوه الجاهليين، وإن كان هذا من الخطأ المحض؛ لأن الناس في العلم يخطئون ويصيبون، ولو أن الدكتور طه حسين اجتهد بعقله هو وراجع بعلمه هو وانتهى به الرأي إلى الذي قاله، صواباً كان أو خطأ لما كانت هناك ما سماه الأستاذ «محنة الشعر الجاهلي».

ولو أن الدكتور طه عرض الذي عرض على طلابه مسنداً إلى مصدره، وحافظ على ما تحب المحافظة عليه من أسانيد المعرفة، وقال هذا كلام مرجليوث لم تكن هنا محنة حتى لو قال: وأنا مقتنع به.

□ ولما قرر المرحوم محمود شاكر ترك الجامعة بسبب هذا، وجاءه وفد من العلماء وأهل الرأي ومنهم أساتذة في الكلية من المستشرقين طلب منهم شرطاً واحداً، يعود به إلى الكلية، وهو أن يقول الدكتور طه حسين لطلابه أن هذا الذي قلته في الشعر الجاهلي هو كلام فلان، وكان الأستاذ جويدي

المستشرق الإيطالي يعلم أن ما قاله الدكتور طه هو مقال مرجليوث، ولكنه كما قال الأستاذ لما سمع منه هذا طالبه على عادته بتوقيع أساتذته، وراغ من جوهر القضية<sup>(١)</sup>.

□ كانت المحنة إذن أننا نحدث طلابنا، بمقالة أعدائنا في علومنا وأدبنا وتاريخنا، ونوهمهم أن هذا علم استخراجناه بالبحث والنظر والمنهج والاستنباط، ومثل هذا مما يجعل له توقيراً في نفوس الطلاب الأغرار، مع أن هذا الذي نأخذ عنه علمنا أعجم «ليس عنده من أدوات النظر في العربية، وإدراك أسرارها ما يجعل لرأيه قيمة، وهذا أمر يرجع إلى الطبيعة فليس اللسان لسانه، وليس الأدب أدبه، وليس التاريخ تاريخه، هذا فضلاً عن فساد طويته ومقصوده من دراسته، وهذا الفساد يفسد منهجه، ولا يريد هو من وراء هذه الدراسة إلا تشويه وإفساد ومسخ الفكر العربي وتاريخه وكان مرجليوث مغالياً في هذا الإفساد، ومغالياً في حقه على العرب، والمسلمين وهو يهودي يقطر حقداً».

□ وقد رد مقالته هذه التي سطا عليها الدكتور طه حسين سطواً غريباً على حد عبارة الأستاذ محمود شاعر بعض المستشرقين ومنهم الأستاذ ليال، الذي حقق كتاباً من أوسع الكتب وأفضلها، وهو المفضليات، وكتب مقدمة جيدة عن الشعر الجاهلي، ورفض كلام مرجليوث واعتبره خارجاً عن العقول، والمفضليات التي بين أيدينا مختصرة من هذا الأصل، اختصرها الفاضلان أحمد شاعر، وعبدالسلام هارون، والأصل الذي حققه «سيرليال» موسوعة في اللغة والأخبار والشعر ومن المؤسف أن التحقيق المختصر اهتمت به دار المعارف، وأكثرت من نشره وغطى على هذا الأصل النافع.

(١) مقدمة كتاب المتنبى - «فساد حياتنا الأدبية» للشيخ محمود شاعر (ص ١٩).

□ وقد أقحمت هذا لأن شرح ابن الأنباري الأصلي من العلم النافع الذي غاب .

كانت المحنة كما رآها الأستاذ - رحمه الله - ورضي عنه أننا صرنا لا نكتفي بتغيب آدابنا وعلومنا وتاريخنا وفكرنا ومناهجنا وإنما نُصور بكل ذلك في قلوب أجيالنا صورةً هي من تصوير العدو الذي يجاهر بأن هدفه هو تدمير هذه العلوم، وهذه الحضارة وهذا التاريخ ثم نطبعها بأيدينا في قلوب أبنائنا، ونوهمهم أنها من كلامنا نحن، ونحن أمناء على تاريخنا وعلومنا ولسنا موضع تهمة، عند هؤلاء الطلاب، وليسوا أحرص على هذه العلوم، وهذا التاريخ منا، وليس وراء هذا هاوية أبشع ولا أشنع منها، يمكن أن نُسقط فيها أبنائنا، بأيدينا، وراجع هذا حتى تتصور الحجم المفزع للتدليس على العقول، الغضة المبتدئة وكيف يدمر تاريخهم، في ذات نفوسهم أو قل كيف تدمر ذات نفوسهم؛ لأن تدمير علوم الأمم هو تدمير ذات نفوسهم .

واضح أن الأستاذ محمود شاعر الذي كان في سن الثامنة عشرة لم يكن متسرعاً حين اتخذ قراره الحاسم بترك الجامعة، حتى يفر بعقله قبل أن يدمر كما قال، وأنه نفذ في هذه السن إلى البشاعة المستترة وراء طنين الأستاذية والمنهج والجامعة وعالمية الثقافة وغير ذلك مما تهالكت ولا تزال تهالكت فيه الأجيال .

وكان القرار صعباً ملأ قلبه بالمرارة، كما وصف وكما كرر الوصف؛ لأنه كان شاباً يستقبل العمر، ويحلم بالمستقبل الزاهر، ويمد في أحلامه تفوق ظاهر ونبوغ ونشأة في بيت من أكرم بيوت العلم، يرتاده أشرف الناس وسادتهم وأهل الرأي والعلم، كما كان معقلاً من معاقل الوطنية، ولكن صدق النفس والوفاء لما يجده المرء في قلبه غلب عليه، وصنع أعظم صنيع

في تاريخ الثقافة العربية، ولفت أبين لفت إلى خطر هذا التحول الذي هو «جذر قضيتنا» كما كان يصفه - رحمه الله .

□ وقد وصف هذا التحول بعد خمسين سنة مفكر عاش يدعو إلى الثقافة الغربية المسيحية، بأنه يفضي بنا إلى أن نكون خيراً من أخبار التاريخ، هذا المفكر هو الدكتور زكي نجيب محمود، فقد رأى أن غيبة العلوم العربية والإسلامية في مدارسنا وجامعاتنا وبحوثنا ومؤلفاتنا وأنديتنا، ثم حضور الفكر الغربي الأوربي مكانها في هذا كله يؤدي بنا إلى أمرين خطيرين:

● الأمر الأول: هو نقض عقائدنا؛ لأن هذا الفكر الأوربي يقودنا إلى أن نأخذ «بوجهة نظر أصحابه في الإنسان والعالم» يعني أن نعتقد عقائدهم في ذلك، «ووجهة النظر في الإنسان» في الفهم الإسلامي أنه مخلوق لله رب العالمين، وأن مرده إلى الله، وأنه يعيش في هذه الدنيا، وعليه رقيب وعقيد يكتبان في صحيفة أعماله كل ما يكون منه، من خير وشر، وأن صحيفته هذه تشر يوم البعث، وأنه إما أن يأخذ كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤوا كتابيه أو يأخذه بيساره فيقول: يا ليتني لم أوت كتابيه وهكذا العالم في الفهم الإسلامي، مخلوق لله رب العالمين، وله سبحانه ما في السموات وما في الأرض وما بينهما، وما تحت الثرى، وأن هذا العالم له نهاية تكون ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ كل هذا ينقضه الفكر الأوربي المسيحي الوثني في نفس المسلم، ويرسخ مكانه وجهة النظر المسيحية الوثنية.

● الأمر الثاني: هو أن هذا الفكر الأوربي المسيحي الذي تفرد في تكوين الأجيال يفضي بنا إلى فقدان الذات، هكذا يقول الدكتور زكي محمود

يعني أننا نفتقد وجودنا، من حيث إننا عرب مسلمون، ونصير خلقًا مسوخًا، تابعين لأصحاب هذه الحضارة التي صرنا من خدمها. وبهذا نصبح خبراً من أخبار التاريخ.

□ يقول الدكتور زكي نجيب محمود وهو يشرح غلبة الفكر الأوربي قديمه وجديده وسيطرته على عقول الآلاف المؤلفة من المثقفين العرب، وغيبة الفكر العربي الإسلامي عن هذه الآلاف المؤلفة، حتى كانت مذاهبه وأعلامه تترأى لهم كأنها أشباح طافية على سطور الكاتبين:

«فهو واحد من ألوف المثقفين العرب، الذين فتحت عيونهم على فكر أوربي قديم أو جديد حتى سبقت إلى خواطرهم ظنون بأن ذلك هو الفكر الإنساني الذي لا فكر سواه؛ لأن عيونهم لم تفتح على غيره، ولبثت هذه الحال مع كاتب هذه الصفحات أعواماً بعد أعوام، الفكر الأوربي دراسته، وهو طالب والفكر الأوربي تدريسه وهو أستاذ والفكر الأوربي مسلاته كلما أراد التسلية في أوقات الفراغ، وكانت أسماء الأعلام والمذاهب في التراث العربي لا تجيئه إلا أصداء مفككة متناثرة كالأشباح الغامضة يلمحها وهي طافية على أسطر الكاتبين»<sup>(١)</sup>...

□ هذا النص يصف ما يذكره الأستاذ محمود شاكر من تفريغ الأجيال من ثقافتها العربية الإسلامية المتكاملة والمتداخلة ثم ملء هذا الفراغ بالفكر الأوربي المسيحي.

□ ويبين الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود خطر هذا، وأثره في تشكيل رؤيته، حتى إنه دعا يوماً إلى بتر التراث بترًا، قال - رحمه الله - وهو يعتذر عن هذا الرأي الذي قال به أيام أن كان أصحاب هذه الحضارة

(١) «تجديد الفكر العربي» للدكتور زكي نجيب محمود (ص ٥).

يحتلون بلادنا:

«بدأت بتعصب شديد لإجابة تقول إنه لا أمل في حياة فكرية معاصرة، إلا إذا بترنا التراث بترًا وعشنا مع من يعيشون في عصرنا علمًا وحضارة ووجهة نظر إلى الإنسان والعالم بل إنني تمنيت عندئذ أن نأكل كما يأكلون، ونجد كما يجدون، ونلعب كما يلعبون ونكتب من اليسار إلى اليمين كما يكتبون»<sup>(١)</sup>.

□ ويكرر الدكتور أن هذا الشطط الذي ذهب إليه إنما كان مرجعه هو «جهلي بالتراث العربي جهلاً كاد أن يكون تاماً، والناس - كما قيل بحق - أعداء ما جهلوا».

ثم قال: «ثم تغيرت وقفتي مع تطور الحركة القومية، فما دام عدونا الألد هو نفسه صاحب الحضارة التي توصف بأنها معاصرة، فلا مناص من نبذه، ونبذها معه، وأخذت أنظر نظرة التعاطف مع الداعين إلى طابع ثقافي عربي خالص، يحفظ لنا سماتنا، ويرد عنا ما عساه أن يجرفنا في تياره، فإذا نحن خبر من أخبار التاريخ، مضى زمانه، ولم يبق منه إلا ذكراه»<sup>(٢)</sup>.

□ والتراث الذي دعا الدكتور زكي نجيب محمود إلى بتره قبل أن يثوب إلى رشده هو التفسير، والحديث والفقه واللغة والشعر، وعلوم الكتاب والسنة والأعلام الذين كان يراهم أشباحاً طافية هم مالك والشافعي وأحمد والخليل وسيبويه والجاحظ والتوحيدي وطبقات المفسرين والمحدثين والمؤرخين.

□ وكل كلام الدكتور يحتاج إلى مراجعة ليس موضعها هنا؛ لأنه من العجيب أن تدرس آلاف مؤلفة فكرياً يزلزل عقائدها، ويمحو ذواتها ويضيرها

(١) المصدر السابق (ص ١٣).

(٢) المرجع السابق.

خبراً من أخبار التاريخ، وهم لا يفطنون إلى ذلك والدرس تمحيص وبقظة!. ثم كيف يجهلون أنها ثقافة العدو الألد، والاحتلال قائم والشعب ينتفض في مطاردته؟ ثم كيف يسبق إلى ظنونهم أنه لا علم سواه؟ والمعارك دائرة بين حماة الثقافة العربية الإسلامية، الذين يبنذون العدو وثقافته وبين دعاة ثقافة العدو، والذين يعيشون في ظله؟ وكيف يجهل من يعيش في مصر علوم العربية والإسلام، وهي بلد الأزهر، موئل هذه العلوم، وكعبة طلابها من أقطار الأرض؟ كل هذا غريب، وأغرب منه أنه لا ينبه إلى هذه الحقيقة المفزعة، والتي تصيرنا خبراً من أخبار الماضي إلا الحركة القومية التي تجهمت في وجه كل ما هو أوربي بحكم توجهها الاشتراكي، وهل نبذ المرحوم فكر العدو الألد مع نبذه لهذا العدو؟

□ كم اقتنعنا بسراب حسبناه فكراً، ورحمك الله يا شيخ الفلاسفة كم في إرثك الذي تركت لنا من غوامض؟ وكم فيه من متعة؟ ولا يجوز أن أدع هذا الموضوع من غير أن أضع بين يدي القارئ شهادة أخرى لعلوم الإسلام، وعلماء الإسلام، الذين أسسوا حضارته، شهد هذه الشهادة فيلسوف مثل الدكتور زكي، ولكنه ليس وإحدًا من المثقفين العرب وإنما هو الألماني «نيتشه» قال في كتابه «المضاد للمسيح» وهو ينتقد الحضارة الأوربية التي تجاهلت حضارة المسلمين في الأندلس، وأنها كانت أقرب إلى الروح الأوربية، من حضارة أئينا، وأنها وهذا هو المهم «بلغت شأواً لو قيست به حضارة القرن التاسع عشر لظهر إملاقه وفقره»<sup>(١)</sup> يعني أن هذه الأشباح الطافية في نفوسنا كانت أسست حضارة تجاوزت القرن التاسع عشر، ودخلت القرن العشرين. والذي وصفه الدكتور زكي نجيب محمود لا يزال قائماً كما وصفه، ولا

(١) النص من مقالة كتبها الدكتور يعقوب زكي بعنوان «محمد إقبال» وترجمها يحيى حقي - رحمه الله - ونشرها في مجلة «المجلة» يونيو ١٩٦٩م.

تزال طاحونة السحق تدور وتسحق الآلاف المؤلفة، ونحن نرى ونسمع،  
وندفع أنفسنا بأنفسنا لتكون خبراً من أخبار التاريخ مضى زمانه، ولم يبق منه  
إلا ذكراه، ولم يقف أهل الرأي الوقفة الحاسمة، لتحويل هذا التحول الذي  
فرض علينا وأمرنا ليس بأيدينا، ولا محيد لنا عن تغييره، وعودة الأمر إلى  
نصابه، ووضع أجيال الأمة في علومها وتاريخها وحضارتها؛ حتى نشأ  
النشوء الطبيعي الذي تنشؤه أجيال الأمم كلها.

□ وقد ذكرت أن الشيخ - رحمه الله - كان يضيق بالصمت عن هذه  
القضية التي ليست قضية فكرية فحسب وإنما هي قضية كيان، وكان يحرص  
على ذكرها في كل ما يكتب لينبه الغافلين، ولتعلم الأجيال الجديدة على أي  
أرض تقف، وكيف نقبل الصمت والمداهنة، والخلود إلى الدعة، وإيثار  
الراحة، ونحن نعد أبناءنا لمستقبل يعلم الله ما يخبئه لهم، وقد سكنت في  
ديارهم حية من أخبث الحيات، «في أنيابها السم ناقع لا يشفى لديغها» وصار  
الأمر أمر جد، وهذا كله يوجب علينا أن نراجع كل شيء بصدق قصد،  
وضريح عقل، ورحم الله من كان هذا أكبر همه، ورحم الله الدكتور زكي  
نجيب محمود فقد شهد شهادة صدق من يكتبها فإنه آثم قلبه..

وكنت أقرأ بعض ما يكتب عن الشيخ بعد وفاته - رحمه الله - وأجد  
أنفاساً صادقة، وكان حظ هذه القضية أقل من القليل، وقد شغل البعض  
بذكر صبوة قديمة عاشها الرجل في شبابه، وكتب أمرها، أو كلاماً في أخبار  
«خولة» أخت سيف الدولة، وكان الذين شغلوا بهذا قادرين على أن يقتحموا  
هذه القضية الأم، وقد عني الأستاذ - رحمه الله - عناية شديدة بدراسة  
مؤسسات الاستشراق والتبشير والاستعمار، وهي ذات أصل واحد، واحتشاد  
هذه المؤسسات من أجل دفع هذه الثقافة المسيحية الغربية وفرضها على قلوب  
المسلمين وعقولهم ثم مطاردة علومهم وآدابهم ولغتهم وتاريخهم وحضارتهم،

وأن هذا لم يكن لصالح الأمم الإسلامية ولا لتنويرها، ولا لتطويرها، ولا لإدخالها في عصر النهضة كما تقرأ وتسمع، وإنما كان لتدميرها، وتشتت شملها، وإفراغها من كل ما نتمسك به ومن كل ما يشد كيائها كالبنيان المرصوص؛ حتى تواجه التحديات التي فرضتها عليها الحضارة الأوربية المسيحية نفسها.

ولا شك أن إحكام السيطرة على العقل والفكر، هو ذاته إحكام السيطرة على الأرض، وفرق ساطع بين العلوم التي نتكلم عنها، وهي عندنا العلوم العربية والإسلامية التي تطارد بشراسة وجهل، ليحل محلها نظائرها أو ما يسد فراغها من علوم النصرانية فرق بين هذا وبين العلوم البحتة، كالرياضيات وعلوم الطبيعة؛ لأن هذه ملك مشاع أو هي كما يصفها الأستاذ رضوان الله عليه «تراث إنساني وإن كان زيفه المزيفون فأدخلوا في مفهوم العلم شيئاً ليس منه»<sup>(١)</sup> الأولى تتناقض تناقضاً صريحاً مع عقائد المسلمين، وهي التي احتشدت أجهزة التبشير لافتحامها في الأمم الإسلامية، وهي خطر على العقيدة، وخاصة إذا خلا العقل من علوم الإسلام التي تدفع عنه غوائل هذه الوثنية النصرانية وقد وصف الأستاذ المرحوم محمود شاكر هذا التناقض الصارخ بين هذه الثقافة وعقيدة الإسلام، وذلك في رده على صديقه «محمد عودة» الذي كتب في جريدة «الجمهورية» كلمة طيبة في «القوس العذراء» وذلك في يوم ٢٠ صفر ١٣٨٥هـ الموافق ٢٠ يونيو ١٩٦٥م وقد وضع فيها الأستاذ محمد عودة صاحبه في منزلته بين علماء الأمة، ثم ذكر أن بعض ما يكتبه الأستاذ محمود شاكر يترك في النفس «حزازاً من الوجد حامزاً» مثل هجومه على الثقافة الغربية، وكأنها فقط كتابات المستشرقين والمبشرين المعادين للإسلام.

(١) «أباطيل وأسما» لمحمود شاكر (ص ٤٩٧).

\* لله در الأستاذ محمود شاكر - رحمه الله :-

□ قال الأستاذ - رحمه الله - «وكيف غاب عنه أنني بطبيعة نشأتي في هذه العربية الشريفة، وفي شرارة هذا الدين الذي لا يقبل الله من عباده سواه، يوم يقوم الناس لرب العالمين لا من عامي ولا من متعلم ولا من مفكر، ولا من عالم ولا من نبي من الأنبياء، كيف غاب عنه أنني بطبيعة ذلك عدو الثقافة الغربية؛ لأنها ثابتة في مدارج نموها في بيئة وثنية ومسيحية أنكر عقائدها وأرفضها وأعتقد بطلانها كل البطلان لمخالفتها للذي طالبنا به ربنا وخالقنا والمنعم علينا بآلائه ونعمه من عقل وبيان، وإذا أنا داهنت في ذلك أقل مDAHنة فإنني على يقين من عذاب الله، الذي لا يغني عنه في دفعه ثناء صديقي الأستاذ عودة، ولا إعجابه ولا مودته، فإن الله يقول لنيبه ﷺ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٧) فلا تُطعِ الْمُكذِبِينَ ﴿٨﴾ وَدُوا لَوْ تَدَهْنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾، فإذا فعلت فإنني رهين بعذاب بئس» (١).

□ وأعود إلى ما نقله الشيخ من كلام رءوس المبشرين وكيف كانت تتفق كلمتهم على أن السيطرة الفكرية والثقافية على العقل الإسلامي هي أخطر طريق لتدمير ديار الإسلام، وأن تثيت الأفكار الغربية المسيحية في ديار الإسلام، خطوة حاسمة في تحقيق أهداف إرساليات التبشير، وأن تفتيت هذه الحضارة التي تقوم على مجموعة العلوم العربية والإسلامية أمر لازم حتى يتم المقصود من التجزئة السياسية التي فرضت على العرب والمسلمين، بعد سقوط الخلافة واستطاعت وحدة هذه العلوم، وهذه الثقافة أن تُفقد هذه التجزئة قيمتها، وسأكتفي بكلمات قصيرة قالها مسيو «شاتليه» أحد رءوس المبشرين

(١) «أباطيل وأسما» لمحمود شاكر (ص ٣٩٨).

في سنة ١٩١١م يوصي رجاله وصايا تعينهم على تمكنهم من «قضاء لباتهم من هدم الفكرة الدينية الإسلامية» هكذا يقول بوضوح شديد وأهم هذه الوصايا التي تعين على قضاء هذه اللبانة هي «تثبيت الأفكار الأوربية في ديار الإسلام»، وأن هذه الفكرة الدينية الإسلامية المراد هدمها» يجب أن تحاط بأفكار أوربية، وأن تطوق بها، ثم قال: «إن هذه الفكرة الدينية الإسلامية لم تحفظ كيانها إلا بعزلتها، وانفرادها»<sup>(١)</sup>.

□ ولاحظ أننا بغفلة شديدة غرسنا هذه الأفكار في داخل العلوم العربية والإسلامية، وزرعنا ثقافة أعجمية مسيحية في قلب الثقافة العربية الإسلامية واعتقدنا أن هذا تطوير لعلومنا، وصرنا نقرأ كتباً في اللغة والآداب لا نعرف هل هي عربية، أو أعجمية، ودنسنا الفكر العربي الإسلامي بالفكر الوثني المسيحي وهذه مصيبة ثانية، ولما طالب بعض الناس بتعريب الطب، قال الطبيب الأديب الدكتور يحيى الرخاوي ساخراً: عربوا علوم العربية أولاً.

□ ومعنى كلام هذا الرأس المدبر «شاتليه» أن الفكر الأوربي إذا ثبت في عقل المسلم، وقلبه وليس في هذا العقل والقلب من علوم الإسلام وحقائقه وأصوله ما يعصمه من غوائل النصرانية المتضمنة في هذا الفكر استطاع هذا الفكر المنفرد في هذه النفس أن يهيئها لقبول النصرانية، وهذا هو معنى تدمير الفكرة الإسلامية بتثبيت الأفكار الأوربية، وأن أعداء الإسلام يقضون لباتهم بهذا التدمير وهو أيضاً معنى قول الشيخ - رحمه الله - في وصفه الثقافة الغربية أنها ثقافة ثابتة في مدارج وثنية مسيحية وأنه يرفضها كل الرفض، ويناقضها كل المناقضة وليس معنى هذا رفض الاطلاع على تجارب الأمم وماذا يقولون؟ ومعرفة علومهم، وآدابهم وطرائقهم في النظر؛ لأن الحكمة

(١) «أباطيل وأسما» لمحمود شاعر (ص ١٨٦).

ضالة المؤمن ينشدها في كل أرض، والعقل الحي كالطائر الحر لا يحبس عن قراءة ما يتاح له لأن حب الاطلاع شيء في سوس العقل، وفي طبع النفس ما دامت نفساً، كما كان يقول علماؤنا - رحمهم الله، ولكن لا بد أن تدور رحي البحث والدرس، على علومنا، وأن يُغمَسَ الجيلُ فيها، ويصنع بها، حتى تدخل في لَحْمِهِ وعظمه، وأن تحيا هذا العلوم فينا، وأن نحيا نحن بها وفيها، وأن نتقلبَ بنا وأن نتقلبَ بها، وأن نستخرج منها خبأها، وأن تستخرج هي منا خبأنا، وأن تزدهر بنا وتنمو وتسطع، وأن تزدهر نحن بها وتنمو وتسطع وأن نحافظ على صفاتها وخصوصياتها ونقاؤها، كما تحافظ هي أيضاً على صفاتها وخصوصياتنا ونقاؤها، لتظل هي بنا عربية إسلامية خالصة ونظل نحن بها عرباً خالصاً مسلمين غير مهجنين.

وهذا ما يفعله علماء الناس كل الناس، يحتفظون بخصوصية معارفهم وثقافتهم ومناهجهم وآدابهم، ليحفظ ذلك كله خصوصية الإنسان ابن هذه الثقافة وابن هذه الآداب وابن هذه المناهج، راجع كلمة الدكتور زكي نجيب محمود واعكسها تُصب، أعني قوله - رحمه الله - إنه هو والآف مؤلفة فتحت عيونهم على فكر أوربي قديم أو جديد.. الفكر الأوربي دراسته وهو طالب وتدرسه وهو أستاذ ومسلاته كلما أراد التسلية، اجعل هذا للفكر العربي الإسلامي، وهذا هو الذي يحدث في كل شق من الأرض، وقوله: «وكانت أسماء المذاهب والأعلام في الفكر العربي لاتجيهه إلا أصداء، كالأشباح الغامضة يلمحها طافية»، اجعل هذا لفكر الآخرين، ليس من الأوربيين فحسب، وإنما أيضاً لبقية أمم الأرض، ذات الحضارات والعلوم والآداب ولا تفتح على العدو الألد وحده، نحن لم نراجع فكر إيران، ولا علومها، ولا آدابها إلا في حيز المتخصصين، وقل مثل ذلك في اليابان والصين وأمم الشرق الأقصى.

□ وكان علماءنا يقولون: لا يجوز للمبتدئ أن يقرأ كلام المخالفين إلا بعد أن يحكم المذهب، وأن يحكم أصوله وفروعه، فإذا تقرر في نفسه وقويت عنده حججه، واستنارت في عقله، فله أن يقرأ ما يشاء.

□ ولا شك أن كثرة المدارس لباب من أبواب العلم تكشف فيه خفايا، وتستخرج من تحت ألفاظ أئمتيه وشيوخه معاني وأفكاراً لم يكن لها أن تُستخرج إلا بطول الملبسة، وهذا وجه جيد من وجوه التجديد، ثم إن كثرة المدارس أيضاً لباب من أبواب العلم يولد في النفس خواطر جديدة، حول هذا الباب، وإنما بقيت علومنا راکدة لأن عقولنا لم تتلبس بها بالقدر الكافي، بل غابت عنها على حد ما وصف المرحوم زكي نجيب محمود ولا يكفي أن تتوفر عليها طائفة وإنما الأمة كلها تجعلها قُطبَ رحى الدرس، والبحث والتأليف وكتابة المقالات.

ومن فعلوا ذلك وتوفروا على علومهم هذا التوفر يقرءون من ثقافات الأمم ما شاءوا، وهكذا كان حال علمائنا في تاريخنا ألماً بتراث الإنسانية، وجعلوا طحينهم وحده تحت رحاهم وهكذا كان المرحوم محمود شاكر وقد اعتبر وصف صاحبه له بالتقصير في معرفة الفكر الأوربي سخفاً وقال: «هل يتفضل الصديق بإطلاعي على شيء من كلامي يتضمن هذا المعنى السخيف»<sup>(١)</sup>.

□ وهناك فرق شاسع جداً بين أن تقرأ كلام الآخرين لتعرف كيف يفكرون؟ وبين أن تقرأه لتفكر كما يفكرون، وكذلك فرق بين أن تقرأ كلام الآخرين لتعرف ماذا يقولون؟ وأن تقرأ لتقول ما يقولون، أو شبه الذي يقولون، أنت في الحالة الثانية ضعيف مقلد، وفي الحالة الأولى عالم

(١) «أباطيل وأسما» (ص ٤٩٦).

متمكن، والتقليد خليقة مردولة، وقد قال علماؤنا: إن المُقلد أذل من العنزة الجرياء تحت الشمال البليل، يعني الذي يقرأ كلام الآخرين ليفكر كما يفكرون وليقول مثل الذي يقولون، ليس هو هذه العنزة الجرياء تحت المطر الشديد البرد، وإنما هو أذل منها، فهل يُمكن لهذا العنزة الأجرب أن يطور علومًا وأن يُحدث نهضة؟!!

وأعطيك مثلاً قريباً للفرق الهائل بين القراءتين:

قرأ الأستاذ محمود شاكر مقالة «نشأة الشعر العربي» التي كتبها مرجليوث وقرأها الدكتور طه حسين.

عرف الأستاذ محمود شاكر ما قاله مرجليوث ثم أهمله، والدكتور طه حاضر به طلابه، وسكت عن مصدره، وأوهم أنه مما استخرجه بالمنهج الجديد. هذه واحدة، وأمر آخر هو أنك تجد الأستاذ محمود شاكر - رحمه الله - مع سعة علمه بالأعجميات لا يرتضخُ فكرة أعجمية واحدة، وهو يتناول أي دراسة لشعر أو لغير شعر ولا يُقحم نفساً أعجمياً واحداً في كلام عربي، وهذه دراساته المتسعة والمتعددة. . . ونقد الشعر الذي صار أعجمياً ويوشك أن يكون كامل العُجْمة ليس في كلام الأستاذ محمود فيه حرف واحد مع أنه قادر على أن يتناوله تناولاً أعجمياً خالصاً، ويحرص كثير منا على أن يتكبر بهذه الأعجميات، حتى ولو كان قد خطف كلمة من هنا، وأخرى من هناك.

وقد اتضح الآن الفرق بين معرفة ما عند الآخرين، والاحتفاظ بصفاء علومنا، والله أعلم.

\* ويقول الدكتور عبد الحميد إبراهيم في مقاله «محمود شاعر - الرجل والموقف»<sup>(١)</sup> :

«ألا لا يمتنع رجالاً هيبة الناس، أن يقول بحق إذا علمه».

□ هذا نص حديث شريف، استفتح به الشيخ محمود شاعر كتابه «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا».

وهو حديث لا يصدق على أحد بقدر ما يصدق على الشيخ شاعر نفسه إن مفتاح شخصيته يتلخص في قدرته على قول الحق، مهما كانت الظروف. وقبل هذه القدرة هناك قدرة ثانية متكامل معها: وهي قدرته على أن يتبين الحق قبل أن يتنبه له الآخرون.

□ إن تاريخ الشيخ شاعر يتلخص في أنه يدرك الحق قبل أن يدركه غيره، هذا أولاً. وفي أنه يجاهر بهذا الحق ولو سكت غيره، وهذا ثانياً. هذا مفتاح شخصيته، وهو مفتاح يدل على أننا إزاء صنف من الرجال، يختلف عن غيره من بقية خلق الله.

فالرجل، أي رجل، لا يقاس بغزارة علمه، ولا بوفورة ماله، فما أكثر العلماء الذين يعرضون صفحات الكتب، ثم يتركون دنياهم، دون أن يدري بهم أحد، وما أكثر الناس الذين يحبون المال حباً جماً. ويفنون ويبقى المال ويذهب الأثر.

لقد ذكر الرسول ﷺ أن هناك نَهْمِينَ لا يشبعان، طالب علم وطالب مال.

ولا غرابة في ذلك فكلاهما طالب العلم وطالب المال، يفرقان في لذة شخصية، قد تصرفهما عن المواقف التي تتجاوز حدود الشخصية ومتطلباتها

(١) مجلة الأدب الإسلامي - العدد السادس عشر (ص ٢٦ - ٢٧).

الفردية.

□ الرجل إذن لا يقاس بعلمه ولا بماله، ولكن يقاس بمواقفه.

وهذا المعيار لا يفرق بين شخص وآخر. بين شخص يعيش لنفسه ويسعى نحو لذائذه، وآخر يعيش من أجل غيره، ويرتفع بمطالبه الشخصية؛ لترتبط بهدف ورسالة.

بين شخص يعيش ليأكل، وآخر يأكل ليعيش، كما تقول الكتب المدرسية. والشيخ شاکر هو من هذا النوع الأخير.

فهو لا يقاس بعلمه ولا بماله فهناك غيره الكثيرون ممن يحفظون النظريات ويسردون عناوين الكتب، وهناك غيره أكثر مالا وأعز نفراً.

□ ولكن الشيخ شاکر هو رجل المواقف بالدرجة الأولى.

وهي مواقف تفصله عن غيره، وتتيح له من الخلود ما لا يتاح لغيره.

□ هو يستطيع أن يتبين الحقيقة، في وقت لا يعرفها أحد أو يخشى أن يعرفها أحد.

وهو إذا تبينها جاهر بها، لا تمنعه هيبة الناس أن يقولها، مهما كان مقدار هؤلاء الناس.

□ التحق الشاب محمود شاکر في عام ١٩٢٦م بالجامعة المصرية، وكان الجميع فرحين بهذه الجامعة الجديدة، التي تدرس علوم الغرب ومناهج الإغريق، وكان الأساتذة يلبسون «الردنجات» ويتبخثون في الأروقة بين المدرجات، يرطنون باللغات، ويلوكون الأعلام الأجنبية، ويتشددون بالمعارف الأوربية، وكان الطلبة يتباهون بالأساتذة، يسرون على خطاهم، ويرون فيهم صورة سقراط وأفلاطون وأرسطو قد بعثوا من جديد.

□ ولكن شاباً لم يصل إلى العشرين، لم يخدع بهذا الزيف، ولم يفرق

في ذلك الطوفان، فهو يتجاوز تلك اللحظة التاريخية، وينظر وراء الحجاب، ويدرك أن كل هذه الطنطنة قد تصرفنا على أصالتنا، وقد تغرس فينا عقدة «الخواجة».

ولا يكتفي هذا الشاب الصغير بأن يدرك الحقيقة، التي لم يدركها غيره من الشيوخ الكبار، بل أن يجاهر بالحق لا تمنعه هيبة أحد من أن يقول كلمته. □ وتكون النتيجة أن يترك الجامعة إلى غير رجعة.

كانت اللحظة عمياء أقوى من أن يتبين الناس حقيقة هذا الشاب، فوصفوه بالعناد والثبات، وعدم القدرة على التطور.

ولكن الشاب يمضي في طريقه لم يتغير، تنكر له الناس، فهاجر من مصر إلى رحاب مكة، يستلهم من الله الهداية والثبات. وظل على موقفه عقوداً من الزمن، لم يتزحزح وهو شاب، وهو رجل، وهو شيخ حتى وافته المنية.

□ وهنا نضيف خصلة ثالثة إلى شخصية الشيخ شاكِر، فهو لا يقف عند معرفة الحق، ولا عند المجاهرة بهذا الحق، ولكنه يثبت عند هذا الحق ولو كان مرأً، ولا يتزحزح عنه، ولو تنكر له كل الناس.

قد يقال إن هذا تحجر وعناد صعيدي، ولكن الشيخ قد ألهمه الله معرفة الشعرة الرقيقة، التي تفصل بين العناد والثبات على الرأي، ومضى في طريقه لا يتزحزح عما يراه حقاً.

كان الجميع في الجامعة الجديدة، يسعون إلى تطبيق إنجازات الحضارة الأوربية على الواقع العربي، من خلال ما أسميته في كتابي «الوسطية العربية» بالنزعة التوفيقية، وهي نزعة تحاول أن تضع في «جراب» واحد إنجاز حضارتين مختلفتين تاريخياً وثقافياً، وتكون النتيجة في النهاية، انتصار الحضارة العالية، وضياع خصوصية الحضارة العربية الإسلامية.

□ ولكن الشيخ شاکر منذ حدائته یختط له طریقاً آخر، ویبداً مسيرته من واقع التراث العربی، ویحاور التيارات الأخرى من واقع ذلك التراث، ویخاطب قارئه ویقول:

«فاقرأ الآن معی تاریخک بعین عربية بصيرة لا تغفل، لا بعین أوربية تخالطها نخوة أوربية، كما فعل أستاذنا عبدالرحمن الراجعی، غفر الله له ذنوبه فی کتابه «تاریخ الحزبة القومية وتطور نظام الحكم فی مصر».

ویعید الشیخ شاکر قراءة تاریخنا الحدیث من منظور هذا المنهج الأصل، ویرى أن الحملة الفرنسية علی مصر، لم تكن بعثاً ولا بداية للنهضة، كما اعتاد أن یقول المؤرخون، بل إنها قد قضت علی النهضة التي بدأها علماء الأمة فی أواخر القرن الثامن عشر، وأدت فی نهاية أمرها إلى ما یسمیه الشیخ شاکر بالتفريغ الثقافي، الذي سوف ینشئ علی حد قوله:

«جیلاً من تلامیذ المدارس، تهتك علائقها التي تربطها بثقافتها العربية الإسلامية اجتماعياً وثقافياً ولغوياً، حتی یتم تفريغهم تفريغاً كاملاً من ماضيهم كله، ثم یملا هذا الفراغ علوم وآداب وفنون لا علاقة لها بماضيهم، وإنما هی علوم الغزاة، وفنون الغزاة، وتاریخ الغزاة ولغات الغزاة».

یکفیه - رحمه الله - أنه أدرك الطريق قبل أن یدرکه غیره، وأنه جاهر بالحق فی وقت قد خرس فیهِ غیره. العظماء لا یموتون، وحين یسکت الجسد، یتبعث الفکر فی ثوب جدید! ا.هـ.

\*\*\*

\* ويقول الدكتور حلمي محمد القاعود في مقاله «معارك محمود محمد شاكر الأدبية»<sup>(١)</sup> :

«وقد اشتهر «محمود محمد شاكر» بتحقيقاته وقراءاته في مجال التراث، وقد أخرج للمكتبة العربية الحديثة عدداً من الكتب الأمهات، فكانت عنواناً على وعي فريد ويقظ بالتراث ومكوناته، وأبعاده وعلامة على دقة نادرة في العمل والإنجاز، ودليلاً إلى غط فذ في المهارة والإتقان، وعرف القراء في العالم الإسلامي عن طريقه تحقيقاً ومراجعة أجود قراءة لتفسير الطبري «١٦ جزءاً» وطبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي، وجمهرة نسب قريش للزبير بن بكار، والوحشيات لأبي تمام، وشرح أشعار الهذليين لأبي سعيد السكري ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبدالقاهر الجرجاني.

□ يقول الشيخ شاكر:

«صار حقاً عليّ واجباً أن لا أثلجج أو أحجم، أو أجمعم، أو أداري، ما دمت قد نصبت نفسي للدفاع عن أمّتي ما استطعت إلى ذلك سبيلاً»<sup>(٢)</sup>.

□ يقول الدكتور حلمي القاعود: «إن هيمنة الثقافة الغربية على الثقافة الإسلامية قد خلقت ما يسمى بفساد الحياة الثقافية طوال القرن العشرين، وخاصة بعد أن تصدر أتباع الثقافة الغربية ميادين التعليم والفكر والأدب والسياسة والاقتصاد.. لقد نبث صراع عنيف بين أنصار كل من الثقافتين، أسفر عن حالة الفصام، وعن تدهور اللغة القومية، وضعف الأدب، والخلل

(١) مجلة الأدب الإسلامي - العدد السادس عشر (ص ٢٨ - ٣٦) ملخصاً.

(٢) «أباطيل وأسمار» (ص ١٠) مطبعة المدني.

في شتى نواحي الحياة الاجتماعية إنه صراع بين حضارتين مختلفتين في جذورهما أشد الاختلاف.. إحداهما كانت «غافية» فقامت «تمطى» وتطرد الفتور عن أعضائها ومفاصلها، وأخراهما «يقظة» تهب حذرة، وتتأهب للسطو على «الغافية» بالبغي والعدوان والقوة والبطش والضراوة وحب الغلبة وبسط السلطان.

ولم يتعب «محمود محمد شاكر» من تكرار الحديث في هذه النقطة، فقد أشار إليه وتناوله في أكثر من كتاب من كتبه، حيث نعى على الحياة الثقافية فسادها وسطحيتها وضحالتها، وتسلب المستبدين من خدام الثقافة الغربية على مقدرات الثقافة الإسلامية والعقل الإسلامي، ويمكن الرجوع إلى ما كتبه تحت عنوان «لحمة من فساد حياتنا الأدبية» في الجزء الأول من كتابه «المتنبى» ليجد تفصيلاً وإسهاباً حول هذه النقطة يتناول جوانب الفساد، وخاصة ما كان على يد «دنلوب» في نظام التعليم ونظام البعثات العلمية، والاستشراق، والفنون الأدبية «المسرح والقصة على وجه الخصوص» حيث صار السطو والتقليد للغرب أمراً مألوفاً، ويؤكد أنه ما زال مستمراً بقوة إلى يومنا هذا، «وبالثرثرة واللجاجة في الصحف والمجلات، صارت هذه الظاهرة مألوفة لا غبار عليها، وزادها رسوخاً إثارة قضية كثيرة الضجيج محفوفة بالفاظ مبهمه مغرية تقبلها النفوس بلا ممانعة، وهي قضية «القديم» و«الجديد» و«التجديد» و«ثقافة العصر»! والنظر في حقيقة هذه القضية يفضي إلى شيئين ظاهرين: ميل ظاهر إلى رفض «القديم» والاستهانة به، دون أن يكون الرفض ملماً إماماً بحقيقة هذا «القديم» وميل سافر إلى الغلو في شأن «الجديد» دون أن يكون صاحبه متميزاً في نفسه تميزاً صحيحاً بأنه «جديد» جديداً نابغاً من نفسه، وصادراً عن ثقافة متكاملة متماسكة، بل كل ما يميزه أن الله قد يسر له الاطلاع على آداب وفنون وأفكار تعب أصحابها في الوصول إليها من خلال ثقافتهم المتماسكة المتكاملة!! وكفى الله المؤمنين

القتال!»<sup>(١)</sup>.

□ لقد أُلحِت مسألة فساد الحياة الأدبية على قلم (محمود محمد شاكر) إلحاحاً شديداً، وتوقف عندها كثيراً في كتابه «أباطيل وأسمار» بل إن آخر كتبه في مجال التحقيق، وهو «أسرار البلاغة» تضمن بياناً مهماً حول فساد الحياة الأدبية وأبعاده وأسبابه، تمنيت أن يقرأه المثقفون العرب المعاصرون، وخاصة من يعملون في حقل الدراسات الأدبية ليعرفوا مواطن الفساد كي يتجنبوها. . وأبرزها العبث بأصول ثقافتنا الإسلامية والكذب عليها، والاستهانة وقلة المبالاة والتحريض على تغيير التاريخ، إن أساتذتنا الكبار - كما يقول شاكر - استهانوا بما يقولون وتركوا ألسنتهم تطول وترعى في مرتع وخيم، واستهانتهم هذه لم تقتصر جنائتها على العلم أو الأدب، أو التاريخ، أو الدين بل جنت أيضاً على الحياة السياسية التي جاءت بعد ثورة مصر سنة ١٩١٩م، بل استشرت أيضاً حتى جنت على ما هو أعظم جنت على عامة الناس في حياتهم اليومية، وأعمالهم التي يزاولونها بأيديهم وعقولهم ليكسبوا بها رزق أيامهم<sup>(٢)</sup>.

□ وكما نرى فإن (محمود محمد شاكر) يقوم بدور المقاتل العنيد ضد الاستهانة بترائنا، وضد فساد الحياة الأدبية والثقافية، وهو مؤهل لذلك، مسلح بالعلم والوعي والنشأة. . ولا ريب أن الرجل أدرك واجبه تجاه أمته وفكرها وثقافتها، فواجه التيار الجارف الذي صنعه الحضارة الغازية المهيمنة بإيمان راسخ، وعقيدة ثابتة لا تعبأ بما تجلبه هذه المواجهة من مضاعفات أو مضايقات أو أزمات، وفي الوقت ذاته كان فاهماً لمعنى «التجديد» أو «التقدم»

(١) «المتنبي» لمحمود محمد شاكر (٣١/١).

(٢) «أسرار البلاغة» لعبدالقاهر الجرجاني - تحقيق محمود شاكر (ص ٢٥) من المقدمة - طبعة

الحقيقي الذي تصنعه الأمة من خلال معرفتها بذاتها، ومعرفتها بما لدى الآخرين، لبناء المستقبل المأمول.

ومن ثم فقد دخل إلى معاركه الأدبية بقلب جسور، وعقل واع، ومعرفة عميقة دون أن يهتز قلمه أو تزل قدمه مع أنه واجه خصوماً يملكون شهرة أو هيمنة تجعل من أي طرف يواجههم يتردد ألف مرة قبل أن يخط حرفاً واحداً ضدهم معركته مع لويس عوض في قضية «المعري»، كانت هذه المعركة أوسع المعارك مجالاً حيث دخلها عدد من الأطراف بالنيابة عن الطرف الأصلي مثل محمود مندور، ومحمد عودة، وكتاب مجلة «روز اليوسف» اليسارية، وكتاب من «الأهرام» و«الجمهورية» وسامي داود، ومحيي الدين محمد، وغالي شكري، وغيرهم فضلاً عن أطراف مؤيدة لشاكر، وضمت كتاب مجلتي «الرسالة» و«الثقافة» من أمثال عبده بدوي وعباس خضر ومحمد جلال كشك وعامر بحيري، وغيرهم. . . وكان لهذه المعركة أثر واسع المدى بحكم ظروف الفترة التي جرت فيها.

بيد أن معركة «المعري» كانت في أغلب جوانبها قضية عامة، تمس كيان الأمة وواقعها ومستقبلها، ومع أن الطرف المثير للمعركة لم يرد على ما وجه إليه من نقد وتصويب، واستعلى على المواجهة العلمية والنقاش الفكري، إلا أن المعركة بذت في زمانها تخوضها الأصالة ضد استباحة الأمة وهيمنة طلائع الثقافة الغربية على مقدرات الثقافة العربية.

□ ومن المفارقات أن هناك من فسر استعلاء (لويس عوض) الطرف المثير للمعركة على الرد والمواجهة والنقاش، بأنه يرى أن من يتقدونه ويصوبون أخطاه وخطاياهم أقل منه، وليسوا في قامته العلمية والفكرية حتى لو كان أبرزهم (محمود محمد شاكر)<sup>(١)</sup>، وقد حاول لويس أن يوحي بأنه ليس في

(١) «لويس عوض ومعاركه الأدبية» لنسيم مجلي (ص ٥) وهو يقطر حقداً على الإسلام.

معركة مع أحد، ولكنه لم يجد مفرّاً إلا أن يردّ، ليس بالعلم والمنطق والحجة، ولكن بالسب والتحريض والسخرية والتهكم في كتاب ألفه خصيصاً لذلك بعنوان «المحاورات الجديدة» ويحمل عنواناً فرعياً هو «دليل الرجل الذكي إلى الرجعية والتقدمية» وغيرهما من المذاهب الفكرية، وقد صور فيه خصومه بصورة كاريكاتورية تحقق السخرية منهم والتهكم عليهم من خلال أقنعة مسرحية».

وقد بدأت المعركة مع لويس عوض عندما أخذ ينشر في «الأهرام» مجموعة من المقالات تحت عنوان «على هامش الغفران» عام ١٩٦٤م، ملأها بالخلط والتدليس والتزوير، وكانت الطامة الكبرى عندما نشر في مقدمة مقالاته بالأهرام بعض أبيات «المعري» بخط النسخ محفورة على الزنك، خطأ على النحو التالي:

صليتُ جمرَةَ الهجيرِ نهاراً

ثم باتتُ تَغصُّ بالصُّلبانِ

«سقط الزند في وصف حلب».

أعبَادُ المسيحِ يخافُ صجبي

ونحنُ عبيدُ من خلقِ المسيحَا؟

«سقط الزند في الحروب الصليبية».

البيت الأول ليس صحيحاً كما أورده لويس عوض وشكله.

والبيت الثاني صحيح ولكنه لم يرد في الحروب الصليبية كما زعم لويس عوض.

وكان حربياً بالمجتمع الأدبي أن ينهض ليردّ الرجل عن شططه وغلوه، وتورطه في التعصب الطائفي الذي بدأ مستفزاً لكل الناس العقلاء حتى الذين يتمتعون بالصبر الجميل، والحلم إلى أقصى مدى!

لم تعد القضية بحثاً أدبياً حول التأثير والتأثر بين الأدب العربي والآداب الأوربية.. ولكنها تجاوزت إلى محاولة فرض النموذج الغربي وتأكيد هيمنته من خلال تزوير التاريخ وخلط الأوراق والتدليس على الناس من خلال منهج قاصر ومعيب.

وقبل أن نشير إلى بعض ما قاله (محمود محمد شاكر) فإن البيت الأول يأتي صحيحاً هكذا:

صلبت جمرة الهجير نهراً

ثم باتت تَغصُّ بالصليان

الفعل: تَغصُّ، بمعنى تمتلئ وتشرق، والصليان - بالياء المثناة - نبات ترعاه الإبل، وتسيغته إذا كان رطباً وتشرق به «أي تغص» إذا كان يابساً، إذا «الصليان» بالياء المثناة، وليست الصليان بالباء المفردة كما ذهب لويش. أما البيت الثاني الذي ذكر لويش أنه ورد في الحروب الصليبية، فقد كان ضمن قصيدة للمعري يمدح بها «الشريف العلوي» بعد أن أرسل إلى أبي العلاء أبياتاً أولها:

بعادك أسهر الجفن القريحاً

ودارك لاتي إلا نزوحاً

وإذا عرفنا أن المعري مات قبل بداية الحروب الصليبية بنحو أربعين عاماً على الأقل، فإن المسألة لدى لويش عوض تخرج عن مجال البحث العلمي المجرد، إلى مجال آخر ليس علمياً وليس مجرداً، وهو مجال التعصب الطائفي، والدعاية الفجة لأعداء الأمة<sup>(١)</sup>.

(١) انظر «لويش عوض» - الأسطورة والحقيقة» لـ حلمي القاعود (ص ١١٨) وما بعدها - دار الاعتصام.

أيضاً فإن لويس عوض قام بتفسير أحد الآيات التي وردت في قصيدة أبي العلاء «النونية» يقول فيه:

فإذا الأرض، وهي غيراء صارت

من دم الطعن وردة كالدهان

فقد جعل لويس الصفة «وردة» اسماً، وفسرها على هواه، حيث قال: والمعري نفسه ينسج على صورة الوردة في سقط الزند، ويجعلها في الأرض لا في السماء، يعني كما في سورة «الرحمن» وكما في دانتى الذي أخذ عنهما «الوردة السماوية» (روزا مسكيتا)!! في حين أن المعري يقول: إن الطعن والقتل قد استمر فسالت الدماء حتى غشت الأرض، فصارت أرض الميدان بالدماء حمراء كالأديم الأحمر المشرق<sup>(١)</sup>.

□ وهذه الأخطاء المقصودة وغيرها تدل على أن (لويس عوض) يفتقد أبسط مبادئ الأمانة العلمية، ويفتقر إلى منهج البحث العلمي الدقيق، وهو ما توقف عنده (محمود محمد شاكر) طويلاً، وكشفه بوضوح عندما تبين أن الرجل لم يرجع في كلامه عن أبي العلاء إلى مرجع أصيل واحد يتعلق بشعر أبي العلاء أو حياته أو تفسير القرآن الكريم أو الأسماء الواردة في كلامه، فوقع في التخليط والتلفيق، ويستحسن أن ننقل هنا ما قاله (محمود محمد شاكر) على طوله، حيث يلخص أخطاء لويس عوض العلمية والفكرية يقول:

«.. هذا الرجل الذي طلع علينا في طيلسان وجلاجل، قد ادعى منهجاً كمنهج الأساتذة الجامعيين سلكه في دراسة رسالة الغفران، وتاريخ

(١) «أباطيل وأسما» (ص ١٠٣) وما بعدها، وقد حذف لويس عوض البيتين اللذين جعلهما صليبيين عندما نشر كتابه «على هامش الغفران» عن دار الهلال عام ١٩٦٦م.

شيخ المعرة، فحاكمته إلى أوائل ما يعرف الطلاب الصغار عن المنهج، فاتضح أنه يجهل منهج الدراسات الأدبية جهلاً تاماً، وكان هذا حسبي وحسب صحيفة الأهرام.

ولكنني لم أقنع بذلك حتى أبرئ ذمتي، فكشفت عن أكبر خطيئة لا تغتفر لطالب صغير مبتدئ، وهي العجلة في قراءة النصوص، فأثبت أنه نقل نصاً من كتاب واحد هو كتاب الدكتور طه حسين، لم يقرأ قط في غير هذا الكتاب، ومع ذلك فهو إنما قرأ أسطراً كالملهوف وترك ما بعدها من الأسطر، وهي التي فيها نقد الدكتور طه لهذا النص نفسه، وكان من الغثاثة والادعاء أنه استخراج من هذا النص الفاسد المستحيل المعنى أحكاماً ألقاها للناس كأنها حقيقة مفروغ منها، وهذا غش فاضح وعبث. وكان هذا حسبي وحسب صحيفة الأهرام.

ولكنني لم أقنع بذلك فأبرأت ذمتي أيضاً ببرهان قاطع على أن هذا الرجل قد ادعى في كلامه أنه قرأ كتباً بأعيانها، وهو في الحقيقة خطاف جريء يتكئ على كتاب الدكتور طه وحده بلا بصر ولا فهم، فمن أجل ذلك أخذته بادعائه ومخرقته، حتى أكشف للناس أنه لم يقرأ شيئاً مما ذكر من الكتب ولا رآها ولا عرف ما هي ولا من أصحابها، وصدقته في ادعائه الكاذب ليكون ذلك أشنع له؛ لأنه يكون عندئذ قد قرأ نصاً لم يعرف معناه، ولم يعرف كيف يدرسه طالب جامعي مبتدئ ضعيف، وكان هذا أيضاً حسبي وحسب صحيفة الأهرام.

ولكنني لم أقنع بذلك فأبرأت ذمتي مرة ثالثة، بالدلالة الحاسمة على أن هذا الذي كتب ما كتب عن شيخ المعرة لم يقرأ شيئاً من آثار شيخ المعرة، وبخاصة شعر سقط الزند، وهو الشعر الذي يتعلق بالخبر الذي ادعى متنفحاً أنه قرأه فهو لم يفهم إذن منه حرفاً على وجه يليق بمبتدئ

جامعي، وكان هذا حسبي وحسب صحيفة الأهرام. ولكنني لم أقنع بذلك حتى أبرأت ذمتي مرة رابعة، وذلك حيث زعم بمخرقته أنه جاء يعرف الناس بحقيقة شيخ المعرفة، وحقيقة تاريخه، فذكر أكاذيب وأوهاماً لا أصل لها إلا في خيالاته وسماديره، فكشفت بلا ريبة عن أن هذا الدعي لم يقرأ كتاباً واحداً في ترجمة شيخ المعرفة، ومع ذلك فهو يأتي بلا خجل، ولا حياء فيذكر كذباً صراحاً مناقضاً للمعقول من حياة الشيخ ومن حياة أسرته، ومن حياة أمتة التي عاش فيها، وكان هذا هو حسبي وحسب صحيفة الأهرام.

ولكنني لم أقنع حتى أبرأت ذمتي مرة خامسة، بدلائل قاطعة على أن هذا الرجل الذي يدارس نصاً عربياً من أعظم النصوص لا يملك أي إحساس أدبي، بأي نص يقرؤه، ولو ظل يكتب في الأدب عشرات المجلدات، وكان هذا حسبي وحسب صحيفة الأهرام.

ولكنني لم أقنع بذلك، حتى أبرأت ذمتي مرة سادسة فبينت جهل هذا الرجل وادعاءه ببرهان فاصل من نص كلامه هو في صفة نفسه، إذ قال: إن إحساس لويس عوض باللغة العربية ضعيف جداً، وأجنبي جداً، ومع ذلك فهو يعتمد إلى النصوص الأدبية في لغة العرب فيدرسها بمخرقة شنيعة، وبلا حياء ولا يقنع بهذا، بل ينتهي به ما أطبق عليه من الهوس والجرأة، فيعمد إلى آية من القرآن الكريم العظيم، فيفسرها بغباوة وجهل راسخ، ثم لا يستحي فيدعي نسبة ذلك إلى كتب المفسرين المسلمين، موهماً أنه لا يفهم، ويزعم أن الرجل الذي يدرسه قد جاء في شعره بألفاظ هذه الآية، بالمعنى الذي يفسره هو<sup>(١)</sup>.

(١) «أباطيل وأسما» (ص ١٣٦ - ١٣٩).

ولا شك أن هذا الملخص لأخطاء لويس عوض وخطاياه يكشف عن أهمية المعركة التي احتشد لها شاكر على مدى خمس وعشرين مقالة طويلة نشرت في مجلة «الرسالة» على مدى عامي ١٩٦٤، ١٩٦٥م وانتهت بإغلاقها مع معظم المجلات التي كانت تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي آنذ، وانتهت أيضاً بإيداع الرجل السجن لأكثر من سنتين، خرج بعدهما ليجمع هذه المقالات في كتابه «أباطيل وأسمار» مضيئاً إليها مقالة قصيرة ضمنها بعض أبيات المعري الدالة على عمق المحنة التي تعرض لها على المستوى الشخصي، وتعرض لها الأمة على المستوى الفكري والثقافي والحضاري<sup>(١)</sup>.

وكما رأينا في هذا الملخص، فإن لويس عوض حين تجرأ على تناول «رسالة الغفران» ليزعم أن المعري قد تأثر بالآداب الأوربية القديمة، لم يستخدم منهجاً صحيحاً، ولم يتسلح بمعرفة جيدة، ولم يدخل إلى الموضوع بتجرد الباحث المنصف، ولكنه كان مقصراً في العناصر كافة اللهم إلا تعصبه للحضارة الأوربية ومفرداتها العنصرية.. ومن ثم، فقد امتدت المعركة لتتجاوز المعري إلى قضايا أخرى عديدة تخص الواقع الثقافي العربي المعاصر

(١) يقول الشيخ محمود شاكر في مقالته القصيرة «السادسة والعشرين» وكانت بعنوان «ثم غلقت الأبواب» وقد حذفت من الطبعة المصرية لكتاب «أباطيل وأسمار» وقد أثبتتها حلمي القاعود في كتابه «لويس عوض.. الأسطورة والحقيقة» (ص ٢٩٥) في الثالث من جمادى الآخرة سنة ١٣٨٥ (٣٠ أغسطس سنة ١٩٦٥)، وأحاطت بي الأسوار، وأظلمت الدنيا، وسمعت، ورأيت، وقزعت وتقرزت.. وكان ما كان.

وعلمت، حتى ما أسائل واحداً  
عن علم واحدة لكي أزدادها  
وتسليت عن كل ما ألقى بقول شيخ المعرفة:  
ويسوسون الأمور بغير عقل  
فأف من الحياة وأف مني  
فينفذ أمرهم ويقال: ساسة  
ومن زمن رئاسته حساسة

أو بمعنى آخر تخصص الصراع القائم بين حضارة الأمة المستباحة، والحضارة الغازية القاهرة.. وهو ما ألح عليه شاكر في مواضع عديدة أشرنا إلى بعضها من قبل وأكد عليه في مقدمة الكتاب الذي حمل مقالاته في الرسالة، حيث قال: «وقد سرت في هذه الفصول المتشعبة المعاني (يشير إلى مقالات الكتاب) سيرة واحدة، فضمنت جميعها باباً أو أبواباً من النظر إلى حقيقة الصراع الذي دار، ولم يزل يدور على أرضنا وفي عقولنا، وفي ضمير أنفسنا، وأشرت في مواضع كثيرة إلى أن هذا الصراع صراع بين حضارتين مختلفتين في جذورهما أشد الاختلاف: حضارة طال عليها الزمن فغفت غفوة آمن مستريح لا يفزعه شيء، وحضارة واتاها الزمن فهبت يقظة متلפתة جريئة لا تأمن أحداً ولا تطمئن إليه..».

□ ثم أضاف بعد حديث عن بداية الصراع الحديث وطبيعته وأساليبه «الجوش - التجارة - المبشرين»:

«وأطبقت على رقعة العالم العربي والعالم الإسلامي ضبابة كثيفة، ووطئ عليها تاريخ يسحق القوى وينسفها نسفاً.. وكانت قصة طويلة متمادية، تقطر دمًا وغدرًا وخيانة، وترشح مكرًا وخبثًا وخسة وفضاظة».

□ ويستطرد محمود محمد شاكر، في بيان أن الثقافة والأدب والفكر من أخطر ميادين هذا الصراع، ويزيده خطورة أن الذين تولوا كبره والذين ورثوهم من خلفهم رجال منا، من بني جلدتنا، من أنفسنا، ينطقون بلساننا، وينظرون بأعيننا، ويسرون بيننا آمنين بميثاق الأخوة في الأرض أو في الدين، أو في اللغة، أو في الجنس..<sup>(١)</sup>.

□ وهكذا يتبين لنا أن المعركة تجاوزت مسألة تزوير أبيات المعري، التي

(١) «أباطيل وأسما» (١١ - ١٢).

أشرنا إليها من قبل لويس عوض، وتعمره أن يوظف هذا التزوير لإشباع ميله إلى التعصب، ورغبته في الإعلاء من شأن العالم الصليبي، وصارت القضية الكبرى هي الصراع بين الحضارتين، الحضارة الغافية «حضارة الإسلام» و«الحضارة اليقظة الصليبية» وتعدد أساليب الصراع وميادينه..

لقد وقف إلى جانب محمود محمد شاكر عدد كبير من الكتاب، وخاصة في مجلتي «الرسالة» و«الثقافة» وقد أسهموا في كشف أخطاء لويس عوض وخطاياهم.. ومن ناحية أخرى فقد وجه لويس عملية كشف الأخطاء والخطايا بطريق غير مباشر عن طريق بعض أصدقائه وتلاميذه ومعظمهم من اليساريين، وقد تولوا الدفاع عنه، وتحويل المسألة إلى صراع سياسي بين الرجعية والتقدمية أو بين أعداء النظام من الرجعيين «ويمثلهم شاكر ومن معه» ومؤيدي النظام من الاشتراكيين التقدميين، وقد برز من هؤلاء كما سبقنا الإشارة محمد مندور، ومحمد عودة، ومحيي الدين محمد، وغالي شكري، وكتاب مجلة «روز اليوسف» وصحيفتي «الأهرام» و«الجمهورية» وقام «لويس عوض» بعد أن سكنت العاصفة، وأغلقت المجلات، ودخل شاكر وآخرون السجن بإعلان بهجته واحتفائه بما يسميه «معجزة صيف ١٩٦٥م» (يقصد إغلاق المجلات وسجن الخصوم) ومطالبة الكتاب والفنانين والمفكرين بمقاتلة الرجعية وأفكارها، بعد أن اتهمهم بالتقصير أو «إنهم كانوا يعانون أزمة نفسية جماعية ببلتتهم وأخرجت زمامهم من أيديهم»<sup>(١)</sup>.

□ ثم إن (لويس عوض) أفرغ ما في نفسه بالسب والقذف في هؤلاء الرجعيين من خلال كتابه «المحاورات الجديدة» الذي سبقنا الإشارة إليه، وللأسف فإنه لم يتخذ منهجاً علمياً أو موضوعياً للرد على أخطائه وخطاياهم،

بل إنه تجاهلها تماماً وراح يسخر من الرجعيين والمتمسكين بالتراث ويتهكم عليهم ويصورهم تصويراً كاريكاتيرياً بارداً. . وكان حرصه الأول في كتابه على التحريض ضد هؤلاء الرجعيين من عينة قوله:

« . . الميثاق (بيان أصدرته الحكومة وجعلته مشروعاً للعمل القومي) نادى بالتقدمية والنظر إلى الأمام ومجلات وزارة الثقافة - يقصد «الرسالة» و«الثقافة» وغيرهما - نادت بالرجعية وعبادة السلف. . الميثاق نادى بمساواة المرأة بالرجل وبتحرير المرأة من أغلالها ومجلات وزارة الثقافة نادت بانحطاط المرأة وبضرورة اعتقالها في الحريم. . الميثاق نادى بالاشتراكية العلمية ومجلات وزارة الثقافة نادت بالاشتراكية البورقبيية. . الميثاق مجد رفاة الطهطاوي ولطفي السيد، وفلسفة الأخذ والعطاء مع الحضارات الأخرى، ومجلات وزارة الثقافة مجدت إغلاق النوافذ وتحسرت على انسلاخ مصر من الامبراطورية العثمانية. . الميثاق دعا لتنظيم الأسرة كجزء من برنامج التنمية ومجلات وزارة الثقافة كافحت لتنظيم الأسرة. . إلخ»<sup>(١)</sup> .

□ وعلى هذا النحو يمضي لويس عوض في توجيه التهم ضدها وضد من يحررونها ممن يسميهم بالرجعيين، دون أن يشير أدنى إشارة إلى خطأ واحد أو خطيئة واحدة مما اقترفه في كتابه «على هامش الغفران» فيرد أو يعلل أو يصحح!

□ ويقول الدكتور حلمي القاعود أيضاً:

أما معركة «المعري» فكانت معركة العصر الأدبية والفكرية بلا جدال، إذ إن الوقت الذي أثيرت فيه المعركة كان يشير إلى عدم التكافؤ بين طرفي المعركة، فالطرف الذي يمثله شاكر، كان مطلوباً من أطراف أخرى داخلية

(١) المحاورات الجديدة أو «دليل الرجل الذكي إلى الرجعية والتقدمية وغيرهما من المذاهب الفكرية» للويس عوض - (ص ١٩) وما بعدها - الكتاب الذهبي «روز اليوسف» .

وخارجية.. وكان وصمه بالرجعية وعداء الاشتراكية وما أشبه مسألة فوقية تريدها السلطات المحلية والقوى الأجنبية في آن. أما الطرف الثاني الذي يمثله (لويس عوض) فهو الطرف المدلل لدى السلطة، ولدى القوى الأجنبية جميعاً، فهو داعية للقضاء على هوية الأمة وموارثها، وداعية إلى اللحاق بالآخر الغربي وقيمه ومثله وقد عبر عن ذلك بوضوح لإخفاء بعده في سيرته الذاتية التي صدرت قبيل وفاته بعنوان «أوراق العمر» (١٩٨٩م) .. وقد أدى في فترة الستينيات دوراً جيداً كوفئ عليه بتعيينه «مستشاراً ثقافياً» للأهرام، وهي أول مرة ينشأ فيها مثل ذلك المنصب الرفيع في تلك الجريدة العريقة.. فضلاً عن اكتسابه ما يشبه الحصانة داخل «الأهرام» وهيمنته على بقية الصحف والمجلات الحكومية.. أما الطرف الأول. فقد كانت مكافأته السجن، وإغلاق المجلات التي كانت تصدرها وزارة الثقافة، ومحاصرة الأقلام التي كشفت الأخطاء والخطايا لدى لويس عوض..

بيد أن النتائج النهائية لهذه المعركة كانت بلا ريب في صالح الطرف المهيزع الجناح، إذ أن المجتمع الأدبي بعد نحو ثلاثين سنة تقريباً من السجال، أسقط لويس عوض وما يمثله، واعترف بأهمية الدور الذي قام به محمود محمد شاكر في مجال الدفاع عن هوية الأمة وتراثها، ولا أدل على ذلك من تدفق المشاعر الفياضة لدى مثقفي الأمة وأفرادها الذين لا يملكون سلطة ولا هيمنة، تجاه (محمود محمد شاكر) بالتقدير والعرفان وافتقاده بعد رحيله حارساً على اللغة وأدبها، والدين ومعطيته.. مما يعني أن الممارك الأدبية التي خاضها شاكر - كانت كما قال - صراعاً بين حضارتين، وليست مجرد سجال بين كاتبين أو أكثر في قضية أدبية أو فكرية تنتهي بالفراغ من كتابتها. ولم يكن مستغرباً أن يقف الفريق الموالي للغرب من وراء لويس عوض، وأن تقف الأمة وراء محمود محمد شاكر؛ لأنه بالنسبة لها رمز الاستقلال والحرية والأمل، مهما ادلهمت الظلمات وتكاثرت النكبات

واشتدت المحن!

□ رحمك الله يا شيخ العربية:

قد جئت في زمن ضاعت مكارمه

وحرمة اللغة الغراء تُسْتَلَبُ

فكنت سداً منيعاً دون حوزتها

من أن يغير عليها الخائنُ الدَّربُ

رُمتُ «الأباطيل والأسمار» تدحضها

فهتكتُ دونها الأستارُ والحُجُبُ

□ وفي حوار معه أجراه الدكتور نجم عبدالكريم<sup>(١)</sup> قال الشيخ محمود

شاكر:

«إن هذا الجيل الذي نراه منزوعاً من أصوله نزعاً كاملاً. . . الجيل الذي

نشأ في السنوات الأخيرة كله منزوع من أصوله نزعاً كاملاً. وأنه لا بقاء

لأمة. . . لا بقاء لأمة بغير حصيلتها الماضية! بغير هذا التيار المتدفق من القرون

الطويلة.

وأعني بالتيار المتدفق ذلك التيار الفكري واللغوي الذي يعيش به

الإنسان. . . الإنسان يعيش بلغته - فهذا الانفصال بين الماضي والحاضر قاطع

بأن كل طريق في الحياة الأدبية سوف ينقطع أيضاً.

□ كأنك بذلك تدق ناقوس الخطر؟

نعم. . . لا تستطيع أي أمة أن تعيش بغير تاريخها، والذي يريد أن يُنشئ

في هذا الزمن أمة أخرى عن طريق التوهم فهو مخطئ، فتأسيس أمة جديدة

(١) عن صحيفة الشرق الأوسط - العدد ٥٦٦٣ - الثلاثاء ٣١/٥/١٩٩٤، وجاء كاملاً بمجلة

الأدب الإسلامي - العدد السادس عشر (ص ٥٦ - ٦١).

عن طريق التوهيم ضرب من ضروب الخطأ، الأمم بلسانها فقط، الأمم بحركاتها الأدبية واللغوية فقط.. أما الأشياء الأخرى من الصناعة إلى كذا وكذا.. أو الآراء الاجتماعية وما شابه ذلك فهي زائلة ومتحولة، أو يمكن أن تتحول في أي وقت من الأوقات.

ولكن إذا تحوّل التاريخ فلا يمكن أن يبقى إنسان على صورة صحيحة في هذا الحياة.

□ وقال - رحمه الله - لما سئل عن موقفه من لويس عوض؟ قال:

«الذي دفعني لموقفني أنني وجدت شيئاً غريباً جداً كنت أراه مفرقاً ثم رأيته مجتمعاً.. وقد ذكرت ذلك في مقدمتي «أباطيل وأسمار» قلت: كيف تنبّهت إلى هذا فقد انفتحت عيناى على شيء مخيف، وهو أنني أرى اكتساحاً كاملاً مروراً بالزمن للعقل العربي والمصري.. وأنا أذكر مصر هذه المرة، وأقول: أن الخطر آت من مصر، وإنني أرى توجيهاً شديداً لمحق كل شيء يمكن أن يكون له صلة بالحياة الصحيحة للفكر الأدبي في المستقبل.

ومعنى هذا أن هذه المعركة ليست معركة أدبية، إنما هي معركة سياسية بمعنى أنهم يمتنعون الأمة مما يجب وينبغي أن تكون عليه وخاصة في مصر.. لأنني كما قلت لك اعتقد أن تاريخ الأمم هو تاريخ النفس الإنسانية في تعبيرها عن ذاتها، فإذا مُحِقَ هذا التعبير الحقيقي الصحيح، فقد انتهت الأمور، فالحرب من هذه الناحية إذن هي حرب الكيان السياسي لا الكيان الأدبي. إنما أنا أعتقد أن هذا الذي ذكرت اسمه في كلامك؛ لأنه لا يساوي شيئاً في التاريخ الأدبي الصحيح ولا فهم له ولا إدراك في أي شيء.. أنا لا أريد أن أذكر هذا الاسم لأنه ثقيل عليّ، وهو ثقيل عليّ منذ زمن قديم.. وقد ذكرت هذه القصة.. فأنا أقرأه منذ كان صغيراً، وأراه وأعرفه وأعرف

كيف نشأ، وكيف نشأ أستاذه<sup>(١)</sup> أيضاً، وكيف تكون أستاذه، ومن يليه، أعلمهم وأعرفهم جميعاً. لو كانت لنا أمة حقيقية لفهمت هذه الأشياء؛ لأن الأمم الأخرى تفهم كيف تُحصن نفسها من سموم هذا وأشباهه.

هذا الكلام قيل على لسان من هم أكبر من هذا الذي لا أريد ذكر اسمه؛ لأنه تابع بسيط مبتذل مبهور في كتب من سبقوه من اليهود وأمثاله.

□ وقال - رحمه الله -:

«أحب أن أقول لكل امرئ أنه مسئول أمام هذه الأمة التاريخية العظيمة المسماة بالأمة العربية مسئولية حقيقية. وأن على كل امرئ أن يبصر طريقه بوضوح قبل أن يفوت الوقت. فإن الأمم ليست بالصورة التي تتصورها. الأمم تفنى وتزول، وأنتم ترون بأعينكم أنكم تُعاملون في العالم الآن معاملة شاذة جداً في تاريخ البشر، ولا يمكن أن يحدث في التاريخ القديم والمعاصر ما حدث لكم، لقد وصلت الأمور في بلادنا أننا طردنا من بيوتنا وشردنا من أوطاننا وانتهكت كل الحقوق في بلادنا دون أن يتحرك في العالم ضمير إنسان، ودون أن يتحرك حتى الضمير العربي.

واللغة العربية من أشرف اللغات بين العالم، فاللسان هو حياة الأمة لا حياة لأمة بغير لسان!، واللسان كالنهر الجارف يجمع كل محصول الأمة، وهو كالغيث منهمر لآلاف القرون، ليتكون منه هذا النهر العظيم. فإذا انقطع هذا النهر فقد وقعنا في أكبر خيبة» ١. هـ.

□ قال الدكتور حيدر الغدير في قصيدته «الصقر»<sup>(٢)</sup>: «كان محمود محمد شاكر أمة وحده.. فهو شيخ العربية، وعاشق العروبة، وحارس

(١) عدو الإسلام.. القزم سلامة موسى.

(٢) مجلة الأدب الإسلامي - العدد السادس عشر (ص ٦٢ - ٦٤).

التراث، وفارس الأصالة، جمع إلى غيرة المسلم عزة العربي . . . غفر الله له  
 ورحمه وأنزله منازل الأبرار والصالحين .  
 صقر على شم الرعان يُحلّقُ  
 ومداه مغرب شمسها والمشرقُ  
 والنجم والأفلاك في تطوافها  
 والروح في أسرارها والمطلقُ  
 نسجته من أرض الجزيرة ريحها  
 ونخيلها وخيولها والأينقُ  
 وجبالها ورمالها وجلالها  
 وحياء والآي الزواهر تزدهي  
 وبيانها العذب الشهي المونقُ  
 فأتى أبرّ رجالها وأعزهم  
 فيه وتهدي العالمين وتعبقُ  
 وأحبّ ما يرجو الفخار ويعشقُ

باق عطاؤك في الزمان مفاخرًا  
 كالنيرات زواهرًا تتألق  
 ستظل للفصحى وإن كره العدا  
 العلم يروي والصوارم تبرق  
 أما عدك ففي غد راياتهم  
 تطوى كما يطوى الظلام وتمحق  
 فيقول راوٍ عارهم وشنارهم  
 انظر إليهم لا يقين ولا بقوا

\*\*\*

وهبتك آيات الفصاحة سرها  
 فإذا بك القلم البديع الشيق  
 والضاد أنت نجيبها ونجيبها  
 وعليمها وكليمها المتذوق

والحارس الشاكي يصون ذمارها  
 ويصول إن حمي الوطيس ويهرق  
 غضباً لها وحمية مبرورة  
 وجذاه إعصار يطوف ويحرق  
 فإذا انتصفت لها رجعت مكللاً  
 بالنصر وهو مزغرد ومصفق  
 ورجعت بالرضوان أنك صنتها  
 أما الجبين فبالجلال مطوق  
 وعلى محياك الأبى وضاعة  
 تسري فيأتلق الحجا والمفرق  
 والضاد تهديك الثناء متوجاً  
 والمسك أكرم طيبه والزنبق

\*\*\*

ولقد عرفتك في فؤادك حُرقة  
 نَزَّتْ جراحاتُ تفيضُ وتَفْهَقُ  
 أدمنت حزنك إذ رثيت لأمة  
 هي منك قلبك في الجوانح يخفق  
 وجعلت همك أن تكون بشيرها  
 ونذيرها العريان وهو المشفق  
 والسيفَ سُلِّ فما يعود لغمده  
 والحادي الهادي يقول ويصدق

وجعلتها عرضاً يسان ويفتدى  
 بالغاليات الطيبات ويصدق  
 عاينتها فوجدتها مصروفة  
 عن رشدها والجهل شر مطبق  
 فهتفت من قلب يكابر لوعة  
 والحزن عاصفة ونار تحرق  
 أبناء إسماعيل أنتم أمة  
 في التيه مرهقة الخطا تتمزق  
 أنتم أسارى الجهل يدعوكم له  
 لسن يقول ومدع يتشدد  
 أو سامري في الجهالة خابط  
 يسعى به حقد قديم أزرق  
 أو مستكين قاده مستغرب  
 أو قاده لضلالة مستشرق  
 تتراكمون وراءه وشوروه  
 فيكم أشد من الزعاف وأرهق

\*\*\*

ولقد رحلت وفي فؤادك غصة  
 والعين يغشاها الدهول المرهق  
 أبصرت أمتك الكريمة قصعة  
 وحمى مباحاً في المذلة يغرق

عبثت بها أدواؤها وبلاؤها  
 فيها ومنها غاشيات تطرق  
 والمسلمون من الهوان كأنهم  
 دَمَنْ صَوَادٌ بِالْبَلْبَلِ تَمَزَّقُ  
 «نتن» يعيث بهم ويعلم أنهم  
 لن يثأروا مهما رغبوا وتشدقوا  
 يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ غَائِبِينَ فَإِنْ أَتَوْا  
 لم يغضبوا أو يأنفوا أو ينطقوا

\*\*\*

لا أبا فهر فأمّةُ أحمد  
 ستظل كالشمس المنيرة تشرق  
 إن الذي حفظ الكتاب وصانه  
 نوراً يفيض وجدولاً يترقق  
 سيظل يحفظها ويعلي شأنها  
 ويقيّل عشرة أمرها ويوفّق  
 منها اللياذ به ومنه حفظها  
 والعهد منه ومنه جلّ الوثق  
 ألاّ تموت وإن كبت في سيرها  
 بل تستجيش ومن جديد تخلق  
 فتعود بالبعث الجديد فتية  
 كالغاب من بعد اليبوسة تورق

والله واق من يؤوب لأمره  
وهو الحفي بمن أتوه الأرفسق

\*\*\*

\* الدكتور محمد محمد حسين الحامي لحصوننا الداخلية يفضح التغريب  
وينذر قومه :

صرخات مدوية، ونقثات صادقة حاول صاحبها الدكتور محمد محمد حسين إيقاظ النائمين من سباتهم العميق، وتنبية الغافلين مما يحاك لهم من مخاطر.

□ يقول - رحمه الله - :

«إني رأيت الإلحاد والانحلال في هذه الأيام يشتعل ويسري سريان النار في يابس الحطب، ورأيت دعائه يستفحل أمرهم في كل مكان، ورأيت الناس مشغولين بالجدل والنقاش حول ما يثيرونه من موضوعات يسترون مآربهم الهدامة من ورائها تحت أسماء خلافة براءة، كالنهضة، والتحرر، والتطور، ومتابعة ركب الحياة، وهي موضوعات متنوعة تشمل الحياة في شتى نواحيها، يخترعونها ثم يهولون من شأنها ويكثرون من الأخذ والرد حولها حتى يلفتوا إليها أنظار الناس، وحتى ينشأ جيل جديد مرت أذنه منذ وعى على سماع المناقشات حول هذه الموضوعات، فيتوهم أنها مشكلات حقيقية لا بد لها من حل، ويتجه في أغلب الأحيان - كما جرت عادة الناس - إلى أنصاف الحلول التي ترضي الطرفين المتخاصمين حسب وهمه. والخاسر في حقيقة الأمر هو صاحب الحق. والريح كله للباطل وأصحابه.

□ ولا يزال أصحاب الباطل ماضين في اتخاذ هذا الأسلوب نفسه جيلاً من بعد جيل، يزحفون ويزحفون، حتى يسدوا على الناس كل سبيل للحق،

أو يفتح الله باباً من أبواب رحمته فيبعث عليهم من ينكل بهم ويقطع دابر ما يثرونه من فتن .

□ ولكن الجديد في أمر هؤلاء الدعاة أن شرهم لم يعد مقصوراً في هذه الأيام على الكلام، فقد انتقلوا من مرحلة الكلام إلى مرحلة العمل بعد أن نجحوا في التسرب إلى الحصون التي تحمي قيمنا، وأصبح كثير منهم في مناصب تمكنهم من أن يدسوا برامجهم وخططهم على المسؤولين من رؤسائهم وينفذوها في صمت، ودون أن يثيروا ضجة تلفت إليهم المعارضين .

□ ولهؤلاء المفسدين عصابة تشد أزهرهم وتشيد بهم وتنوّه بذكرهم وتحميهم من خصومهم وتقطع ما يهاجمون به مما ينبه الناس إلى شرهم عن كل وسائل النشر، فلا يصل إلى آذان الناس أو عيونهم شيء منه . وأنا حين أزعج أن هؤلاء الدعاة ينتمون إلى عصابة ذات خطر إنما أعني بالعصابة كل مدلولها وكل حرف من حروفها وكل مفهوم من مفاهيمها .

□ هذه العصابة قليلة العدد . ولا ترجع قوتها إلى كثرة عددها . ولكنها ترجع إلى تماسك أفرادها وتضامنهم، يساعد بعضهم بعضاً، ويحمي كبيرهم الصغير، ويمهد السابق منهم لللاحق، ويهيئ له فرص الظهور والترقي، بينما يتخلصون بمختلف الوسائل من الخصوم الذين يعارضونهم والذين يقفون في وجه خططهم . يحدث ذلك كله في الظلام وفي صمت . وقد لا يكون هناك تنظيم واحد معروف بعينه يضم الهدامين ودعاة الشر كلهم جميعاً، ولكن المهم في الأمر أنهم جميعاً، على اختلاف نزعاتهم وعلى تباين ساداتهم وشياطينهم، متعارفون متضامنون، والمتدبر لخططهم وتحركاتهم في إحكامها، وفي تناسقها، وفي وحدة أهدافها، وتشابه أساليبها في كثير من الأحيان، وفيما تستند إليه من نفوذ واسع، لا بد أن ينتهي إلى أن هناك هيئات منظمة تنظيمًا دقيقًا من وراء هذه الحركات، وأن بين هذه الهيئات قدرًا كبيرًا من

التفاهم واتفاق المصالح . وعصابة الهدّامين تستمد قوتها وخطورتها من هذا التنظيم من ناحية، ومن أنها مجهولة الرأس والحدود والأطراف والأساليب والأعوان من ناحية أخرى . وهذا التنظيم وهذه السرية هما مصدر قوة هذه العصابة التي لا تفترق عن عصابات السطو والإرهاب في شيء . فهي لا تعتمد في تنفيذ خططها على الإقناع شأن أصحاب الرأي، ولا على الكثرة شأن أصحاب (الديموقراطية) المزعومة، ولكنها تعتمد على العمل في الظلام وعلى البطش بالخصوم والتخلص من المعارضين ومؤازرة الأولياء والأصدقاء وتمكينهم من مقاليد السلطة . وهم يسلكون لذلك كل سبيل ويستغلون فيه كل وسيلة، وعلى رأس هذه الوسائل الصحافة والإذاعة والمنابر ودور النشر وشراء الذمم والتهديد بالفضائح .

□ ومن هذه الأساليب التي لا تحصى أسلوب مشهور معروف لم يعد يخفى على بصير، يُلقى أعضاء هذه العصابة شباكهم حول أصحاب النفوذ والسلطان ويدخلون إليهم من أقرب الأبواب إلى قلوبهم وأضعف الثغرات في نفوسهم، ثم يتظاهرون بالتفاني في حبهم والإخلاص في خدمتهم، فيلازمونهم ملازمة الظل، لا يغادرونهم طرفة عين، ويراقبون منهم الإشارة والبادرة، مراقبة الكلب الأمين لصاحبه، حتى يصبح التابع منهم لازمة من لوازم سيده ووهماً مسلطاً عليه لا يتخيل إمكان الاستغناء عنه، وبمرور الأيام تتحول هذه البطانة إلى سور ضخّم شاهق يحجب عن بصر صاحب النفوذ كل شيء عداه، فحيثما وجه البصر لا يرى إلا هذا السور، وتصبح هذه الدائرة الضيقة هي دنياه، لا يعرف شيئاً مما يجري وراءها في دنيا الناس، وعند ذلك يصبح صاحب النفوذ في حقيقة أمره سجيناً من حيث لا يدري، لأنه لا يرى إلا ما يسمحون له برؤيته، ولا يسمع إلا ما يسمحون له بسماعه وحسبك بهذا سجيناً، ثم ينتهي به الأمر إلى أن يصبح صنماً معبوداً كعجل

الكفار من الفراعنة، يحبس في الظلام، ولا يتفجع بعبادته وتقديسه إلا سدنته.

□ وأخطر ما في أمر هذه العصابة أن أفرادها يتمتعون بكل ما في حرب العصابات من مزايا. ومن أخطر هذه المزايا أن الجهاز الحكومي - وهو يشبه الجيش النظامي - لا يستطيع توجيه الضربة القاضية إليهم. لذلك كان من أنجح الأساليب في مكافحتهم أن تدرس خططهم وأساليبهم في الكيد والذس وينبه الناس إليها. عند ذلك ينكشف الستر عن الذين يستمدون قوتهم من العمل في الظلام، ويجدون أنفسهم وقد غمرتهم الأضواء وكشفت أوكارهم وسراديبيهم. ولا يجدون بدءاً من اللجوء إلى سلاحهم القديم الذي بدءوا به وهو سلاح الدعاية. وقد فشلوا فيه من قبل، وسيكون فشلهم في هذه المرة ساحقاً ماحقاً بعد افتضاح أمرهم؛ لأنهم يسبحون اليوم ضد تيار قوي غلاب، ترعاه عناية الله سبحانه، ويحفه توفيقه، ويمده مدده الذي لا ينفد وجنوده التي لا يعلمها إلا هو. ذلك هو تيار النهضة العربية واليقظة الإسلامية.

□ من أجل ذلك كتبت هذه الكلمات لمجلة الأزهر، ثم أعدت نشرها مجموعة في هذه الصفحات. كتبتها لألقي الأضواء على الذين يعملون في الظلام، وأكشف الستر عما يدبرون في الخفاء، ولأفضح دسائسهم التي يلقون عليها حججاً كثيفة من الرياء والنفاق، حين يندسون بين صفوف العاملين على بعث معالم شخصيتنا وإحياء شعائرتنا وأشعرتنا، يتظاهرون بالغيرة على إسلامنا وعلى عروبتنا، حين تنطوي ضمائرهم على فساد العقيدة وحين يعملون لحساب العدو الذي يستعبدنا ولحساب الصهيونية الهدامة التي لا تريد أن تبقي على بناء قديم. هؤلاء هم أخطر الأعداء، وهم أول ما ينبغي البدء به في تطهير الحصون وتنظيف الدار؛ لأن الأعداء والمارقين ظاهر

أمرهم لا يخفون، وهم خليقون أن ينفروا الناس، فهم كالمريض الظاهر يتحاشاه الناس ولا يقتربون منه. أما هؤلاء فهم كالمريض الذي لا يظهر المرض على بدنه، فالمخالطون لا يحتاطون لأنفسهم في مخالطته. وأكثر ما تتعرض الشعوب للخطر من هذا الفريق في أطوار ثورتها ونهضتها؛ لأنها في هذا الطور تمر في دور انسلاخ تحاول أن تظهر نفسها فيه من الأوضار ومن النقائص، فيلبس هذا الفريق من المنافقين والضالين والمضللين عليها أمرها، ويزينون لها الباطل زاعمين لها أنه هو سبيل النهضة، ويوهمونها أن كثيراً من عاداتها الصحيحة الأصيلة هي من أسباب تخلفها وضعفها، ويزجون بها فيما رسمته عصابتهم من قبل وما قدرته من طرق ومسالك.

كتبت هذه الصفحات حين كتبتها لكي أفصح هذا النفر من المفسدين وأنبه إلى ما انكشف لي من أهدافهم وأساليبهم التي خدعت بها أنا نفسي حيناً من الزمان مع المخدوعين، أسأل الله أن يغفر لي فيه ما سبق به اللسان والقلم.

وقد كان مصابي هذا في نفسي وفي تفكيري مما جعلني أقوى الناس إحساساً بالكارثة التي يتردى فيها ضحايا هؤلاء المفسدين، وأشدّهم رغبة في إنقاذهم منها، بالكشف عما خفي من أساليب الهدّامين وشراكتهم.

□ ومن الواضح أن هذه الصفحات لا تستقصي نشاط الهدّامين ولا تستوعب كل ميادينهم ولا تحصيها عدداً، ولكنها تقدم نماذج منها تكشف عن أساليبهم في الدس والتزييف والهدم والتخريب، وهي أساليب لا يقتصر شرها على بلد دون بلد، فهي تعم بلاد العرب، بل بلاد المسلمين، بل الشرق كله، يسقونه السم على حين نهضته حتى لا تصح له نهضة، وليقوده إلى الهاوية التي يوشك الغرب كله - شرقيه وغريبه - أن يتردى فيها. وسيعلم القارئ من بعد أن أصبح الصهيونية العالمية الهدامة التي تطمح في أن ترث

الأرض وتستعبد كل من عليها لليهود من وراء هذه الدعايات والدعوات .  
لذلك لم يكن من قصدي في هذه الصفحات أن أقنع الذين أنبه إلى  
خطورتهم، فأكثر هؤلاء دعاة وليسوا طلاب حق، لا يخرجهم من ضلالهم  
إلا أن يرزقهم الله الهداية، ويشرح صدورهم للإيمان، ولا حرج عن فضل  
الله ولا يأس من رحمته. ولكن أكثر قصدي في هذه الكلمات كان إلى  
الشباب خاصة، أنبههم إلى ما قد يخفى عليهم من حيل الهدامين وأساليبهم .  
وشيء آخر كان بين عيني أيضاً حين كتبت هذه الكلمات، وهو أن أقوم  
بواجب في عنقي نحو ولاية أمورنا، وأن أعينهم بالنصح فيما أعلم ابتغاء  
لثواب الله، وإبراء للذمة من عهدة لا تبرئني منها إلا هذه الكلمات .

ولست أبالي أن يكون المنتفعون بهذه الكلمات والذين يعونها حق  
الوعي قلة من الناس، بلى إنني لا أطمع في أكثر من ذلك. ولكنني أعلم أن  
الله سبحانه قد يجري خيراً كثيراً على يد نفر قليل إن أعان ووفق وبارك،  
وأنا أسأل الله العون والتوفيق، وأنا يبارك جهود المخلصين ممن يتتغون بعملهم  
وجهه الكريم»<sup>(١)</sup> اهـ .

### \* «حصوننا مهددة من داخلها» لزام على كل مسلم قراءته :

وهو كتاب جد خطير، أوضح فيه الدكتور محمد محمد حسين أن  
الدول لا تقوم بالمال والصناعة وحدهما، وتسقط الدول وتنحل وهي في قمة  
مجدها الصناعي والمال حين تفقد الخلق .

وأوضح - رحمه الله - أن المؤسسات التي تقوم على صيانة الدين واللغة  
هي بمثابة الحصون التي تسهر على حمايتنا وسلامتنا، وأن أخطر ما يكون

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» للدكتور محمد محمد حسين - مقدمة الطبعة الأولى  
(ص ١١ - ١٦) دار الرسالة - السعودية - الطبعة الثانية عشرة ١٩٩٣م .

الغزو إذا كان من داخل هذه الحصون والمعقل، وأن وزارة التربية والتعليم من أهم هذه المعقل لأنها تقوم على الثروة البشرية وهي أعلى الثروات.

□ قال - رحمه الله -:

ولا شك أن وزارات التربية والتعليم هي أهم هذه المعقل والحصون الساهرة على أمن الشعوب وكيانها؛ لأنها هي المؤتمنة على أئمن ما تملكه الأمة من كنوز، وهي الثروة البشرية بما تنطوي عليه من قوى مادية ومن ملكات عقلية وخلقية، ممثلة في رجال الغد الذين تشرف على تربيتهم، وهي ثروة تتضاءل إلى جانبها كل كنوز الأرض؛ لأن كنوز الأرض لا تساوي شيئاً بدونها. فالعقل هو الذي يستخرجها من مكائنها ويحيلها من مادة صماء جامدة إلى قوة حية منتجة، والخلق الديني هو الذي يدفع الناس إلى أعمال هذا العقل في الطريق الصحيح، وإلى بذل الجهد فيما وكل إليهم من أمور، أداءً للأمانة، وابتغاءً للعزة والسيادة وإعلاء الحق.

وقد أصبحت مطاعم أمريكا في هذه المنطقة وعداوتها لحماتها الذين يتصدون لحراستها ويتزعمون نهضتها مشهورة لا تخفى ولا تحتاج إلى تبيين. فاتصال القائمين على شؤون التربية والتعليم في هذه الأمة العربية بالمؤسسات الأمريكية، والتعاون معها في ترويج مبادئ وأساليب يقال إن المقصود بها هو رفع مستوى التعليم وإصلاح شؤون الجيل الجديد، أمر لا يصدق العقل ولا يتفق مع ما يبذلون من محاولات ظاهرة وخفية لابتلاع هذه الأمة والكيد لها. فالذين يشتركون في المؤتمرات الأمريكية، والذين يتعاونون مع دور النشر الأمريكية، وكلها يمول من مصادر مريبة، يسخرّون من عقولنا، ويخدعون أنفسهم إن زعموا أنهم يخدمون أمتهم بالاشتراك في هذه المؤسسات؛ لأن الأموال الأمريكية التي تنفق بسخاء يبلغ حد السقّة على هذه المؤتمرات وعلى هذه الدور لا يمكن أن تستهدف خير هذه الأمة ونفع أهلها.

□ وقد وقع بين يدي في هذه الأيام كتاب أصدرته الجامعة الأمريكية ببيروت في العام الماضي (يوليو ١٩٥٦)، يحتوي على محاضرات في نظم التربية، هي سجل لما دار في مؤتمر دعت إليه هذه الجامعة، واشترك فيه جماعة من كبار المسئولين عن التربية في مصر وفي سوريا والعراق والأردن ولبنان. وقد مثلت ثلاثة من هذه البلاد في ذلك المؤتمر الأمريكي بثلاثة وزراء سابقين للتربية والتعليم. فمثلت مصر بإسماعيل القباني، ومثلت العراق بعبد الحميد كاظم، ومثلت الأردن بأحمد طوقان، والأخيران من تلاميذ الجامعة الأمريكية الداعية لعقد هذا المؤتمر، وقد كان العضو الأردني يشغل عند عقد هذا المؤتمر منصب مستشار لشئون اللاجئين الفلسطينيين في منظمة الإغاثة الدولية. أما البلدان الباقيان - سوريا ولبنان - فقد مثلهما رجلان من كبار المسئولين عن التعليم وهما جميل صليبا عميد كلية التربية في الجامعة السورية، ونجيب صدقة المدير العام لوزارة التربية الوطنية والفنون في لبنان. وقد اشترك مع إسماعيل القباني في هذا المؤتمر عضو مصري آخر هو حامد عمار الأستاذ في معهد التربية العالي بجامعة عين شمس ورئيس قسم التدريب في المركز الدولي للتربية الأساسية في العالم العربي بسرس الليان.

□ وهذا المركز الدولي للتربية الأساسية في العالم العربي لا عمل له إلا (سلخ) الريف العربي من دينه وخلقه وعرويته، و(طبعه) بالطابع الأمريكي، وهو يتولى هذه المهمة إتماماً لما بذله الغرب من جهود في فرجة هذه المنطقة، بعد أن تبين المستشرقون الذين يبحثون في شئون هذا الشرق الإسلامي والعربي أن تأثير الفرنجة لم يتجاوز المدن؛ لأن كل الوسائل والأساليب التي استخدمها الغربيون في هذا الصدد من صحافة ودعاية ومؤسسات علمية أو اجتماعية وسينما وشراء للأقلام وللذمم وللرجال إلى آخر ما هنالك، كل ذلك لا يصل إلى الريف، ولا يتجاوز حدود المدن. فما الذي صنعتته أمريكا

لتلافي هذا النقص، والاحتياج لدخول الريف الذي عجز التبشير وعجزت الأساليب الاستعمارية العتيقة عن اقتحامه إلى ما قبل الحرب العالمية الأخيرة؟ اخترعت أمريكا تحت ستار (الدولية) وعن طريق (الأمم المتحدة) شيئاً اسمه «التربية الأساسية». وما هي التربية الأساسية؟ يقول الدكتور حامد عمار في بحثه الذي ألقاه في هذا المؤتمر الأمريكي: «التربية الأساسية منهج من مناهج الإصلاح الاجتماعي لرفع مستوى المعيشة يؤكد قيمة العملية التربوية وتغيير الأفكار والنزعات إلى جانب تغيير الأوضاع المادية (ص ٩٢) محاضرات في نظم التربية».

□ ويقول في موضع آخر: «تسعى التربية الأساسية إلى محاولة تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات، كما تسعى إلى تغيير في الأوضاع المادية في الدائرة التي تلتزمها. ويؤمن دعاة التربية الأساسية أن كل عمل أو مشروع مادي لا بد أن يسبقه ويصاحبه ويتبعه تغيير في تفكير الناس، وفي الاتجاهات الفكرية والنفسية، حتى يمكن أن يكون العمل منتجاً إنتاجاً كاملاً (ص ٨٥)».

□ وواضح أن تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات الذي أشار إليه الباحث يقوم على أسس غريبة خالصة، تروج باسم العلم - علم مزعوم لا يستقر له قرار ولا يقطع في ظاهره برأي يتفق عليه أصحاب الرأي، يسمونه «علم النفس» - وواضح أيضاً أن هذا «التغيير» - تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات - لا يبالي أن يخالف الإسلام وتعاليمه في الريف المسلم؛ لأن القائم على هذا (التغيير) ليس هو مشيخة الأزهر، ولكن القائم عليه هم مجموعة من (الخوارج) يختفون خلف الشخوص العربية التي تبدو للناظر وكأنها تتحرك بإرادتها، وواقع الأمر أنها لا إرادة لها، وأنها تسير في خطوط مرسومة، وحسب خطط مديرة قدرها أناس أقل ما يوصفون به أنهم لا

يبالون بالإسلام وتعاليمه، إن لم يكونوا معادين لها يعملون على محوها واستئصالها من نفوس الناس. ولهم في ذلك أساليب خبيثة يتسللون عن طريقها إلى قلوب أهل الريف السذج الغافلين. وسوف لا أصف لك أنا هذه الأساليب ولكنني سأدع العضو العربي المحترم في هذا المؤتمر الأمريكي يقدم لك صوراً منها بألفاظه كما جاءت في الكتاب الذي بين يدي.

□ فأول مراحل العمل في الريف هي «مرحلة التعرف»، (وهدفها أن يتحسس العامل الاجتماعي طريقه في القرية بصورة عامة وأن يألّفه الناس ويألّفهم. . . ومن المستحسن أن تكون هذه المرحلة من العمل مرحلة فيها شيء من الاسترخاء وأخذ الأمور بمأخذ غير محدد، إذ إن هذا الهدوء والاسترخاء ضروريان لتأسيس العلاقات الاجتماعية وتنميتها، وبخاصة إذا تذكرنا أن الفلاح سريعاً ما تأخذه الريّة ويتولاه الشك إذا تبين إلحاحاً من غريب عليه في أمر من الأمور. . . ثم إنه لا بد من التعرف على قادة القرية الطبيعيين الذين يعتبرون عناصر فعالة في تكوين الرأي العام والتأثير فيه. . . وليس من المهم أن يكون هؤلاء القادة من النوع الذي يرغب فيه المصلح، لكنه لا بد من الاعتراف بهم واستغلالهم».

«وإذا كان التعرف يتطلب الاتصال والزيارة ومبادلة الحديث فإن هذا شرط لازم، وليس بكاف في كثير من الأحيان. وربما كان القيام بعمل إنشائي سريع من أنجح الوسائل لكسب الثقة وتأسيس علاقة طيبة مع الأهليين. . . وقد تبين بالتجربة أن دق ظلمة مياه بالقرية، أو إصلاح خزان المياه بالجامع، أو مقاومة الآفات الحشرية في الزراعة، كان من أقوى العوامل التي وثقت الصلة بين أهل القرية وبين المشرفين على مختلف جوانب الخدمة الاجتماعية فيها. وأذكر أن زجاجات قطرة العيون كانت من أهم الوسائل التي اكتسبت بها أنسات المركز الدولي للتربية الأساسية ثقة نساء القرية (ص ٩٨ - ١٠٠)».

□ ويتكلم الدكتور حامد عمار بعد ذلك عن المرحلة الثانية وهي «مرحلة الدراسة والبحث» التي (يقوم فيها المشتغل بميدان التربية الأساسية أو الخدمة الاجتماعية بجمع المعلومات والبيانات اللازمة جمعاً منظماً، بحيث تكون معرفته لظروف القرية معرفة لا تقوم على مجرد الإحساس، بل على الاستقصاء للحقائق وتنظيمها، حتى يستعين بها في رسم خطته وتنفيذ برنامجه. . . ومن البحوث المفيدة أيضاً تشكيل مختلف العادات والطقوس التقليدية التي تشكل حياة الريفيين وتعالج كثيراً من نواحي نشاطهم. . . ومن الأمور العملية المفيدة في هذه البحوث الكيفية الاحتفاظ بمذكرات أو يوميات يسجل فيها الباحث ملاحظاته ومجريات الحوادث وظروف العمل أثناء إقامته في الريف. ولا شك أن مثل هذه المذكرات هي المادة الخام التي تستطيع أن تعتمد عليها في فهم ظروف الحياة الريفية فهماً ديناميكياً يتميز بغنى الواقع وتفاصيل الحياة اليومية (ص ١٠٠ إلى ١٠١).

□ من الذي يشرف على إدارة هذا الجهاز، وعلى جمع كل هذه المعلومات والدقائق؟ هيئة أجنبية، وليكن اسمها ما يكون. لتكن هي «التربية الأساسية» أو «النقطة الرابعة» أو ما شئت من هذه العناوين المختلفة.

□ هل هناك وسيلة للجاسوسية أضمن وأرخص وآمن من هذه؟ تجمع الهيئة وسماستها، الخبيث منهم والمغفل، ما شاءت من المعلومات في هدوء واطمئنان، دون أن يثير عملها ريبة أحد. بل إنها تلقى المساعدة الكاملة من الجهاز الحكومي، وتيسر لها سبل توثيق الصلات بالناس، وتترك لها الفرص لتعمل في بطء وفي مهل وفي غير عجلة. فهم جواسيس في ثياب أطباء، يؤتمنون على كل أسرار المريض الذي لا يخفي منها شيئاً طلباً للشفاء؛ فإذا هذه الأسرار تُستغل في الغدر به. وإذا هي تدرس لاختيار أفعال الوسائل لقتله وأمثل السبل لامتنصاص ما بقي في عروقه من دم.

□ أتريد بعد ذلك أن أحدثك عن هدف آخر مهم من أهداف هذه المؤسسات الأجنبية المريبة؟ إن هذه المؤسسات تريد إفساد المرأة الريفية وفرنجتها. إنها تقوم باستئصال (حياء) المرأة الريفية المسلمة في النهار المبصر، وعلى مسمع من كل ذي أذنين. هل تريد دليلاً على ذلك؟ إذن فاقراً بحث الدكتور هارولد ألن مدير التربية بمؤسسة الشرق الأوسط الذي ألقاه في مؤتمر أمريكي آخر تحدثت عنه من قبل وهو مؤتمر (الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة)<sup>(١)</sup>، وقد تولت نشره مؤسسة فرانكلين الأمريكية. راجع في هذا الكتاب مقال الدكتور ألن عن «العامل الريفي في الحضارة الإسلامية» (ص ٢٦١ إلى ٢٨٨).

وسوف تتبين بعد قراءته أن الأساليب التي وصفها هذا الأمريكي مما أتبع في سوريا هي الأساليب نفسها التي وصفها الدكتور حامد عمار مما أتبع في مصر. وهذا الأسلوب الواحد الذي يذكرنا بأساليب الجواسيس والمبشرين يؤكد ما أسلفته من أن هذه الشخوص التي تبدو للناس وكأنها تتحرك بإرادتها لا تتحرك إلا حسب خطة واحدة قدرها الذين فضلوا أن يجذبوا الخيط من خلف ستار. ولنفق قليلاً عند صفحتي (٢٦٧، ٢٦٨) من هذا المقال، حيث يقدم الكاتب صورة من بعوث أمريكا - أو البعوث الدولية إن شئت - التي تتغلغل إلى صميم البيئات الإسلامية في الريف باسم الخدمات الاقتصادية والخدمات الفنية، أو الخدمات الاجتماعية، وسوف تدرك بسهولة أن الهدف الكبير لهذه المؤسسات - إلى جانب ما تنتفع به من معلومات تفيد الجاسوسية السياسية والحربية - هو (أمركة الريف)، والاهتمام فيه بالمرأة خاصة وبتوجيه الحركة النسوية. سترى في هذا المقال أن هذه المؤسسة تختار موظفيها الذين

(١) انظر في هذا المؤتمر الطبعة الثالثة من كتاب الدكتور محمد محمد حسين «الإسلام والحضارة الغربية».

يتعاملون مباشرة مع القرويين من الوطنيين ليكونوا أقرب إلى قلوب الناس .  
 وسيروي لك الكاتب ما حدث في (قبر الست) وهي إحدى قرى سوريا .  
 ذهب مبعوث المؤسسة الدولية - أو الأمريكية إن شئت - وهو شاب عربي  
 اسمه (فؤاد فرج) إلى القرية ليعيش فيها، واستطاع أن يقيم في حجرة من  
 الحجرات المخصصة لإقامة زوار ضريح الست (والمقصود بها هي السيدة زينب  
رضي الله عنها حفيدة النبي صلى الله عليه وسلم)، وأخذ يتلمس طريقه لممارسة نشاطه بعد أن وثق  
 به أهل المنطقة واطمأنوا إليه، فنجح في إدخال بعض التحسينات الزراعية،  
 وقدم ألواناً مختلفة من الخدمات الصحية بمعاونة السكان وتنظيمهم . رش  
 المدينة كلها بمسحوق د . د . ت . للقضاء على الذباب والبعوض، وجفف  
 الشوارع، وأنشأ نادياً للشبان، كما أنشأ دراسات مسائية في القراءة والكتابة  
 للبالغين من الأميين، وكون جمعية تعاونية . وبعد أن سرد الدكتور هارولد  
 ألن ضروب النشاط التي قامت بها هذه المؤسسة الأجنبية ختم وصفه لهذه  
 التجربة بالسطور التالية، التي تدل على الهدف الحقيقي لهذه البعثات . قال :  
 «وفي السنة الماضية بدأ الرجال الذين يعيشون في محيط هذا الرائد - بعد أن  
 تحسن اقتصادهم وصحتهم تحسناً كبيراً نتيجة لجهوده العلمية - يفكرون في  
 حاجات نساءهم، وهذا هو ما ظل فؤاد فرج ينتظره زماناً . وقد أحيل الاقتراح  
 إلى قسم رعاية المنزل بالمؤسسة المسئولة عن هذا العمل . فأعد برنامجاً للنساء  
 والأطفال يدار من مكاتب قدمتها القرية بلا إيجار»<sup>(١)</sup> . ثم يعقب على ذلك

(١) من القواعد الأساسية في مؤسسة (التربية الأساسية) حسب ما جاء في (ص ٨٨) من  
 الكتاب الذي نتكلم عنه في هذا المقال - «محاضرات في نظم التربية» - : مساهمة (الناس  
 بالجهد أو بالمال أو في الفكرة أو في التنفيذ في أي عمل من الأعمال . ولا شك أن هذا  
 يدعوهم إلى الشعور بأن هذا العمل أو المشروع جزء منهم وأنهم أصحاب حق فيه . وهو  
 ما يحفزهم إلى رعايته واستغلاله والاهتمام به) . ويذكرنا هذا الأسلوب بأسلوب  
 الجاسوس الإنجليزي المشهور لورانس حيث يصفه في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» فيقول =

بقوله: «إن المشروع الذي وصفناه هو جزء من تجربة تشمل اثنتين وستين قرية، يبلغ مجموع سكانها ستة وعشرين ألفاً. وهو مثال لعشرات غيره من الجهود الفعالة المماثلة التي يمكن القيام بها (ص ٢٦٨)».

□ وهدف ثالث من أهداف مؤسسات «التربية الأساسية» ربما كان أخطر من الهدفين السابقين وأعمق أثراً، هو تخريج جيل من الخبراء الاجتماعيين المصوبين في قوالب أمريكية، أو قوالب صهيونية على الأصح، يلبس ثياب العرب والمسلمين، ويتسمى بأسماء العرب والمسلمين، ويعمل في حكومات العرب والمسلمين لغير أهداف العرب والمسلمين. ولا يمضي وقت طويل حتى يصبح المشتغلون بشئون الخدمة الاجتماعية وتنظيم الحياة العربية والإسلامية في شتى مناحيها من هؤلاء المتأمركين الذين يفسدون حين يزعمون أنهم يصلحون، ويهدمون حين يظنون ويظن المخدوعون بهم أنهم ينون ويشيدون.

□ والآن بعد أن طال الحديث عن المركز الدولي للتربية الأساسية أنتقل إلى مقالات الأعضاء الذين تحدثوا عن شئون التربية والتعليم في البلاد العربية، وهي الأساس في عقد هذا المؤتمر. والهدف من هذه البحوث التي دعي أصحابها لإلقائها لا يخرج عن الهدفين السابقين اللذين أشرت إليهما من قبل: الجاسوسية، والسيطرة على توجيه المجتمع. ففي مثل هذه المؤتمرات يتيسر استقاء معلومات دقيقة من مصادر موثوق بها، كما يمكن معرفة الاتجاهات الفكرية لقادة الرأي والمسئولين في هذه البلاد. وهذه المؤتمرات -

= فيقول أنه كان يعيش بين العرب كأنه واحد منهم. ولم يزل يمعن في تقليدهم حتى أحسوا أنه واحد منهم. وعند ذلك وجدوا أنفسهم منساقين إلى مجالته وتقليده. فهو لم يفعل - كما يقول - شيئاً بنفسه. وليس هناك عمل يمكن أن ينسب صراحة إليه. إلا أن يكون من تأثيره في أفكار غيره وتحويلها إلى أغراضه. على أن العرب - كما يقول - كانوا يبدون في كل تصرفاتهم أحراراً يتأثرون بالقدوة الصامتة إيجاباً وسلباً حسبما يحلو لهم (ص ٢٩ من النسخة الإنجليزية طبعة اكسفورد سنة ١٩٤٣).

مثل المؤسسات الأمريكية والدولية التي أشرت إليها من قبل - هي أضمن الوسائل وأرخصها وأوثقها لجمع المعلومات الصحيحة الدقيقة التي تستخدم الذين يرسمون الخطط السياسية والحربية لهذه المنطقة .

□ ثم إن هذه المؤتمرات هي - من ناحية أخرى - وسيلة للاتصال القريب المباشر بالمسؤولين، يعجمون عودهم، ويدرسونهم عن قرب، ويختبرون مدى مناعتهم ومدى استعدادهم للتجاوب مع الأهداف الخفية للسياسة الاستعمارية، كما يختبرون مواطن القوة ومواطن الضعف في كل واحد منهم لمعرفة أنجح الوسائل للاتصال بهم والتأثير عليهم. هذا إلى أن الكلام الذي يلقى في هذه المؤتمرات - وهو مجامل لا شك لوجهة نظر الداعي إلى المؤتمر - لا بد أن يلقى صدى في نفوس كثير من هؤلاء المسؤولين من المدعويين .

□ أما خدمة هذا المؤتمر لأغراض الجاسوسية الأمريكية التي ترسم الخطط السياسية والاجتماعية والاقتصادية لهذه المنطقة، فهي واضحة في كلمة الدكتور عبد الحميد كاظم وزير معارف العراق السابق، التي ألقاها في هذا المؤتمر، حيث أشار إلى ما طُلب منه إعدادة حين وجهت إليه الدعوة، فقال: «إن خطاب الزميل الدكتور حبيب كوراني يشير إلى الرغبة في أن أتكلم عن تطور التربية في المملكة العراقية خلال السنوات العشر الأخيرة<sup>(١)</sup> مشيراً إلى أهم الاتجاهات الحديثة من حيث: التنظيم، والمنهج، وإعداد المدرسين، والتفتيش، والامتحان، وكذلك المشكلات الاجتماعية، والاقتصادية،

(١) السنوات العشر الأخيرة هي السنوات التي تبدأ بانتهاء الحرب العالمية الثانية. وهي الفترة التي اتسمت بتدخل أمريكا في شئون هذه المنطقة. فأصحاب هذا المؤتمر يريدون الاطمئنان على مدى نجاح خططهم في خلال هذه السنوات العشر. والواقع أن أمريكا قد حققت بدولاتها خلال هذه المدة ما لم تستطع الدبلوماسية الإنجليزية والدبلوماسية الفرنسية ومؤامرات التبشير الظاهرة والخفية مجتمعة أن تحققه في قرن كامل.

والسياسية التي تجابه التعليم في العراق مع بعض الحلول التي اتخذت أو يجب أن تُتخذ لمعالجتها، على أن تأتي هذه في محاضرتين. هذا هو المطلوب مني حسبما جاء في الدعوة الموجهة إلي (ص ١٢٥ : ١٢٦)»<sup>(١)</sup>.

«والذي يراجع ما ألقى في هذا المؤتمر من بحوث يتبين دقة المدعويين في التزام الوفاء بما طلب إليهم التحدث فيه على أكمل ما يطلبه الأمريكيون ويريدونه. فبحوثهم مدعمة بجداول إحصائية لا حصر لها في كل جانب من جوانب التعليم، مما يقدم صورة دقيقة للحياة الاجتماعية والاقتصادية في بلادهم، إلى جانب النظم التعليمية. والواقع أن أعضاء المؤتمر لم يقدموا هذه الجداول الإحصائية تبرعاً من عند أنفسهم، ولكنهم قدموها استجابة لطلب الذين دَعَوْا إلى هذا المؤتمر ونظموه. فالدكتور حبيب أمين كوراني رئيس دائرة التربية في الجامعة الأمريكية ببيروت - وهو الذي وجه الدعوة لهذا المؤتمر - يقول في تقديم الكتاب الذي ضم ما ألقى فيه من بحوث: «... فدعونا لذلك نخبة من قادة الفكر وكبار رجال التربية في مختلف الأقطار العربية للمساهمة في هذه الدراسة، وذلك بتقديم محاضرات تتناول أهم الأبحاث الحديثة في التربية في أقطارهم من حيث الأسس الفلسفية والاجتماعية والنفسية التي تركز عليها التربية، ومن حيث التنظيم والمنهج وإعداد المعلمين والتفتيش والامتحان بالاستناد إلى بعض الإحصائيات التربوية الهامة، ويتناول أيضاً عرض المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تجابه التعليم، مع بعض الحلول التي اتخذت والتي يجب أن تُتخذ».

□ أما الهدف التوجيهي من هذا المؤتمر فهو واضح في هذه المقدمة أيضاً وفي سائر البحوث. يقول رئيس دائرة التربية في الجامعة الأمريكية ببيروت في مقدمته: «لقد بدأ قادة التربية في البلدان العربية يتحسسون الحاجة إلى

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص ٢١ - ٢٩).

تربية فعالة كوسيلة لمعالجة الوضع الخطير الذي أحدثته عوامل التطور في هذه البلدان». ثم يقول بعد أن يعرض هذه العوامل باختصار: «فتتج عن هذه تبادلات عديدة هي تبادلات جوهرية لا يمكن أن تحدث في مجتمع ما دون أن تحدث فيه تضارباً بالأفكار والمثل والقيم، ودون أن تتطلب تعديلاً في مفاهيم ذلك المجتمع وآرائه ومعتقداته وطرق تنظيم معيشتة. لذلك نجد أنفسنا في هذا الوضع مرغمين على إعادة النظر في مؤسساتنا التي تكونت ضمن الوضع القديم، وفي المبادئ والافتراضات والأهداف التي بنيت عليها تلك المؤسسات وتعديلها على ضوء الوضع العلمي والحضاري الحديث، والوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي القائم في مختلف مجتمعاتنا، كي نتتمكن من إعادة بناء حياتنا على أساس مبادئ وآراء ومثل بناءة منسجمة تتماشى مع الحضارة الإنسانية الراقية<sup>(١)</sup>، وتمكننا من المساهمة الفعلية في تقدم ركب المدنية البشرية ورفيّه<sup>(٢)</sup>.

□ وأوضح - رحمه الله - إلى سعيهم في إفساد التعليم بإقامته على أساس من الآراء الفاسدة والنظم الهدامة التي تروجها الصهيونية العالمية في غلاف أمريكي فيدعون إلى خلط الذكور بالإناث، وإلى إخراج المرأة للأسواق وامتهانها بين الرجال، مما يعرضها ويعرض المجتمع الإنساني كله للفساد والانحلال ثم الانهيار.

□ ثم قال - رحمه الله -: «ولكنني لا أستطيع أن أختم الكلام عنه دون الإشارة إلى أن هؤلاء المدعوين الكبار من الوزراء ومن في مستواهم قد ظلوا في ضيافة المؤتمر أربعة شهور كاملة، بدأت بمحاضرة العضو اللبناني الأولى

(١) لست أدري ما هو مفهوم «الراقي» و«الحضارة الإنسانية الراقية» في وهم صاحب هذا الكلام. هل هو كل ما جاء من الغرب المنحل وكل ما أخرجته فنون الجنون الأمريكي؟.

(٢) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص ٢٩ - ٣١).

في نادي وست هول بالجامعة الأمريكية في ٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٥ .  
وسيعجب القارئ للسخاء الذي أنفقت به الأموال على هذا المؤتمر وأمثاله .  
ولست أدري أيزول عجبه أم يزداد حين يعلم أن مؤسسة روكفلر هي التي  
قامت بكل النفقات . ولكي يطمئن القارئ إلى صدق ما أقوله أنقل له  
السطرين الأخيرين من مقدمة حبيب كوراني رئيس دائرة التربية في الجامعة  
الأمريكية ببيروت حيث يقول: «إننا مدينون بالشكر أيضاً إلى مؤسسة روكفلر  
التي قدّمت جميع نفقات هذا المشروع». ولقد كان يكفي أن أقول منذ  
البداية: إن الجامعة الأمريكية في بيروت هي التي دعت إلى هذا المؤتمر، وأن  
جلساته عقدت في مقرها، وأن مؤسسة روكفلر هي التي تكفلت بكل نفقاته،  
لكي يغنيني ذلك عن كل تفصيل»<sup>(١)</sup> .

\* مؤسسة فرانكلين الأمريكية ودورها في تخريب التعليم وانحلال  
المجتمع:

□ يقول الدكتور محمد محمد حسين:

وننتقل الآن من مؤسسة روكفلر إلى مؤسسة أمريكية أخرى سبق أن  
قدّمتُ كتاباً من الكتب التي أخرجتها دولاراتها<sup>(٢)</sup> وهي مؤسسة فرانكلين.

(١) المصدر السابق (ص ٣٢).

(٢) من المعروف أن نلسون روكفلر المعاصر يهودي يستتر تحت النصرانية فهو عضو مؤسس  
في اللجنة (القومية المسيحية) التي وحدت صفوف اليهود الذين اعتنقوا المسيحية، والتي  
تساهم بالنصيب الأكبر في جمع النفقات التي تساعد اليهود على الهجرة من أوروبا إلى  
فلسطين. وجدّ هذه الأسرة الأول هو جوهان روكفلر اليهودي الألماني الذي نزح إلى  
أمريكا في أوائل القرن الثامن عشر. وقد أنفق ابنه جون روكفلر ملايين الدولارات في  
تأسيس الجمعيات والمنظمات اليهودية المختلفة في أمريكا. وكان من المتعصبين لإحياء  
الإمبراطورية اليهودية في أمريكا «أمريكا مستعمرة صهيونية» (ص ١١، ١٢).

(٣) كتاب «الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة» في جزء شعبان ورمضان سنة ١٣٧٦، راجع =

أصدرت هذه المؤسسة فيما أصدرته من مطبوعات<sup>(١)</sup> سلسلة عنوانها (كيف نفهم الأطفال - سلسلة دراسات سيكولوجية). وأشرف على هذه السلسلة وقدم لكل كتاب من كتبها الدكتور عبدالعزيز القوصي المستشار الفني لوزارة التربية والتعليم في مصر. والحديث في هذه السلسلة موجه إلى الآباء والمدرسين حسب ما هو مبين على غلاف كل عدد من أعداد هذه السلسلة، إذ رُسم في أعلى الجانب الأيسر كتاب مفتوح، في إحدى صفحاته «الطريق إلى حياة أفضل» وفي الصفحة الأخرى «علم النفس للآباء والمدرسين». ويؤكد الدكتور القوصي هذا الهدف، إذ يقول في تقديم العدد الأول من أعداد هذه السلسلة الذي صدر في مارس ١٩٥٤، وأعيد طبعه في أكتوبر ١٩٥٥، مما يدل على الرواج الذي تلقاه هذه السوم الأمريكية، يقول في هذه المقدمة: «هذا هو الكتاب الأول في مجموعة من الكتب تهدف إلى توجيه الآباء والمدرسين إلى حياة أحسن من تلك التي يعيشونها.

□ ولا نقصد بالحياة الأحسن أن تكون كذلك من الناحية المادية، وإنما هي حياة أحسن من حيث الأداء لرسالة الأبوة ورسالة التربية». فالمشرف على هذه السلسلة - وهو من كبار رجال التربية في مصر - يعرف أن هذه المؤسسة الأمريكية تهدف إلى توجيه الآباء والمدرسين. وهو يقر هذا الهدف وترضى نفسه أن يعين الأموال الأمريكية عليه، وهو يعرف - ما يعرف كل عاقل - أن الناس لا يصدرن فيما يأتون من أعمال إلا عن دوافع تدفعهم إلى العمل، وأن هذه الدوافع مهما تختلف وتتنوع فهي تشترك في أنها تحقق نفع الفرد أو الجماعة التي تنتمي إليها. فمن الواضح أن الفرد أو الجماعة لا تبذل الجهد

= كتاب «الإسلام والحضارة الغربية» الطبعة الثالثة.

(١) الكتب التي تخرجها هذه المؤسسة لمؤلفين أمريكيين، ينفق عليها من المال الأمريكي لذا فهي مختارة اختياريًا خاصًا.

والمال إلا فيما يعود عليها بالمنفعة. فليت شعري ألم يرد على خاطر الأذكياء الذين يشاركون في هذه الأعمال - كتباً كانت أو مقالات أو مؤتمرات - هذا السؤال الذي لا ينبغي أن يغيب عن البال: ما هو النفع الذي يعود على هذه المؤسسة، والذي يدفعها إلى بذل ما تبذله من جهد ومن مال؟ إذا لم يكن هذا السؤال قد ورد على أذهان هؤلاء الأذكياء فقد ورد على ذهني، وأظنه قد ورد على أذهان الكثير من الأذكياء وغير الأذكياء. وقد تكون الإجابة على هذا السؤال طويلة، وقد لا تكون واضحة في أذهان الذين يتساءلون، ولكن من الأهداف الواضحة التي لا تخفى أن مثل هذه المشروعات تحقق أول ما تحققه توثيق الصلات بنفر من ذوي النفوذ وكسب ودهم وولائهم بالبدل السخي الذي يقدم في صورة مهذبة مؤدبة جداً. فهو لا يعدو أن يكون أجراً على مجهود قد بذل، وقد لا يكون هناك مجهود، وقد يكون المجهود تافهاً وصورياً. وقد يكون الأجر مضاعفاً أضعافاً كثيرة. ولكن المأجور لا يقول عادة إن الأجر كبير. وصاحب العمل مهذب رقيق يقدم عطاءه السخي في أدب جم وفي حياء (كأنك تعطيه الذي أنت سائله) - كما يقول شاعرنا العربي القديم زهير.

□ وهدف آخر من هذه الأهداف الواضحة هو السيطرة على توجيه المجتمع، عن طريق هؤلاء الأصدقاء من أصحاب النفوذ وعن طريق المخدوعين بأسمائهم ممن يقرءون ما ينشرون، والذي ينشرونه ليس باطلاً كله، بل إن فيه حقاً كثيراً، بل إن الباطل فيه يلبس ثوب الحق فيصعب على غير الخبير الاهتداء إلى موضع الخطر فيه. ولكن بعض الأباطيل عارية لا تخفى ولا تلبس غير أثوابها، فمن هذه الأباطيل العارية ما جاء في العدد ١٢ من هذه السلسلة. وعنوان هذا العدد هو (الطفل والأمور الجنسية). وسأنقل في السطور التالية صوراً من هذه الأباطيل مكتفياً بهذا النقل عن التعليق.

□ قدّم الكتاب في صفحتي ٢٢، ٢٣ مجموعة من الأسئلة في صورة اختبار يساعد الآباء - فيما يزعمه المؤلف - على تبيين اتجاه الأبناء الخاص في وضوح وفي جلاء، وعلى تقدير ما تنطوي عليه تصرفاتهم من خطأ وضواب، وأثبت المؤلف الإجابة الصحيحة المزعومة على كل سؤال من هذه الأسئلة في ذيل صفحة ٢٣. ومن بين هذه الأسئلة السؤال رقم ٦ ونصه هو: «هل ترى في التعبير السافر عن المحبة ما ينبئ عن ذوق رديء أو ما يثير الحرج؟». والجواب الصحيح فيما يزعمه الكتاب الأمريكي هو: «لا». والسؤال التالي هو: «هل تعتقد أن المواقف التي تتضمن ناحية جنسية تثير الضحك؟» والجواب الصحيح الذي أثبتته الكتاب هو: «نعم».

□ وجاء في (ص ٤٦): «إن الكثير من الآباء اليوم لا يكثرثون للظهور مجردين من الثياب أمام أطفالهم الصغار. وهذا أمر لم يكن يحدث في الماضي إلا نادراً، كذلك أصبحت أبواب الحمامات وغرف النوم تترك مفتوحة أحياناً فيرى الصغار أبويهم وهم يخلعون ملابسهم أو يرتدونها، فإذا كان في وسع الآباء أن يفعلوا ذلك بصورة طبيعية ودون شعور بالحرج أو الاضطراب فإن ذلك يكون مرئياً طبيعياً؛ لأن يعود الطفل على الشعور بأن الجنس ليس أمراً مشيناً، كما يساعد على إشباع فضوله فيما يتعلق بأجسام الكبار».

□ وجاء في (ص ٦٠): «إذا حدث التجريب في النواحي الجنسية في الفترة الواقعة بين سن ٨، ١٢ فمن المحتمل أن يقع بين أفراد الجنس الواحد، إذ نجد الصبية مثلاً يعرضون أعضاءهم التناسلية بعضهم على بعض، ويعتبر ذلك محاولة من الطفل لتحديد مدى مشابهته أقرانه. كذلك قد يلجأ البعض إلى ممارسة العادة السرية - كمحاولة لتخفيف ما يشعرون به من توتر جنسي

(١) أريت إلى الذين يريدون أن يعودوا بنا إلى الهمجية الأولى والجاهلية الجهلاء، هل ترى كبير فرق بين مذهبهم هذا وبين مذهب الذين يمارسون العري في مدن العراة.

وانفعالي - ومرة أخرى نقول: إن هذا السلوك لا يعتبر غير طبيعي، ولا يدمغ الطفل بالشذوذ أو الإجمام أو الانحراف، كما أنه لا يستدعي عقابه أو تهديده بأنه سيصاب بأمراض خبيثة، ولا يتطلب محاضرات خلقية تلقى عليه، كما لا يبرر نبذه وتحقيره».

□ وجاء في صفحتي ٦٢ و٦٣: «فبدلاً من فصل البنين عن البنات يجب علينا أن نعمل على إشراكهم معاً في الأعمال الممتعة ومواقف اللعب، وأن نحاول مساعدتهم على تكوين مشاعر طبيعية مريحة نحو أفراد الجنس الآخر. وعلى الآباء تشجيع أطفالهم على المساهمة في نواحي النشاط المشتركة بين البنين والبنات مما تشرف عليه المدرسة والجمعيات الرياضية أو المراكز الاجتماعية. فهذا النشاط المشترك ليس «مواعيد غرامية» بل هو فرص لاشتراك البنين مع البنات في متع الرياضة وركوب الخيل أو الدراجات والسباحة وغير ذلك. وإذا حدث «استلطاف» بين بعض البنين والبنات فينبغي النظر إليه على أنه نوع من الصداقة وليس «غراماً» أو «عشقاً». والمعاكسات البريئة التي من نوع «مراد وسهير صديقان حميمان» قد تبعث في صداقتهما دفئاً كانا يفتقران إليه، وقد تولد فيهما الشعور بأننا نتوقع منهما أن يسلكا مسلك الكبار».

□ وجاء في (ص ٧٨): «إن خروج الفتيات في صحبة الفتيان من الأمور الطبيعية التي تستطيع معظم الآباء تقبلها - في الوقت المناسب على أي حال - باعتبارها جانباً من جوانب النمو الجسمي للمراهق».

□ وجاء في صفحتي ٨٧، ٨٨: «في كل علاقة تقوم بين فتى وفتاة يشعر كل منهما في بعض الأحيان بدافع يحفزه إلى التعبير عن حبه وتقديره للآخر بلمسة أو ضغطة على يد أو قبلة، والرغبة في الكشف عن المشاعر بهذه الطريقة والاستجابة لها أمر طبيعي».

□ وأخيراً يقترح مؤلف الكتاب برامج للدراسة في مراحل التعليم

المختلفة ويضع تحت كل برنامج من هذه البرامج ما يرى أنه خليق بالدراسة، ومن بين ما يراه خليقاً بالدراسة في برنامج «المواد الاجتماعية» (ص ١٠٤):

«المعايير الخلقية والأخلاق الحديثة، وأساليب المجتمع في تقرير الخطأ والصواب»<sup>(١)</sup>، و«المركز الاقتصادي والقانوني للمرأة وكيف تأثر بتغير الظروف الاقتصادية في المجتمع وأثار هذا التغير على حياة الأسرة والزواج».

ومن بين ما يقترحه المؤلف في برنامج (العلاقات العائلية) (ص ١٠٥) - (١٠٦):

«كيف تعرف أن ما تشعر به هو الحب؟ - كيف تختار رفيق حياتك؟ - فترة الخطوبة - العلاقات السابقة على الزواج... إلخ». ومن بين ما ذكره تحت عنوان: «النشاط غير المنهجي» (ص ١٠٦ - ١٠٧) في بيان أهداف هذا البرنامج وأساليبه: «والغرض منها مساعدة الطلاب والطالبات على تنمية علاقات طيبة، يشرف على توجيهها المدرسون بصورة بعيدة عن الرسميات، وهي تتضمن: أندية الشباب - صحيفة المدرسة - جمعيات الهوايات والميول - التمثيليات - مجالس إدارة الطلبة - حفلات السمر والرقص».

وجاء فيه أيضاً: «فمن حق الآباء أن يهتموا بمدى كفاءة الذين يقومون على تعليم أبنائهم وبناتهم الأمور الجنسية، فهم يريدون مدرساً يستطيع تزويد التلاميذ بنظرة عامة عن الزواج والتكيف الجنسي، وقد يشعر البعض منهم أن خير من يستطيع ذلك هو المتزوجون والمتزوجات، ولكن ليس هناك ما يدل على أن هذا شرط ضروري، وإن كان له بعض المزايا».

□ فإذا لم تنفك كل هذه النماذج فهناك نموذجاً من كتاب آخر أصدرته مؤسسة فرانكلين نفسها وأشرف على إخراجة وقدّم له الدكتور القوصي أيضاً

(١) تأمل معي قوله: «الأخلاق الحديثة» وكان في الخلق قديماً موروثاً جاءت به الأديان، وجديداً يخالف ما تواضعت عليه الأديان والمجتمع في تقرير الخطأ والصواب.

حين كان عميداً لمعهد التربية العالي للمعلمين بجامعة عين شمس، واسم الكتاب هو «كيف تتكامل الشخصية».

□ جاء في (ص ٦٥) من هذا الكتاب: «إن جميع الحاجات الإنسانية سواء كانت عضوية ينبغي إشباعها للإبقاء على الحياة، أم اجتماعية يقتضي إشباعها أيضاً لتضمن عيشة راضية، أو جنسية تشتمل على الحاجتين - الاجتماعية والعضوية - كلها ما هي إلا قوى دافعة إلى النشاط، تحض على العمل بدلاً من مجرد التطلع أو التفكير فيه. وكلنا نعرف أنه عندما تستيقظ حاجة ما، سواء أكان نشاطها شعورياً أم لا شعورياً، فإننا نحس بحالة من التوتر، وأن هذا الشعور يفقدنا الهدوء والراحة، ويستفزنا للعمل على الحد من شدة هذا التوتر أو التخلص منه كلية، وعندئذ نعود إلى الهدوء مرة أخرى، أي إنه متى تم إشباع حاجة من حاجاتنا زال التوتر، وهذا القول يصدق على جميع الحاجات البشرية».

□ وجاء في صفحة ٧٢ تحت عنوان (المشاعر الجنسية مشاعر طبيعية):  
«ولنصور المسألة الآن تصويراً واضحاً، إن الطبيعة الجنسية ليست بالشيء الشاذ أو المشوّه، بل إنها الحياة الجنسية التي تقوم عليها الأسرة، تلك الأسرة التي تعتمد عليها ثقافتنا. والشيء الطبيعي الصائب أن يحب الفتیان الفتيات وأن تحب الفتيات الفتیان. والواقع أن أغلب المشكلات التي هي مصدر لشقاء شباب العقد الثاني من العمر ومن يكبرهم من إخوة وأخوات يمكن ردها إلى الثقافة والمدنية التي نعيش فيها، أو على الأقل يمكن أن نقفني أثرها في الاتجاهات السائدة في هذه الثقافة أو المدنية، وإنها لحقيقة على جانب عظيم من الأهمية أن الثقافات التي يتعلم النشء في ظلها الحقائق الجنسية في سن مبكرة وبطريق عرضي بحيث لا يكتنفها إبهام أو غموض لا يتعرض الأطفال ولا الشباب فيها لتلك المشكلات المألوفة في حياتنا وحياة

أصدقائنا». ثم يقول بعد ذلك في صفحة ٧٥: «فالشوق إلى القبلة أو بعض الغزل الرقيق أو الإنصات إلى قصة فيها تلميحات جنسية - كل هذه ليست أموراً شائنة، فليهدأ الشباب بالأى، فليس كل ما يدور حول الجنس يدخل في باب المحرمات، ولعل كثيراً مما نكتبه كان ضحية سوء التوجيه».

□ هذه نماذج من الآراء التي يشرف المستشار الفني لوزارة التربية والتعليم على ترويجها، فهل تجد فيها الكفاية لتغير بعض ما يجري من حولنا في هذه الأيام؟<sup>(١)</sup>

### \* نقده للآراء الهدامة فيما يسمى بالفن والثقافة:

أن يلقى الحبل على غاربه لكل رأي يخالف الإسلام بدعوى «حرية الرأي» أو «حرية النشر» أو «حرية الفرد» تصدى لها الدكتور محمد حسين حتى لا تترك السبل والمنافذ «مفتوحة لشهوات الماجورين والمخدوعين ومطايا الشياطين من الفاسدين والمفسدين، تفعل ذلك تقديساً للوهم الذي أقامته الثورة الفرنسية اليهودية وزخرفت له اسماً خداعاً خلاباً فسمته «حرية الرأي» أو «حرية النشر» أو «حرية الفرد»، وما هو في حقيقة الأمر إلا وسيلة اليهودية العالمية لإفساد الجماعات وهدم كل الأديان، حتى يتمكنوا من السيطرة عليها جميعاً بعد أن يقضوا عليها قضاء مبرماً<sup>(٢)</sup>. إن الدولة التي

(١) هذا في الستينات.. فكيف في أيامنا هذه!!!

(٢) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص ٣٣ - ٣٩).

(٣) أكثر الناس يجهلون أن شعار الثورة الفرنسية اليهودية: «الحرية والإخاء والمساواة» هو من وضع مجمع بورديو الماسوني. وهو شعار لم يخدم إلا الأقلية اليهودية. إذ سمح لسماستها بنشر الفساد، وأعانها على هدم سلطة الكنيسة وتقويض كل القيم، باسم الحرية. وحماها في الوقت نفسه من تعصب المسيحيين على الأقلية اليهودية التي تستأثر بالسلطة عن طريق المال، باسم الإخاء والمساواة. ومن أعجب ما يخضع له الناس من أوهام، مما روجه اليهود، تسمية الصحافة: «صاحبة الجلالة». وإحاطتها بهالة من القداسة =

تفعل هذا هي كالتفخ في قرية مقطوعة، أو الجابي في حوض مثقوب.

\* دعاة الفرعونية من أعداء الإسلام والعروبة:

□ يقول - رحمه الله -:

«أكثر ما كان هذا الشطط في مذاهب دعاة العزلة والانفصال الذين كانوا يعارضون الإسلام والعروبة بالفرعونية في الفترة التي تلت إلغاء الخلافة الإسلامية بعد الحرب العالمية الأولى. فقد كان يزعم هؤلاء الغلاة من الانفصاليين والهدامين أن تغير الدين في مصر من الوثنية إلى المسيحية ثم الإسلام، وتغيير الكتابة واللغة فيها من الهيروغليفية إلى العربية لم يقطع ما بين مصر الحديثة وبين مصر القديمة من صلات. وكانوا يحتالون لرد حياتنا المعاصرة في مختلف مظاهرها إلى أصل فرعوني قديم، ويدعون إلى أن تقوم نهضتنا على بعث المجد الفرعوني القديم مثلما قامت النهضة الأوربية الحديثة على بعث التراث اليوناني والروماني في عصور الوثنية السابقة على المسيحية.

□ ومن هنا كان اتصال هذه الجماعة من المارقين الموكلين بتفريق شمل جماعة العرب والمسلمين بما يسمونه «الدراسات الشعبية» أو «الفولكور»، إذ

= تسمح لأي مدسوس على قومه، أو فاسق مريض القلب واللسان، أن يلفق من الأضاليل ما يريد وما يراد له، وأن يدسها على عقول السذج من الأحداث والأغرار، والحمقى من ضعاف العقول، باسم العلم والثقافة والحرية والتمدن، ما دام قادراً على تائيت دار للصحافة، بماله أو بمال غيره. وسيطرة التنظيمات اليهودية على الصحافة العالمية وعلى وسائل النشر ووكالات الأنباء مشهورة معروفة. فواج هذا الوهم بين الناس باسم «حرية الرأي» هو أكبر ما يمكن للدعاية اليهودية ويدعم سلطانها، حتى يصبح سوطاً يلهب ظهر كل حر، ومقراضاً يقطع عرض كل ذي خلق أو دين؛ ويجعله سخرية الساخرين وأضحوكة اللاهين، في الوقت الذي يمكن فيه للمفسدين والفارغين من الظهور، حتى يصبحوا ملء العيون والأذان، فلا يرى الناس إلا صورهم ولا يسمعون إلا أصواتهم، ولا يصبحون ويمسون إلا في أخبارهم وأقوالهم.

دعوا الأدباء والكتاب إلى البحث عن مواضع الاتصال بين مصر القديمة ومصر الحديثة في ميادين الأدب وكتب العقائد وطقوس العبادة وموروث التقاليد والعادات في شتى نواحي الحياة، كما دعوا إلى إنشاء أدب خاص وفن مستقل في التصوير والنحت والموسيقى، متميز بطابعه المصري المحلي. وقد وصف أحد دعاة هذا المذهب وقتذاك الأدب الذي يعنيه بأنه «مستقل عن آداب الشعوب الشرقية الأخرى الناطقة بالضاد»؛ لأن «اللغة العربية ليست لغة شعب فحسب، بل هي لغة شعوب وأمم عدة تنطق وتكتب بها. فنحن في حاجة إذن إلى تقريب هذه اللغة إلى أذهاننا لتعبر عن خواطرننا، وليس أدل على ذلك من ضرورة خلق أدب قومي تكون لنا غيرة عليه، ويكون في استقلاله بعيداً عن كل المؤثرات التي تجعله اشتراكياً محضاً».

□ ولم يكن هؤلاء يخفون أنهم متأثرون بالأوروبيين شرقيهم وغربيهم في دعوتهم هذه، ولم يكونوا يتحفظون في دعوة أنصارهم إلى الاستفادة بكل ما جمعه الأوروبيون وما ألفوه في هذا الباب. وكانوا يجاهرون باتخاذ القدوة من اللغات الأوروبية الحديثة التي نشأت على أنقاض اللغة اللاتينية، حين كانت هي اللغة التي يكتب بها الشعر والنثر والقصة والأدب في أوروبا كلها (ولكن شعور كل شعب بقوميته واعتزازه بوطنيته واعتداده بنفسه، حدا به إلى أن يتحرر من إسار اللغة اللاتينية وإلى أن يكون مستقلاً في آدابه عنها، موحداً جهوده في سبيل تهذيب لغته وطبعها بطابع قومي خاص له روعته وجماله). وفي سبيل تحقيق هذا المثال كان هؤلاء يقولون: «إن واجبنا هو أن نبث في الشعب روح القومية وروح الإنتاج المحلي» وأن «أول ما نولي وجوهنا، فليكن شطر الأدب الفرعوني قبل كل شيء فهو تراث الآباء والأجداد... فإن لم يكن للكاتب ملكة ينميها أو وجدان يستمد منه من الأدب الفرعوني فليول وجهه شطر الأدب الريفي». وكان دعاتهم لا يملون من تأكيد

أن «الأدب المصري الذي نعنيه هو أدب محلي يصور الحياة المصرية والقومية المصرية وحدهما، فلا نعني به أدباً شرقياً، كما أبهم على بعض الكتاب الأفاضل، يتناول حياة الشرق العربي أو البلاد الشقيقة المجاورة».

□ وكانت هذه الجماعة التي تتخذ (السياسة الأسبوعية) لساناً لها تريد أن تكون «جماعةً تقتصر على الكتاب الناشئين، تُعنى بتهديب ملكاتهم وجعلهم أكثر إنتاجاً وأكثر استقلالاً في الفكر واعتماداً على أنفسهم وعلى مصريتهم». وكانوا يتخذون الدكتور هيكل رئيس تحرير تلك الصحيفة قدوة لهم، ويشيدون بقصة له ظهرت وقتذاك تحكي عن الريف ويجري الحوار فيها بالعامية، وهي قصة «زينب» التي كانت أول ما ظهر على لوحة الخيالة من الإنتاج المصري حين كانت صورها صامتة، وكان من بين ما يقترحونه من الوسائل إلى خلق هذه الروح المصرية في النشء «توجيه المسرح المصري إلى الناحية القومية وجعله مسرحاً مصرياً روحاً وقوة وإنتاجاً، والعناية بالأناشيد القومية وجعلها تصور على قدر الإمكان أمانى المصريين وآمالهم، والعناية بالأدب الفكه والأدب الريفي»<sup>(١)</sup>.

□ ولعل هذا القدر الذي قدَّمته كاف في توضيح خصائص هذه الدعوة والكشف عن خطورة أهدافها، التي لا تخدم إلا مطامع الاستعمار، الذي يتوسل إليها في البلاد العربية وفي العالم الإسلامي بتقطيع أوصالها وبث

(١) لمن شاء التوسع في ذلك أن يعود إلى صحيفة (السياسة الأسبوعية) في أعداد ٢٧ نوفمبر سنة ١٩٢٦، ١٧ ديسمبر سنة ١٩٢٧، ٧ يناير ١٩٢٨، ١٨ يونيو ١٩٣٠، ١٢ يولية سنة ١٩٣٠، ١٩ يولية ١٩٣٠. وعناوين المقالات المشار إليها مرتبة حسب التواريخ السابقة هي: (مصر الحديثة ومصر القديمة)، و(الفن المصري)، و(هل من خطوة جديدة في سبيل الفن المصري)، و(دعوة إلى خلق الأدب القومي)، و(في سبيل الدعوة إلى الأدب القومي)، و(دعوة الأدب القومي). وإلى الفقرة ٣ من الفصل الثاني في الجزء الثاني من (الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر) لكاتب هذه السطور.

روح التنافر والتدابير والتقاطع بين أفرادها وجماعاتها، استدامةً للوضع الراهن الذليل الذي كانت فيه، وتحاشياً لاتحادها الذي يؤدي إلى قوتها وتمرداها على هذا الوضع. وقد أشرت في مقال سابق إلى أهداف الأوروبيين والأمريكيين من الدعوة إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام، تلك الدعوة التي ظهرت في وقت واحد في كل من تركيا ومصر والشام والعراق وشمال أفريقيا وفارس والهند وأندونيسيا. وكان مظهرها في كل هذه البلاد واحداً وكانت أساليبها متشابهة<sup>(١)</sup>.

□ ومن الواضح أن الأعيب الاستعمار في هذا الباب قد انكشف أمرها ولم تعد تخفى على ذي بصر، فقد تشبهنا إلى ما يراد من تفريق شمل العرب والمسلمين، كما بصرتنا التجارب الأخيرة بما يمكن أن يعود على ذلك المجموع العربي والإسلامي من خير نتيجة لتضامنه واتحاده. فكل ما يقصد إلى زيادة هذا الاتحاد قوة فهو صادر على باعثٍ خيّرٍ يستهدف صالح ذلك المجموع. وكل ما قصد إلى توهين هذا الاتحاد وبيث روح الفرقة والعصية القبلية والشعبوية الجاهلية بين أفرادها فهو لا يخدم إلا أهداف العدو ولا يورثنا إلا الضعف.

□ ومن الواضح البين أن هذه الدعوات الشعبوية قد أصبحت تخالف دستورنا مخالفة صريحة تُوقع أصحابها تحت طائلة العقاب. فلم يعد هناك مجال للكلام عن الفرعونية التي تُعتبر العرب دخلاء بعد أن قررت المادة الأولى من الدستور أن (مصر دولة عربية) وأن (الشعب المصري جزء من الأمة العربية)، ولم يعد هناك مجال للكلام عن (الفولكلور) المصري القديم أو الحديث، والدعوة إلى إقامة حياتنا وفنوننا على أساسه، بعد أن نصت

(١) راجع مجلة (الأزهر) في جزء رمضان سنة ١٣٧٦ (ص ٨١٦ - ٨١٨). تحت عنوان (الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة). والمقال منشور في كتابنا (الإسلام والحضارة الغربية).

المادة الثالثة من الدستور على أن (الإسلام دين الدولة) ثم نصت المادة الخامسة على أن (الأسرة أساس المجتمع، قوامها الدين والأخلاق والوطنية). فنظام مجتمعنا لا يستمد مقوماته إذن من ذلك (الفولكلور) قديمه أو حديثه، ولكنه يستمدها من ديننا الإسلامي ومن أخلاقنا الإسلامية ومن وطنيتنا العربية.

□ ولكن العجب الذي لا يشبهه عجب أن هذه الدعوة التي قتلَ الدستورُ جراثيمها واستأصل سرطانها الفتاك، قد أطلت برأسها من جديد تلتمس الحياة في صحيفة «المجلة».

□ ويكفي أن تراجع العدد الأول من هذه الصحيفة لكي تبين أن العصبية الشعبوية والفرعونية الجاهلية تسيطر عليها سيطرة كاملة، وأنها تتجاهل تجاهلاً كاملاً أنها في بلد عربي أو إسلامي. فهي تكاد تخلو من المواضيع الإسلامية أو العربية، وهي مطبوعة بطابع شعوبي انفصالي يتحدى دستور الدولة؛ لأنه يتحدث عن العرب بوصفهم غزاة دخلاء في بلد تنص المادة الأولى من دستوره على أنه عربي<sup>(١)</sup>، وهي تقدر الفرعونية إلى حد الغلو الذي يخرج بها إلى الوثنية والكفر والتهمك بقيم الإسلام وأبطاله وتشويه سيرتهم. فإذا خرجت «المجلة» عن هذا الطابع الانفصالي الذي هو خليق أن يدعم مزاعم الدعايات الأجنبية التي تريد أن تصور سياسة مصر الحالية سياسةً إمبراطوريةً استعمارية، إذا خرجت «المجلة» عن هذا الطابع لم تتحدث إلا عن أدب الغرب وموسيقى الغرب ورقص الغرب وفنون الغرب، ذلك الغرب الذي وصفه أحد كتابها بأنه (العالم المتحضر)، حين تحدث عن الاحتفال ببرنارد شو، فقال في صدر مقاله: «احتفل العالم المتحضر بالعيد المئوي لميلاد برنارد شو»، وكأن من عدا هؤلاء المحتفلين ببرنارد شو - ممن

(١) راجع مقال «صراع القومية المصرية من غزو الإسكندر حتى الفتح الإسلامي» في العدد الأول من «المجلة» (ص ٣٠ - ٤٣).

يزعم الكاتب أنهم هم المتمدنون - زعاع وهمج .

يتحدث المقال الأول في هذا العدد عن (قناة السويس بين التأميم والتدويل)، فيزعم أن (تقاطيع رئيس جمهورية مصر العربية الشاب تشبه تقاطيع الشخصيات والرجال الذين خلّدت صورهم على جدران المعابد والهيكل الفرعونية منذ آلاف السنين). وجمال عبدالناصر - مثله في ذلك مثل ملايين عديدة من المصريين - عربي الأصل من بني مر. فمن أين يجيئه العرق الفرعوني؟ وأي فخر في أن يكون جدّه أحد هؤلاء الكفار الجابرة الذين قطع الإسلام ما بيننا وبينهم؟.

□ ويمضي الدكتور حسين فوزي كاتب المقال على هذا النمط في سائر مقاله، تقوده نزعة فرعونية غالية، فيتحدث عن (عودة التاريخ الفرعوني فجأة ودبيب الحياة فيه، وتحرك الحضارة المصرية القديمة وسيرها على الأقدام وزحفها في العربات السريعة الرشيقة التي نرى صورها في الكتب ونعجب منها ومن راجعها وفارسها). والحضارة كما هو معلوم دين وتفكير وأسلوب في الحياة، فهل هناك نية للانسلاخ من حضارتنا الإسلامية والارتداد إلى الوثنية الفرعونية؟ أم ماذا تكون الحضارة الفرعونية؟ وكيف يكون تحركها وزحفها وبعثها؟ ويتحدث المقال كذلك عن واجب مصر الأول نحو الناس، وهو نشر الحضارة بينهم، فيخيل للقارئ أن الكاتب يتحدث بلسان الإمبراطورية البريطانية في القرن التاسع عشر. أمثل هذا تُدعم القومية العربية وتحارب أكاذيب المفسدين والدساسين الذين ينفثون سموم الفرقة بين العرب، حين يزعمون لإخواننا أن مصر دولة ذات مطامع استعمارية تتذرع إلى مطامعها بين العرب والمسلمين باسم العروبة والإسلام؟.

□ وإذا شئت المزيد من هذه العصبية ومن هذا التهور فاقراً نص خطاب كاتب هذا المقال في الاحتفال بافتتاح البرنامج الثاني (العدد ٦ ص ١٢٣ -

(١٢٧)، حيث يردُّ إلى الفراعنة مظاهر الحضارة الإنسانية بكل ألوانها وبكل فروعها وصورها، وينسب إليهم (صنع فكرة الإيمان بالله) على حد تعبيره، وحيث يقول: «إن مصر الآن لا يُشكَّ في أنها تلعب دوراً رسالياً، دوراً ذا رسالة. ونحن لا نستطيع أن نضطلع بهذا الدور إلا إذا شحنا بطارتنا؛ لأن بطارتنا فارغة».

□ ثم يروي قصة القبطان الذي نفذ ما في سفينته من الماء الحلو، فأخذ يلح في طلبه، ثم تبين له أن الماء الحلو تحته وهو لا يدري، بعد أن قطعت سفينته المحيط ودخلت في مصب أحد الأنهار. ويشبه حالنا في مصر بحال ذلك القبطان «الماء الحلو في ثقافتنا. في بعض هذه الهياكل والمعابد التي نستطيع أن نشاهدها، فنرى كيف صنع أجدادنا من هذه الأرض وبهذه الأدوات». ثم يقول: «وأرجو أن يكون البرنامج الثاني إحدى هذه الوسائل في أعماق حياتنا التي امتدت ستة آلاف سنة بل أكثر. ونستطيع أن نخرج منها ماءً حلوًا لا لنشرب منه فقط، وإنما نشرب ونوزع منه على العالم».

فهل هذا هو الدور الرسالي الذي ستقوم به مصر بين العرب؟ هل رسالتها في إحياء الفرعونية وفرعنة العرب جميعاً؟ وماذا يحدث لو أراد إخواننا المغاربة بالمثل أن يُبرِّروا العرب، ونازعهم في ذلك كل من العراقيين والشاميين واليمنيين، كل واحد منهم يباهي بجاهليته ويزعم أنها أحق بالسيادة؟ هل هذا هو السبيل الصحيح لجمع العرب، وهم بحمد الله وفضله مجتمعون فعلاً على الإسلام، لم تفرقهم إلا أمثال هذه الدعوات؟!.

□ وتجد مثل هذا الانحراف المنفر في التعليق على العصر الفرعوني في مقال (تي - سيدة من الشعب وجهت أحداث عصرها - العدد الثاني (ص ٢٥ - ٤٢)، حيث يتكلم الكاتب عن تقوية النفوذ المصري خارج الحدود، وعن منافسة الآشوريين والبابليين والحثيين لمصر في ذلك، وعن أساليب مصر

الفرعونية في نشر نفوذها عن طريق نشر التعليم المصري . وكل ذلك لا يعين على تدعيم الثقة بين العرب ولا يلد إلا الشر؛ لأنه يدعم مزاعم الذين يعيشون بالتفريق بينهم ويشكك في أهداف مصر من وراء مساعدة إخوانها العرب ومدّهم بالمدرسين . ولا سيما إذا كان الذي ينشر هذا الكلام صحيفة تصدرها وزارة الإرشاد القومي .

□ ومن أمثلة هذه المقالات المنحرفة مقال عنوانه (صراع القومية المصرية من غزو الإسكندر حتى الفتح الإسلامي - العدد الأول - ص ٣٠ - ٤٣) . وهو مقال طويل كله تقديس جنوني للفرعونية وخط من قدر العرب والإسلام ، ونزول بدوافع الفتح الإسلامي الأول في عهد الخلفاء الراشدين - الذين أنقذنا الله بهم من النار وهدى آباءنا وأجدادنا - إلى مرتبة السطو والقرصنة واللصوصية ، انظر إليه كيف يتحدث عن ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه ، حين يضعه بين جيايرة الرومان والمماليك ، حيث يقول : «فالخليفة يعزل عاملاً من أعدل عماله على مصر» ، ثم يعرض سياسته المعتدلة في فرض الضرائب ، قائلاً : «لقد دَرَّتْ اللَّفْحَةُ بِعَدِكَ يَا عَمْرُو . فيجيبه أعدلُ مَنْ وَكِي مِصرَ بما يُفِيدُ أنها أضرت بوليدها - العدد الأول ص ٣١ .

ويردف ذلك بحديث مثله عن أباطرة الرومان وبكوات المماليك ، يُصوِّر أن همهم كلُّه كان مصروفًا لاستغلال الشعب المستعبَد والتمتع على حساب كدِّه وشقائه . والمقال كله يشف عن عداوة عميقة لكل فكرة إسلامية أو عربية . فهو يرفع ذلك العهد الفرعوني الإقطاعي إلى مرتبة من القداسة تكاد ترد الناس إلى ضرب من الوثنية . وهو لا يوقر صحابة رسول الله الذين كان فتحهم لمصر خيراً وبركة على المصريين ، إذ أنقذهم من الضلال وأدخلهم في رحمة الله بدخولهم في الإسلام ، فهو حين يتحدث عن أولئك المجاهدين في نشر كلمة الله وهداية خلقه ، الذين عاشوا زاهدين ، ثم خرجوا من الدنيا لا

يملكون من حطامها شيئاً، يقرنهم بالوثنيين من الرومان واليونان، وبالفسقة والجبابة من الطغاة، كلهم عنده سواء، نجد ذلك في مثل قوله: «ولم تكن بيزنطة أرحم بالشعب المغلوب، ولا كان الولاة العرب - ص ٣١».

وفي قوله: «لم يكن المصري يملك شيئاً من أرضه ولا من غير أرضه. كلها إقطاعات للفرعون وأسرته، وللمعبد وسدنته، ثم للبطليموس فالإمبراطور في رومة وبيزنطة، ثم للخلفاء في شبه جزيرة العرب جنوباً وشمالاً<sup>(١)</sup>، ولمن جاء بعدهم من حكام مصر الأجانب - ص ٣١».

وفي قوله: «وأنت نجد أمثلة لهذه الاضطرابات والثورات على طول التاريخ المصري في العهد القديم، وبعد استتباب الأمر للبطالسة وإبان الحكم الروماني والبيزنطي والعربي والعثماني والفرنسي والأرنؤودي والاحتلال البريطاني - ص ٣٣».

وقوله: «حدث هذا بعد احتلال الرومان وبعد الفتح الإسلامي والغزو العثماني - ص ٣٥».

وقوله: «وكل همه إرضاء الملك البعيد إمبراطوراً أو خليفة أو سلطاناً - ص ٣٥».

□ ولقد بلغ بالكاتب تقديسه للوطنية المصرية بهذا المعنى الشعبي المتطرف حداً يقرب من الشرك، فكان من سوء اختياره للألفاظ أن وصفها بما اختاره الله جل وعلا لنفسه فقال: إنها لا تدركها سنة ولا نوم (ص ٢٦)، وأنزل الدين منزلة تلي في قداستها وسلطانها على النفوس هذه الوطنية، إذ جعل اعتناق المصريين للمسيحية مظهراً من مظاهر المقاومة الوطنية للاحتلال

(١) من الحقائق العلمية والتاريخية أن الفتح الإسلامي هو الذي ألغى نظام الطبقات للمرة الأولى في مصر وبه تحمرت الطبقة الكادحة في الزراعة وصار حتى تملك الأرض عاماً لكل الطبقات. والذي يجهل هذه الحقيقة يجهل تاريخ الإسلام في مصر.

الروماني، وأظهر عجبه لتحول المصري عن الوثنية إلى المسيحية متسائلاً: «كيف لم يحرص المصري على ديانته العتيقة وهي آخر صلة له بمجده الغابر؟ - ص ٢٦».

□ وفي «المجلة» بعد ذلك صور كثيرة من هذه الشعوبية البغيضة، في مثل مقال «فن التصوير المصري - العدد الأول ص ٤٤ - ٤٦» الذي يقدر فن الفراعنة الوثني وما اتخذوه لأنفسهم من آلهة بزعمهم، وفي مثل مقال «الفن المصري - إدراك القانون - العدد الرابع ٢٩ - ٣٣»، بما يتخلله من مجازفات مارقة في تعريف الدين والتدين والخلط بينهما وبين فنون الوثنية<sup>(١)</sup> اهـ.

□ ولله درّ من قال ساخراً مستهزئاً بدعاة الفرعونية من الشعوبيين الكارهين للإسلام الداعين إلى المصرية والمصرية فقط:

وإخنا تون للتوحيد داعٍ	قدماً قبل كل المرسلينا
إخنا تون عابد قرص شمس	بزعم الكفر شيخ المسلمينا
وكعبتنا الحبيبة لو أرادوا	لقالوا إنها كانت بسينا
إله القوم نيلهم العتيق	رسولهم غدا طمياً وطنينا
حضارة سبع آلاف لكفر	وفرعون استخف الصاغرينا
أليس النيل لي ومصر ملكي	وموسى ساحر ليث السنينا
نزيه صغيراً ثم يدعو	لذن غير دين الكافرينا
فميمكم وصادكم وراء	غدت وثناً وطاغوتاً لعينا
ونسبتكم لأمكم تلظي	ونسبتنا لدار المتقيننا
ونسبتكم لأهرام ووثن	ونسبتنا لتوحيد الأمينا
ونسبتكم لحتشيسوت كفر	ونسبتنا لخور الدار عيننا

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص ٥٣ - ٦١).

✽ اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية تحت إشراف سمسار الغرب أحمد أمين وتلميذه طه حسين تنظر بغير عين العرب وتعمل بغير عقل العرب :

□ يقول الدكتور محمد محمد حسين :

«سوف أتناول في حديثي هذا اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية كما تبدو من مطبوعاتها الوافرة الغزيرة، وهي اللجنة التي كان يشرف عليها أحمد أمين، ثم ورثها طه حسين بعد وفاته، وسأقسم منشوراتها إلى ثلاثة أقسام :

١ - البحوث والمحاضرات .

٢ - الكتب المترجمة .

٣ - المؤتمرات .

وأنا أعجل بتقديم النتيجة التي انتهيت إليها من بحث أعمال هذه اللجنة الثقافية ليضعها القارئ نصب عينيه على طول هذه المقال، هذه اللجنة كانت - ولا تزال - تنظر بغير عين العرب، وتعمل بغير عقل العرب، تهدف إلى غير أهداف العرب. إنها لا تزال كما كانت يوم أنشأها الذين كانوا يحرصون على أن يكون العرب ذليلاً لدول الاستعباد الغربي، لا يرون الأشياء إلا كما يراها الغربي، ولا يتذوقونها إلا كما يتذوقها، ولا يقدرونها إلا كما يقدرها، إنها لا تزال تعمل على ما يسميه دهاقنة الاستعباد الغربي التغريب. ويقصد به طبع العرب والمسلمين والشرقيين عامة بطابع الحضارة الغربية والثقافة الغربية، مما يساعد على إيجاد روابط الود والتفاهم بين الحمار وراكبه، وهي روابط تُفيد الراكب دائماً ولا تُفيد الحمار»<sup>(١)</sup> اهـ.

□ ثم قدّم الدكتور محمد محمد حسين لسموم هذه اللجنة بما نشرته

مثل كتاب «العالم العربي مقالات وبحوث» نشرته الإدارة الثقافية سنة ١٩٥٣

(١) المصدر السابق (ص ١١٤ - ١١٥).

مصدرًا بمقدمة لأحمد أمين رئيس هذه الإدارة وقت ذاك. ثم استعرض من هذا الكتاب مقالاً خطيراً للدكتور كامل عياد عن «مستقبل الثقافة في المجتمع العربي ص ١٤٣ - ١٦٧».

\* «مستقبل الثقافة في المجتمع العربي» مقال شنيع لكامل عياد يفضحه ويكشف ما فيه الدكتور محمد محمد حسين:

يتفوق فيه صاحبه على الدكتور طه حسين - صاحب «مستقبل الثقافة في مصر» - في جرأته على الدين وإسرافه في إنكار ما وراء المادة المحسوسة الملموسة من عالم الغيب، ومحاربة كل موارثنا الدينية والأدبية والاجتماعية على الإطلاق.

ويحار المؤلف كي يهش مندوب من مؤسسة روكفلر الأمريكية ويظهر البشاشة ولا يتردد في قطع الوعود بالمساعدة في إنشاء معهد للدراسة التصوف؟

□ يقول الدكتور محمد محمد حسين: «فالصوفية مذهب غير إسلامي في كثير من تفاصيله وشطحاته وتقاليده ونظمه الدخيلة، وخوضه فيما نهى الإسلام عن الخوض في تفاصيله، أو هو يبدو كذلك فيما هو مشهور عن كثير من فرقه التي تدعو إلى سلبية يائسة مستسلمة تعارض روح الإسلام معارضة صريحة وهو شيء آخر غير الزهد الذي عُرف عن بعض الصادقين من الصالحين في صدر الإسلام خاصة وفيما تلا ذلك من العصور»<sup>(١)</sup>.

□ ورد الدكتور محمد محمد حسين على كامل عياد الذي لا يرى الأديان إلا أوهاماً وخرافات وأساطير<sup>(٢)</sup>.

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص ١١٨ - ١١٩).

(٢) (ص ١٦٤) من كتاب «العالم العربي مقالات وبحوث» وانظر «حصوننا مهددة من داخلها» =

\* الدكتور محمد محمد حسين يبين حقيقة عبدالرزاق السنهوري الذي دعا إلى تبديل الشريعة الإسلامية ودعا إلى القانون الوضعي «القانون المدني العربي»:

□ قال الدكتور محمد محمد حسين بعد كلامه عن مقال كامل عياد. هذا هو أحد النموذجين اللذين أردت تقديمهما لتصوير ما تنشره الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية من بحوث ومقالات. أما النموذج الآخر فهو بحث الدكتور عبدالرزاق أحمد السنهوري أو مقاله عن «القانون المدني العربي ص ٥ - ٢٩».

□ يدعو السنهوري في مقاله هذا - إلى توحيد القانون المدني في سائر البلاد العربية، فيستثني من ذلك الحجاز واليمن؛ لأنهما يلتزمان الشريعة الإسلامية، (إلى أن يحين الوقت الذي تتمكن فيه من المشاركة في حركة التقنين المدني العربي ص ٨).

ويقول بعد ذلك: إن التقنين العربي يتنازعه تياران، أحدهما يمثل في القانون المصري، وهو تيار غربي خالص أو يكاد، والآخر يمثل القانون العراقي الحديث، وهو يمزج بين الشريعة الإسلامية والقوانين الغربية. ويدخل في القسم الأول الذي يصفه بأنه (ينتمي إلى الثقافة المدنية الغربية). مصر وسوريا ولبنان وتونس والجزائر ومراكش، بينما يدخل في القسم الثاني العراق والأردن وفلسطين.

□ وهو يصف القانون المدني الجديد في مصر بأنه قد جعل للشريعة الإسلامية بعض الاعتبار. ولكنه يعترف بأن (المشرع المصري بالرغم من كل ذلك لم يخط خطوة حاسمة في جعل القانون المدني مشتقاً في مجموعه من

الفقه الإسلامي). ويعتذر عن ذلك بأن المشرع المصري قد أخذ بأسباب الأناة والتبصر (وتربص حتى يأخذ الفقه الإسلامي بأسباب التطور - ص ١٠). ثم يعود فيؤكد أن هذا القانون (يمثل أصدق تمثيل للثقافة المدنية الغربية في العصر الذي نعيش فيه - ص ١٥).

□ أما القانون العراقي فهو يتميز عنده بأنه (أول قانون مدني حديث يتلاقى فيه الفقه الإسلامي والقوانين الغربية الحديثة جنباً إلى جنب بقدر متساو في الكم والكيف - ص ٩١٨. وهو يزي أن هذه التجربة (من أخطر التجارب في تاريخ التقنين الحديث). لأن وضع نصوص الشريعة الإسلامية إلى جانب النصوص الغربية قد (مكن لعوامل المقارنة والتقريب من أن تنتج أثرها، ومهد الطريق للمرحلة الثالثة والأخيرة في نهضة الفقه الإسلامي، يوم يصبح الفقه مصدراً لأحكام حديثة تجاري مدنية العصر وتساير أحدث القوانين وأكثرها تقدماً ورقياً. ص ١٩).

□ وهو يقدر (بعد أن أصبح الفقه الإسلامي والقانون المدني الغربي جنباً إلى جنب في صعيد واحد، أن يتكامل القانونان وأن يتفاعلا، هذا يؤثر في ذلك وقد يتأثر به. ومن ثم تقوم نهضة علمية حقة لدراسة الفقه الإسلامي في ضوء القانون المدني الغربي. وهذه الدراسة هي التي قصدت أن أصل إليها، حتى إذا آتت ثمارها وتقدمت دراسة الفقه الإسلامي إلى الحد الذي يجعله مصدراً لقانون مدني يجاري مدنية العصر ويساير ثقافة الجيل، عند ذلك نكون قد بلغنا المرحلة الثالثة والأخيرة، ويتحقق ببلوغنا هذه المرحلة الهدف المنشود - ص ٢٠). والهدف المنشود عنده هو الذي أشار إليه قبل ذلك بسطور قليلة حين قال: «والهدف الذي قصدت إليه هو أن يكون للبلاد العربية قانون واحد يشتق رأساً من الشريعة الإسلامية». ولكن كلامه الذي تلا ذلك - وهو كلام بالغ الخطورة - يكشف عن مبلغ ما في هذا الزعم من

إخلاص، وبيّن أنه ليس إلا خداعاً، وأن الشريعة الإسلامية التي يقصدها هي شيء آخر غير الشريعة التي أنزلها الله على سيدنا محمد ﷺ، والتي تمت نعمة الله علينا بإكمالها منذ نزول قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

فهي شريعة تستهدي (مدنية العصر) الغربية و(ثقافة الجيل) الغربية أيضاً، وتروض نفسها على أن ترتفع إلى مستوى شرائع الغرب، لأنها في زعم المؤلف لم تبلغ هذا المستوى. وقصدُ الكاتب إلى تطوير الشريعة الإسلامية واضح في مقاله هذا كل الوضوح. وهو يقصد بتطوير الشريعة الإسلامية جعلها ملائمة لنظم حياتنا ولأنماطها المنقولة عن الغرب المسيحي، أو الغرب اللاديني على الأصح.

فهو يريد أن يشكل الشريعة الإسلامية بشكل هذه الحياة، بل أن يشكل الحياة بشكل الشريعة، أي إنه يحكّم هذه الأنماط الغربية في الشريعة بدلاً من أن يحكّم الشريعة في اختيار ما يلائمنا من هذه الأنماط. أو بعبارة أخرى هو يعرض الشريعة على واقع الحياة، ولا يعرض واقع الحياة على الشريعة. وهو مع ذلك لا يميز بين الشريعة الإسلامية المنزلة من عند الله وبين القانون الغربي الذي صنعه المصالح والأهواء، بل الذي صنعه اليهودية العالمية في بعض الأحيان، كما هو الشأن في القانون الفرنسي الذي استمد منه القانون المصري بخاصة؛ لأن هذا القانون ثمره من ثمار الثورة الفرنسية اليهودية التي أصبحت فرنسا من وقتها دولة لا دينية من الناحية الرسمية على الأقل. وما وجه المقارنة بين قانون صنعه الإنسان وبين قانون منزل من عند الله العليم الخبير؟.

□ إن الذي يعتريه شك في أن الشريعة الإسلامية - كما هي في القرآن الكريم وكما بيّنتها السنة الشريفة - منزلة من عند الله، هو كافر. والذي

يؤمن بأنها منزلة من عند الله لا يعتريه شك في صلاحيتها كل زمان ومكان؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعلم الماضي والحاضر والمستقبل، قد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، بذلك وصف نفسه - سبحانه - في محكم كتابه، وبذلك يؤمن المسلمون.

□ والذي يهدف إليه السهوري هو شر الحلول؛ لأن الذي يفعله هو تبديل الشريعة الإسلامية. ولا شك أن تفاعل الشريعة الإسلامية السماوية مع شرائع الغرب الوضعية هو شر مما كان حادثاً من استعارة القانون الغربي كله أو بعضه؛ لأن من الممكن التخلص من الدخيل في هذه الحالة. أما في حالة الاندماج والتفاعل فإدراك الحدود بينهما صعب، وتخليص الشريعة الإسلامية مما دخلها من أسباب الزيغ والانحراف يكاد يتعذر بعد أن تتغلغل الروح الغربية في كيانهما، ويصبح الناتج من تفاعلهما شيئاً جديداً معقد التركيب تختلف خصائصه وصفاته عن كل من العنصرين المكونين له.

ثم إن الناس في الحالة الأولى يدركون إدراكاً واضحاً أن القانون الذي يحكمهم قانون دخيل. أما في الحالة الثانية فقد يتوهمون أن القانون الذي يحتكمون إليه قانون إسلامي، بل إن كاتب المقال يزعم لهم ذلك منذ الآن.

□ والواقع أن هذا الذي يفعله السهوري هو الذي يهدف إليه الاستعباد الغربي. يقول هـ. ا. ر. جب في كتابه «إلى أين يتجه الإسلام؟!» (ص ٣٢٨ - ٣٢٩) من طبعة لندن ١٩٣٢: «إن مستقبل التغريب والدور الذي سيلعبه في العالم الإسلامي لا يتوقف على هذه المظاهر الخارجية للتأثر والاقتراس؛ لأن الصورة الظاهرية ثانوية، وكلما كان التقليد في المظاهر أكمل كان امتزاج الشيء المنقول بنفس المقلدين أقل؛ لأن فهم الروح والأصول التي تنطوي عليها المظاهر الخارجية فهماً كاملاً لا بد أن يصحبه إدراك التعديلات

التي تتطلبها الظروف المحلية. ويمكن أن يزول من العالم الإسلامي كثير من النظم الغربية التي نراها فيه الآن، ثم لا يكون مع ذلك أقل حظاً من الاستغراب، بل ربما كان أوفر حظاً. وإذا أردنا أن نعرف المقياس الصحيح للنفوذ الغربي ومدى تغلغل الثقافة الغربية في الإسلام كان علينا أن ننظر إلى ما وراء المظاهر السطحية، علينا أن نبحث عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التي ابتكرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية بعد أن تُهضم وتصبح جزءاً حقيقياً من كيان الدول الإسلامية، فتتخذ شكلاً يلائم ظروفها».

□ يعود كاتب مقال اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية فيؤكد أن هدفه هو تغريب الشريعة الإسلامية نفسها وفرئجتها، أو بعبارة أخرى إيجاد «إسلام غربي» إن صح هذا التعبير، وذلك حيث يقول: «فالتيجة الحتمية إذن لوضع القانون المدني المصري ثم لوضع القانون المدني العراقي، مشتقاً منه ومن الفقه الإسلامي على السواء هي النهوض بدراسة الفقه الإسلامي في ضوء القانون المدني الغربي - ص ٢١».

ومع ذلك فهذا القانوني الذي يظن بالتشريع الإسلامي التخلف عن القانون الغربي يعترف بأنه لم يدرس الشريعة الإسلامية إلا في وقت حديث متأخر جداً، حين اشترك في وضع القانون المدني العراقي، فأتيح له الاطلاع على بعض نصوص الفقه الإسلامي. وهو هنا يعترف اعترافاً صريحاً بأن اطلاعه على الفقه الإسلامي جديد تاريخياً، ومحدود موضوعاً، لا يتجاوز ما أتيح له أثناء اشتراكه في لجان وضع القانون العراقي، وأنه لم يمنحه من وقته سنة من عشرات السنين التي أفناها في دراسة القانون الفرنسي. والواقع أن هذا الجهل بالشريعة الإسلامية يعلل فتنته بالقوانين الغربية، التي حدثت به إلى المجاهرة بأن تكون روح التقنين الغربي وأسلوبه هما قوام نهضة التشريع

الإسلامي، وهو بذلك معذور لجهله حسب اعترافه، ومن جهل شيئاً عاداه. ولكن من الظلم للناس وللإسلام ولللقانون أن يسلم زمام التشريع في البلاد الإسلامية إلى الذين يجهلون شريعتها. ومن الواضح أن الرجل حين رأس لجان القانون المدني الجديد في مصر لم يكن على معرفة بالشريعة الإسلامية؛ لأنه إنما اتصل بها حسب اعترافه أثناء اشتراكه في لجان القانون المدني العراقي، وقد كان ذلك بعد وضع القانون المدني المصري الجديد. واعترافه في هذا الصدد صريح، إذ يقول: «وأكثر ما كان درسي للفقهاء الإسلامي عند وضع القانون المدني العراقي. فإن هذا القانون كما قدمت مزيج صالح من الفقه الإسلامي والقانون المصري الجديد. فأتاح لي اطلاعي على نصوص الفقه الإسلامي - سواء كانت مقننة في المحلّة<sup>(١)</sup> ومرشد الحيران، أو كانت معروضة عرضاً فقهياً في أمهات الكتب وفي مختلف المذاهب - أن ألحظ مكانة هذا الفقه وحظه من الأصالة والابتداع، وما يكمن فيه من حيوية وقابلية للتطور - ص ٢٢».

□ ويرسم كاتب المقال منهجاً يقترحه لدراسة الفقه الإسلامي (لإحيائه والنهضة به نهضة علمية صحيحة) حسب زعمه، فيقرر في بدء كلامه أن (الأساس في هذه الدراسة أن تكون دراسة مقارنة، فيُدْرَس الفقه الإسلامي في ضوء القانون المقارن). ولست أدري ما حاجتنا إلى هذه المقارنة، ولماذا كل هذا الحرص على أن لا نخالف التشريع الغربي ولا نبتعد عن روحه؟ أليس في ذلك قتل لشخصيتنا وإفناء لها في الغرب، مما لا يخدم سوى مصالح الاستعباد والتبشير؟ ذلك إلى ما يتضمنه من تبديل شرع الله وتحريف الكلم

(١) المقصود هو (مجلة الأحكام العدلية) التي أصدرتها الدولة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر متضمنة صياغة الأحكام الإسلامية - على المذهب الحنفي - في شكل مواد على النمط الغربي.

فيه عن مواضعه، وهو كفر صريح، وليس بعد الكفر ذنب.

□ ويطلب الكاتب بدراسة مذاهب الفقه الإسلامي المختلفة، السني منها والشيعة والخارجي والظاهرية: (وتُستكشَف من وراء كل هذه قواعد الصناعة الفقهية الإسلامية، ثم تقارن هذه الصناعة بصناعة الفقه الغربي الحديث. حتى يتضح ما بينهما من الفروق ووجوه الشبه، حتى نرى أين وقف الفقه الإسلامي، لا في قواعده الأساسية ومبادئه، بل في أحكامه التفصيلية وفي تفرعاته، فتمتد يد التطور إلى هذه التفصيلات، على أسس تقوم على ذات الفقه الإسلامي وطرق صياغته وأساليب منطقته. وحيث يحتاج الفقه الإسلامي إلى التطور يتطور، وحيث يستطيع أن يجاري مدينة العصر يبقى على حاله دون تغيير. وهو في الحالين فقه إسلامي خالص (١٤) لم تداخله عوامل أجنبية فتخرجه عن أصله (١٤) - ص ٢٣).

□ ألا تعجب معي لهذا الرجل الذي يزعم بعد كل ما قاله أن الفقه الإسلامي الذي يسعى إلى تطويره تحت وصاية التقنين الغربي وفي ولايته هو فقه إسلامي خالص؟ وكيف يكون خالصاً وهو يحكِّم فيه (روح العصر)، وهي روح غربية حسب اعترافه في كل موضع من مقاله؟ ومن الواضح أن (مدينة العصر) التي يطلب السنيون إلى الفقه الإسلامي أن يجارها، ويطلب إلى واضعي القانون أن يتخذوها مقياساً لصلاحية الفقه الإسلامي، هذه المدينة هي مدينة غربية فرضها الاستعباد الغربي ونجح في ترويجها وفي إرساء دعائمها وتنشئة الرجال الذين يسهرون عليها ورعاية هؤلاء الرجال ودفعهم إلى مناصب القيادة والزعامة، بما يسمح لهم أن يرعوا جيلاً جديداً من أتباعهم، ثم يرعى هذا الجيل جيلاً من بعده. وهكذا دواليك، فتصبح قيادة المسلمين الفكرية والسياسية دائماً في يد هذه العصابة، لا يسمع الناس إلا كلامها وكلام أذنانها، ولا يرون إلا صورها وصور أذنانها، ولا يرقى أحدهم إلى مرتبة من مراتب الشرف ولا يُفْتَح له باب من أبواب الرزق إلا إذا

حصل على جواز المرور من هذه العصاة التي تسد كل منفذ وتتحكم في كل باب وتحتل كل معقل. ويظل المسلمون هكذا محكومين في حقيقة الأمر بالاستعباد الغربي وهم يظنون أن حكامهم هم إخوانهم وأبناء أمتهم.

□ ويقترح السنهوري بعد ذلك إنشاء معهد خاص يلحق بجامعة الدول العربية لدراسة الفقه الإسلامي حسب ذلك المنهج الذي يقترحه. وهنا يلتقي السنهوري بطه حسين، الذي اقترح في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر - الفقرة ٤٩) إنشاء معهد للدراسات الإسلامية في كلية الآداب. كما يلتقي بمحمد خلف الله في اقتراحه الذي تقدم به إلى وزارة التربية والتعليم عن إعداد مدرس الدين، فاقترح فيه (أن يعاد النظر في تكوينه وإعداده وأن يرسم لذلك منهج يحقق له عمق الثقافة وحرية الفكر). وبنى على ذلك اقتراحاً بإنشاء (قسم أو شعبة للدراسات الإسلامية في كلية للآداب بالجامعات المصرية) (تدرس فيما تدرسه «سيكولوجية الدين» و«النظم الدينية والأخلاقية المقارنة» ولغة أو لغتين شرقيتين كالفارسية والأردية، ولغة أو لغتين غربيين، ليكونوا على اتصال بتيارات التفكير الثقافي في الشرق الإسلامي وفي الغرب)<sup>(١)</sup>.

□ ومع ذلك كله فليس للشريعة الإسلامية من الاعتبار عند كاتب هذا المقال أكثر مما للقانون الروماني. فالغاية عنده من إنشاء ذلك المعهد الذي اقترحه هي أن تنتهي هذه الدراسة بعد عشرات من السنين إلى أن يتجدد شباب هذا الفقه، وتدب فيه عوامل التطور لروح العصر. وتكون نهضة الفقه الإسلامي هذه شبيهة بنهضة القانون الروماني في العصور الوسطى. ونبئت الفقه الإسلامي قانوناً مدينياً متصوراً يجاري المدنية الحديثة. وينبثق هذا القانون

(١) مجلة الأسرة - يصدرها قسم اللغة العربية بكلية الآداب بالإسكندرية - العدد السادس سنة

الحديث من الشريعة الإسلامية كما انبثقت الشرائع اللاتينية والشرائع الجرمانية من الفقه الروماني - ص ٢٤).

مثل هذا الكلام لا يمكن أن يصدر عن مسلم يعتقد أن الشريعة الإسلامية منزلة من عند الله، وأنها حدود الله، لا يتعداها إلا كافر ظالم لنفسه.

□ ثم يأخذ الكاتب في بيان ما يتضمنه التقاء القانون الغربي بالفقه الإسلامي من وجوه واحتمالات، ويخرج القارئ من كلامه بأن ما يسميه (اشتقاق القانون من الشريعة الإسلامية) ليس في حقيقة الأمر إلا إخضاع الشريعة الإسلامية لأهواء العصر وشهواته وهو ما يسميه (مدنية العصر). وخلاصة ما يقوله هنا أنه لا يأخذ بحكم الشرع إلا حيث يتفق تمامًا مع روح القوانين المدنية المستجلبية من أوروبا. ثم هو يُعدّل الحكم الشرعي أو يلغيه وينسقطه حسب مبلغ تعارضه مع هذه القوانين الغربية الأصول، التي هي في زعمه (أصلح للعصر) أو (تجاري مدنية العصر) أو (تساير روح العصر)، حسب تعبيره في مواضع مختلفة من هذا المقال.

□ وتطوير الفقه الإسلامي الذي يدعو إليه الكاتب، أو تبديله على الأصح، وهو تطوير وتبديل لا يقف عند حد، حسب اعترافه هو نفسه حيث يقول: (فالهدف الذي نرمي إليه هو تطوير الفقه الإسلامي وفقًا لأصول صناعته، حتى نشق منه قانونًا حديثًا يصلح للعصر الذي نعيش فيه. فإذا استخلصنا هذا القانون في نهاية الدرس وأبقيناه دائم التطور حتى يجاري مدنيات العصور المتعاقبة، فقد تكون أحكامه في جزء منها، قل أو كثر مطابقة لأحكام القانون المدني العراقي أو لأحكام القانون المدني المصري أو لأحكام كل من القانونين... إلخ ص ٢٨). والمهم في ذلك كله أن هذا التطور الدائم سوف ينتهي بذلك التشريع الإسلامي المزعوم في المدى القريب أو البعيد إلى أن يصبح شيئًا مختلفًا عن الإسلام الذي أنزل على نبينا عليه

الصلاة والسلام اختلافاً تاماً، بل إنه كذلك منذ بدء وضعه أو التفكير فيه كما هو ظاهر في هذا البحث.

\* الدكتور محمد محمد حسين يفضح عمل لجنة الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية ورئيسها الدكتور طه حسين في الكتب التي ترجموها وأنهم استوحوا السفارة الأمريكية واليونسكو في اختيار ما ترجموه:

□ يقول الدكتور محمد محمد حسين «هل يعقل عاقل منصف أن يلجأ العرب إلى السفارة الأمريكية مثلاً لتختار لهم ما تراه نافعا للعرب ومحققاً لنهضتهم، ومعيناً على طرد اليهود وإجلالهم، وتصفيّة لشركات البترول وخرابها؟ لقد فعلت اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية ذلك! استوحت السفارة الأمريكية في بعض ما اختارته مما ترجمته، واستوحت اليونسكو في بعضه الآخر. وهي نفسها تعترف بذلك حيث تقول في نشرتها الثقافية التي عرضت فيها نشاطها بين سنتي ١٩٤٦ - ١٩٥٦ (كذلك اتفقت الإدارة الثقافية بعد موافقة المكتب الدائم على أن تتولى نشر بعض الكتب الهامة المترجمة بمعرفة القسم الثقافي بالسفارة الأمريكية. وقد قُدِّمت فعلاً إلى الطبع على هذا الأساس أصول كتاب مترجم إلى العربية، ويشتمل على مقالات للكاتب الأمريكي الكبير إمرسون - ص ٢٥)<sup>(١)</sup>.

وتقول كذلك: (اتصلت الإدارة الثقافية ببعض الهيئات العالمية

(١) طبعت اللجنة بعد ذلك كتابين مما أوحى به السفارة الأمريكية. وهما (الثقافة والحرية) لجون ديوي، الذي أفسد المتأمركون تربية شبابتنا باسمه، و(انتصار الحضارة) لبرستد الذي أوفده المليونير اليهودي المتستر تحت النصرانية روكفلر في سنة ١٩٢٦ ليعرض على مصر عشرة ملايين من الدولارات لتأسيس معهد للدراسات الفرعونية يعين على سلخ مصر من عروبته.

المختصة<sup>(١)</sup> ، وحصلت منها على كشف بأسماء الكتب التي تراها تلك الهيئات داخلة في إطار هذا البرنامج). وسوف أعرض في هذا المقال نموذجين من هذه السموم التي تدس على العرب باسم جامعتهم في كتابين، أحدهما مما أوحى به السفارة الأمريكية وهو (مخترات من إمرسون)، والآخر مما أوصت به اليونسكو وهو (قصة الحضارة) لول ديورانت. وقبل أن أتناول هذين الكتابين أحب أن أؤكد لجامعة الدول العربية وللجنتها الثقافية الموقرة التي يرأسها طه حسين أن العرب لم يغلبوا من ضعف في الفلسفة ولا الآداب ولا التاريخ. ولكنهم غلبوا وضربت عليهم الذلة لأنهم متخلفون في العلوم التجريبية المادية بكل فروعها الكيميائية والطبيعية والميكانيكية، النظرية منها والتطبيقية، غلبوا لأنهم لا يملكون من المصانع ومن أدوات القتال ما يناهضون به عدوهم وما يتحررون به من سجنه الاقتصادي، الذي يسخرهم فيه لجمع الثروات له كما يسخر العبيد ثم يحاربهم بهذه الثروات نفسها، ويشترى بها من رجالهم من يقوم على حراسة هذا السجن الكبير، فيقيم فيه معبداً يسبح كهنته بحمد آلهتهم التي يعبدونها من دون الله. وينكل بالذين ينبهون النائمين والغافلين والمخدوعين، أو يطادهم بالإشاعات الكاذبة والأضاليل الباطلة حتى يلبس على الناس أمرهم ويجعلهم موضع السخرية والاستهزاء.

□ إن الجماعات البشرية في الدول والحكومات، والجيوش في ميادين القتال، والفرق الرياضية في الساحات، تميز نفسها بمختلف الشارات، فتتخذ الأعلام والأنشيد وأنماط الأزياء والعلامات والأشعرة. تفعل ذلك لتميز نفسها من غيرها فلا تضل في الزحام ولا تذوب عند الاختلاط، ولا تنحل رابطتها عند المصادمة والنزال.

(١) المقصود بها هيئة اليونسكو التي يسيطر عليها - كما هو الشأن في أكثر مؤسسات الأمم المتحدة - الصهيونية العالمية الهدامة.

□ وللعرب طابع يميزهم، ولهم شخصية قد ضلوا عنها في عصور الضعف والخمول وأضلهم عنها المستعدون وأذئابهم. ولن تتحقق لهم نهضة إلا إذا أحيوا هذه الشخصية، وتمسكوا بمقوماتها، وتعصبوا لرموزها وشاراتها، وميزوا أنفسهم بطابعهم الخاص. وسيظلون بغير ذلك أذئاباً للمستعبدین ينقادون ولا يقودون، وأبواقاً ينشرون ما يلقي إليهم من قول ويرددونه في الأجواء، لا يزيد عملهم فيه عن مجرد تضخيمه. ذلك لأنهم لا يتكرونها حتى يحسوا في أنفسهم القدرة على الابتكار، وحتى يكونوا جميعاً متماسكين فيتولد من اجتماعهم وتماسكهم قوة. وهم لا يحسون القدرة على الابتكار إلا إذا استيقنوا أنهم عريقون في هذا الباب. ولا يجتمعون ويتماسكون إلا إذا عرفوا خصائصهم الأصلية التي تمنعهم من أن يذوبوا في غيرهم فتذهب قواهم شعاعاً وتفرق بدداً.

□ لا يبلغ العرب درجة الأستاذية في هذه العلوم الجديدة التي أذلهم عدوهم بتفوقه عليهم فيها إلا إذا أصبحت هذه العلوم ملكاً لهم، وهم لا يملكون هذه العلوم ولا يحسون أنها علوم عربية إلا إذا قرءوها بالعربية وكتبوها بالعربية. وسيظلون يحسون أنهم غرباء عليها وأنهم متطفلون على أصحابها طالما ظلوا يقرءونها ويكتبونها بغير لغتهم.

ولكن اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية، وعلى رأسها طه حسين الذي تشهد كتبه أنه لم يكن إلا بوقاً من أبواق الغرب، وواحدًا من عملائه الذين أقامهم على حراسة السجن الكبير، يروج لثقافته ويعظمها، ويؤلف قلوب العبيد ليجمعهم على عبادة جلاديهيم. طه حسين الذي لم يمل من الكلام عن جامعة البحر الأبيض المتوسط، التي دعت إليها فرنسا بالأمس والتي تدعو إليها أمريكا اليوم. طه حسين الذي يزعم لمصر أنها جزء من البحر الأبيض المتوسط في مقومات شخصيتها، وليست جزءاً من عرب نجد

واليمن والبحرين والعراق والسودان. طه حسين الذي لم يبدُ العرب في وهمه أمة؛ لأن قوام الدول في زعمه هو المنافع المادية؛ ولأن (تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية، ولا قواماً لتكوين الدول)<sup>(١)</sup>. طه حسين هذا لا يُقِرُّ معنا هذه الحقيقة؛ لأنه يزعم للعرب أن السبيل إلى نهضتهم ليس هو ترجمة العلوم، ولكن السبيل إلى نهضتهم أن يذوبوا في الغرب، وأن يُخلَعُوا من أنسابهم ويُقلَعُوا من تُرْبَتِهِمْ لِيُغْرَسُوا في تربة الغرب، ولذلك فهو يهلك أموالهم في ترجمة شكسبير الذي ترجمت رواياته من قبل أكثر من مرة ليحابي بها بطانته وحزبه فيغدق عليهم مما تحت يده، بل هو يهلك أموالهم في ترجمة ما لَعِنَ به أجدادهم، وما سُبَّ فيه أسلافهم، وسُفِّهَ دينهم، واقترى على نبيهم.

ولو أنصف طه حسين، ولو أنصف كل القائمين على الترجمة في هذا البلد من مثل إدارة الثقافة بوزارة التربية ومجلس الآداب وغيرها، لجعلوا كل همهم مصروفًا إلى نقل العلوم التجريبية والرياضة وحدها لا يشتغلون بترجمة غيرها حتى نستكمل نقصنا فيها؛ لأن الاشتغال بنقل كتب الأدب والفلسفة والتاريخ والتربية والأخلاق وما شاءوا من الثقافات الإنسانية، على هذا النحو الذي تسوده الفوضى وسوء الاختيار - بل سوء القصد في كثير من الأحيان - يضر مرتين: يضر بإفساد أذواق شبابنا وتدمير كياناتهم، وتحويل شخصيتهم بحيث يصبحون غرباء بين قومهم، ثم يصبح قومهم بعد قليل هم الغرباء بينهم حين يكثر عددهم ويكتف جَمْعُهُمْ، ويضر مرة ثانية بتبديد الجهد والمال في غير وجهه وصرف العرب عن الطريق الصحيح إلى تحررهم ثم

(١) «مستقبل الثقافة في مصر» (ص ١٩). ويراجع في بسطه الفكرة كلها الفقرتان الثانية والثالثة (ص ١٢ - ٢٠) من طبعة المعارف سنة ١٩٤٤.

سيادتهم. ولو كان لي أن أقترح على اللجان الثقافية والهيئات الجامعية على اختلافها، لاقترح أن يبدؤوا بترجمة كتب المراجع في الطب والهندسة والعلوم والزراعة التي يدرسها طلاب الجامعات العربية. فهم بذلك يصيبون غرضين: إنهم يسرون سبل العلم للطلبة العرب ويخففون عن آبائهم بعض الأعباء، بإغنائهم عن الطبقات الأوروبية الباهظة الثمن، والتي لا يتيسر وجودها في كثير من الأحيان؛ لأن أصحابها يستطيعون أن يمنعوا تصديرها إلينا حين يشاءون وهم في الوقت نفسه يخطون بهذا العمل خطوة واسعة نحو تعريب هذه العلوم التي لا تزال تدرس في جامعات مصر باللغة الإنجليزية»<sup>(١)</sup> اهـ.

□ ويوضح الدكتور محمد محمد حسين بصمات اليهودية في كتابي إمرسن وديورانت:

وأن إمرسون يزعم أن الدين يتجدد دائماً وأن الأنبياء كانوا ولا يزالون اليهود في ثياب الكهنة، ويقرن رسالات الأنبياء بآراء الفلاسفة وأصحاب المذاهب الضالة، ويحض على التنكّر للمقررات الدينية باسم الفكر، ويتعقب فضائل الدين بالتسفيه والسخرية.

أما كتاب «قصة الحضارة» لول ديورانت فيتساءل إن كان المسيح عليه السلام قد وُجد، ويشكك في نسبه وينكر معجزاته، ويتناول حياة نبينا ﷺ بهذا الأسلوب الإلحادي نفسه ويذهب الدكتور إلى أن نقل هذه الكتب خطر، ولا يكفي تكليف أحد المسلمين بالردّ والتعليق عليها<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

(١) «حصوننا مهددة من داخلها» (ص ١٣٨ - ١٤٢).

(٢) راجع المصدر السابق (ص ١٤٣ - ١٥٥).

\* الدكتور محمد محمد حسين يفضح المؤتمرات المشبوهة لضرب العرب  
والفصحى:

تحت إشراف جامعة الدول العربية مثل مؤتمر التضامن الثقافي والاقتصادي بين دول البحر الأبيض المتوسط الذي انعقد في باليرمو سنة ١٩٤٥، وغيره من المؤتمرات التي كانت فيها الدعوة إلى وضع معجم جديد يُسمى «معجم العامة» وإلى إلزام مؤلفي الكتب المدرسية بالتزامه، وتمزيق العرب بالدعوة إلى تأليف معجم لكل بلد عربي على حدة. واقتراحات بمسخ قواعد اللغة والنحو والخط.

\* لله درّ الدكتور محمد محمد حسين من فارس تحت راية القرآن:

□ كان - رحمه الله - واحداً من أولئك النادرين الذين اشتدت حاجة الأمة إليهم في وقت علا فيه طوفان الانبهار بالحضارة الغربية، وطفى فيه تيار العلمانية، واشتدت فيه ظلمات الجاهلية المادية، وفاح فيه لهيب سياط الدعوة إلى جهنم.

كان - رحمه الله - يصارع رموز الانهزامية الفكرية على حلبة التخصص الثقافي، قاوم الطوفان وسبح ضد التيار في وقت ندر من سبح ضد هذا التيار الجارف، وأضاء الدرب في وقت اشتدت فيه حلقة ظلمات التغريب، وهو وإن سار في الدرب معه من يضيئون معالم الانفراد، إلا أن انفراد جهود كل منهم فيما يسره الله جعل المسير موحشاً لولا الأُنس بالله واستحضار معيته للمؤمنين.

\* الحاجة الشديدة إلى إعادة النظر في تقويم الرجال:

□ قال الدكتور محمد محمد حسين:

«أحب أن ألفت النظر إلى أمرين يجب أن يضعهما الباحث في هذا

الموضوع نُصِبَ عينيه، لكي يأمن الزلل، ولكي لا يضل الطريق، ولكي لا يُخدَع عن حقائق الأمور.

أحد هذين الأمرين هو حاجتنا الشديدة إلى إعادة النظر في تقويم الرجال؛ لأن كثيراً ممن نعتبرهم دعائم النهضة الحديثة لم يصبحوا كذلك في أوهام الناس إلا بسبب الدعايات المغرضة، التي أرادت أن تضعهم في هذه المنزلة، لتحقق بذلك أغراضها في نشر مذاهبهم والتمكين لأرائهم؛ ولأن كثيراً من الآراء المنحرفة التي لم تكن تستطيع أن تجد طريقها إلى الفكر الإسلامي وإلى مجتمعاته، قد أصبح قبولها ممكناً، بنسبتها إلى هذه الزعامات وإلى هؤلاء الأئمة، الذين لا يتطرق إلى الناس شك في إخلاصهم وعلمهم.

والواقع أن كثيراً من هؤلاء الرجال قد أحيطوا بالأسباب التي تبني لهم مجداً وذكراً بين الناس، ولم يكن الغرض من ذلك هو خدمتهم، ولكن الغرض منه كان ولا يزال هو خدمة المذاهب والآراء التي نادوا بها والتي وافقت أهداف الاستعمار ومصالحه. فقد أصبح يكفي في ترويج أي مذهب فاسد في تأويل الإسلام - كما لاحظ جب في كتابه (Modern Trends in Islam) أن يقال: إنه يوافق رأي فلان أو فلان من هؤلاء الأعلام. ويكفي في التشهير بأي رأي سليم أن يُنسب إلى ضيق الأفق، الذي لا يلائم ما اتصف به هذا أو ذلك من سعة الأفق والسماحة وصحة الفهم لروح الإسلام، على ما تزعمه الدعايات. وليس مهماً أن يكون ذلك عن حُسن قصدٍ منهم أو عن سوء قصد، وليس مهماً أن يكون الاستعمار هو الذي استخدمهم لذلك، ووضَع على ألسنتهم وأقلامهم هذه المذاهب والآراء، أو أن تكون هذه الآراء قد نشأت بعيدة عن حضائنه ورعايته، ثم رآها نافعةً له، فاستغلها وعمل على ترويجها. المهم في الأمر هو أن المجد الذي يُنسب لهؤلاء الأفراد ليس من صنعهم ولا هو من صنع الشعوب التي عاشوا فيها، ولكنه من صنع القوى

التي استخدمتهم أو التي تريد أن تستغلهم، سواءً كانت هذه القوى هي الاستعمار أو هي الصهيونية العالمية بمختلف وسائلها وأجهزتها.

□ وخطة الاستعمار والصهيونية العالمية في ذلك كانت تقوم - ولا تزال - على السيطرة على أجهزة النشر التي نسميها الآن (الإعلام)، وإلقاء الأضواء من طريقها على كتاب ومفكرين من نوع خاص، يُنَوَّنُونُ وينشئون بالطريقة التي يُبنى بها نجوم التمثيل والرقص والغناء، بالمدائمة على الإعلان عنهم، والإشادة بهم، وإسباغ الألقاب عليهم، ونشر أخبارهم وصورهم. وذلك في الوقت الذي يُهمَلُ فيه الكتاب والمفكرون الذين يصورون وجهات النظر المعارضة، أو تشوّه آراؤهم وتُسَفّه، ويُشهرّ بهم. ثم هي تقوم على تكرار آرائهم آتًا بعد آتٍ لا يَمَلُّونَ من التكرار؛ لأنهم يعلمون أنهم يخاطبون في كل مرة جيلاً جديداً، أو هم يخاطبون الجيل نفسه، فيتعهدون بالسقي البذور التي ألقوها من قبل.

□ ونحن حين ندعو إلى إعادة النظر في تقويم الرجال، لا نريد أن ننقص من قدر أحد، ولكننا لا نريد أن نقوم في مجتمعنا أصناماً جديدة معبودة لأناس لا تقبل القَدْحُ والنقد، حتى إن المخدوع بهم والمتعصب لهم والمروج لآرائهم ليهيج ويموج إذا وصف أحد الناس إماماً من أئمتهم بالخطأ في رأي من آرائه، في الوقت الذي لا يهيجون فيه ولا يموجون حين يوصف أصحاب رسول الله ﷺ بما لا يقبلون أن يوصف به زعماءهم المعصومون. فيقبلون أن يوصم سيف الإسلام خالد بن الوليد بأنه قتل مالك بن نويرة في حرب الردة طمعاً في زوجته، ويرددون ما شاع حول ذلك من أكاذيب. ويقبلون أن يُلطَّحَ تاريخُ ذي النورين عثمان بن عفان بما ألصقه بن ابن سبأ اليهودي من تُهم. ويقبلون ما يروي الأصبهاني في كتاب الأغاني في سَكينة بنت سيد شباب أهل الجنة الحسين من أخبار اللهو والمجون. ويرددون ما يذاع

من أخبار هارون الرشيد الذي كان يحج عاماً ويغزو عاماً ثم أصبح في أوهام أبناء هذا الجيل رمزاً للخلاعة والترف، بل كاد يصبح رمزاً للإسراف في طلب الشهوات، وصورة من أبطال (ألف ليلة وليلة). يقبلون ذلك كله، ثم يرفضون أن يمس أحد أصنامهم بما هو أيسر منه. ويحتمون بحرية الرأي في كل ما يخالفون به إجماع المسلمين، ويأبون على مخالفتهم في الرأي هذه الحرية. يخطئون كبار المجتهدين من أئمة المسلمين، ويجرحونهم بالظنون والأوهام ويثرون لتخطيء ساداتهم أو تجريحهم بالحقائق الدامغة.

□ أما الأمر الآخر الذي أحب أن ألفت النظر إلى خطورته، فهو تطوير الإسلام لكي يوافق الأمر الواقع في حياتنا العصرية. وقد بدأ هذا الاتجاه كما رأينا في أول الأمر بإحساس الحاجة إلى مواجهة الأفضية الجديدة باستنباط أحكام شرعية توافقها، ورأينا صدى ذلك فيما كتبه الطهطاوي وخير الدين التونسي.

فكتب الطهطاوي في «مناهج الألباب» عن (اقتضاء الأحكام والمعاملات العصرية تنقيح الأفضية والأحكام الشرعية بما يوافق مزاج العصر بدون شذوذ)، مقترحاً وضع مدونة قانونية عصرية شاملة، ودعا خير الدين إلى الاجتهاد في أضييق الحدود، بإعادة النظر في الأحكام المترتبة على العادات إذا تغيرت، ورد على من احتج بأنه لا يحق لنا (إحداث شرع جديد لعدم أهليتنا للاجتهاد) بأن هذا (ليس بتجديد اجتهاد من المقلدين، بل هو قاعدة اجتهاد فيها العلماء وأجمعوا عليها).

كانت الدعوة إلى الاجتهاد في هذا الطور مقتصدة غاية الاقتصاد، تدعو إليه في أضييق الحدود، ولا تنكر التقليد بل هي تسلم به، وتسلم بأن أهل هذا العصر ليسوا أكفاء للاجتهاد. ومن كان منهم قادراً على الاجتهاد لا يطمح إلى أكثر من الاجتهاد في حدود مذهب من المذاهب الأربعة، لا

يتجاوزه إلى الاجتهاد المطلق، الذي يسمو فيه بنفسه إلى مرتبة الأئمة الأربعة ومن في طبقتهم من المجتهدين الأولين.

ثم إن الدعوة أصبحت من بعد على يد محمد عبده ومدرسته، ولا سيما رشيد رضا، دعوة عامة تهاجم التقليد وتطالب بإعادة النظر في التشريع الإسلامي كله دون قيد، فانفتح الباب على مصراعيه للقادرين ولغير القادرين، ولأصحاب الورع ولأصحاب الأهواء، حتى ظهرت الفتاوى التي تبيح الإفطار لأدنى عذر، توسعاً في قوله تعالى ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ واستناداً إلى إباحته في غزوة الفتح، وظهرت الفتاوى التي تبيح المعاملات التي تقوم على الربح، وتقسم الربا إلى ربا ظاهر وهو ربا النسيئة، الذين يتضاعف فيه الدين أضعافاً مضاعفة، وربا خفي وهو ربا الفضل، ولا تحرم إلا ربا النسيئة، أو تحرم الربا في أصناف معينة «الخلافة ٩٨» «يسر الإسلام ٥٨»، وظهرت الفتاوى التي تحظر تعدد الزوجات وتحظر الطلاق وتجزئ تدخل القضاء فيهما. وظهرت الآراء التي تجعل الإسلام داخلاً في هذا المذهب أو ذلك من المذاهب السياسية والاجتماعية التي ابتدعتها الحضارة الغربية الحديثة. وبذلك تحول الاجتهاد في آخر الأمر إلى تطوير للشريعة الإسلامية يهدف إلى مطابقة الحضارة الغربية، أو الاقتراب منها إلى أقصى ما تسمح به النصوص من تأويل على أقل تقدير.

□ الاجتهادُ في الشريعة حقٌّ لكل عالم قادر عليه، ومن القدرة عليه أن يُلِمَّ بكل ما قيل في المسألة التي يبحثها؛ لأنه لا يدري إن فاته بعضها أن يكون هذا الذي فاته سبباً في عدوله عن رأيه لو اطلع عليه؛ لأن فيه من الحقائق ما غاب عنه ولم يدخل في تقديره. وشأن الاجتهاد الديني في ذلك هو شأن الاجتهاد في أي فرع من فروع المعارف والفنون. فليس يباح للطبيب أن يجتهد حتى يبلغ من الإمام بالطلب حداً يَعْتَرِفُ له عنده أصحابُ هذا العلم

بالقدرة على الاجتهاد فيه. وليس يُقبل من المهندس أن يطَّلع على الناس في الهندسة برأي جديد حتى يثبت عند علماء الهندسة أنه قادر على الابتكار. بل لا يُقبل من رجال القانون الوضعي الذي أخذناه من الغرب في كل فروعه أن يجتهدوا فيه حتى يبلغوا درجة من الحدق يسلم لهم معها بالقدرة على التشريع. والمهندسون والأطباء والقانونيون بعد ذلك في معظمهم مقلدون، يكتفون بتطبيق ما ابتكره المجتهدون في الطب والهندسة والقانون، ولا يزيد اجتهادهم فيها عن الحدق والكياسة في تطبيق القواعد النظرية على الوقائع العملية. فالاجتهاد إذن لم يُغلق بابه، ولكن المسلمين أحسوا في العصور المتأخرة من أنفسهم عدم القدرة عليه، وأحسوا أن أصول المسائل وفروعها في مختلف احتمالاتها قد فصلت تفصيلاً.

□ على أن الاجتهاد في حال افتتاننا بالحضارة الغربية خطرٌ غير مأمون العواقب، يُخشى معه أن يتحول من حيث يدري المجتهد - إن وجد - ومن حيث لا يدري، إلى تسويغ للقيم الأجنبية التي هو معجب بها، فإذا لم يكن معجباً بها فالمجتمع الذي هو معجب بها لا يقبل اجتهاده، بل لا تزال تناوله ألسن السفهاء من جهالة، الذين يتصدون لإبداء الرأي فيما يعرفون وفيما يجهلون، حتى يفقد ثقته في نفسه ويعتبر به غيره، فيفتي حين يستفتي وعينه على الذين يفتيهم، يريد أن يرضيهم، وأن يظفر بتقديرهم وتقريظهم، فيجور على الحق إرضاءً للخلق، ويذهل عما عند الله تعجباً لما عند الناس. ومع ذلك كله، فالاجتهاد الذي يحترم النصوص الشرعية ويبحثها في حيدة ونزاهة شيء، والتطوير الذي يهدف إلى تسويغ قيم الحضارة الغربية شيء آخر. الاجتهاد الذي يتمسك بمبادئ الإسلام يقوم بها عوج الحياة شيء، والتطوير الذي ينزل على الأمر والواقع، ويسوغ عوج الحياة بنصوص الشريعة شيء

آخر. نقطة البدء في اجتهاد المجتهد هي هذا السؤال: هل يصحُّ هذا الأمر شرعاً أو لا يصح؟ أو: ما هو حكم الإسلام في هذا الأمر؟ ونقطة البدء في تطوير المطور هي: ما هي النصوص الشرعية التي تثبت صحة هذا الأمر؟ أو: ما هي النصوص الشرعية التي تثبت حرمة هذا الأمر؟

□ وخطَرُ التطوير على الإسلام وعلى المجتمع الإسلامي يأتي من وجهين. فهو إفسادٌ للإسلام يُشوِّشُ قيمه ومفاهيمه الأصلية بإدخال الزيف على الصحيح، ويثبت الغريب الدخيل ويؤكدده. فبعد أن كان الناس يشاركون في تصاريف الحياة، وهم يعرفون أن هذا الذي غلبوا على أمرهم فيه ليس من الإسلام، والأمل قائم في أن تحيي من بعد نهضةً صحيحة تردُّ الأمورَ إلى نصابها عند الإمكان، يصبح الناس وهم يعتقدون أن ما يفعلونه هو الإسلام. فإذا جاءهم من بعد من يريد أن يردَّهم إلى الإسلام الصحيح أنكروا عليه ما يقول، واتهموه بالجمود والتمسك بظاهر النصوص دون رُوْحِهَا.

□ وتقليدُ المغلوب للغالب مرحلة طبيعية طارئة تزول مع زوال الضعف. واختلاطُ الحقِّ بالباطل والنافع بالضار في هذه المرحلة أمرٌ طبيعي كذلك. وهو مرحلة من مراحل التطور الصحيح، تحيي بعدها التصفية والتمحيص عندما تزول غواشي الضعف والحمول. فإذا سوغنا ذلك الغريب الدخيل - خيره وشره - تسويغاً إسلامياً في حال الضعف والعجز، فقد أصلناه من ناحية، وقد أقحمنا على الإسلام ما يُفسدُ بنيته من ناحية أخرى؛ لأنه يصبح أخلطاً من عناصر شتى لا تجمعها رابطة، ولا يضمها نظام، ولا يُشبه بعضها بعضاً. فهذا هو أحد الوجهين في ضرر التطوير، وهو وجهٌ لا يعني إلا المسلمين..

أما الوجه الآخر لضرر التطوير - وهو الذي يعني أعداء الإسلام - فهو

أن هذا التطوير ينتهي بالمسلمين إلى الفرقة التي لا اجتماع بعدها؛ لأن كل جماعة منهم سوف تذهب في التطوير مذهباً يخالف غيرها من الجماعات. ومع توالي الأيام، نجد إسلاماً تركياً وإسلاماً هندياً وإسلاماً إيرانياً وإسلاماً عربياً، بل ربما وجدنا في داخل هذا الإسلام العربي ألواناً إقليمية تختلف باختلاف البلاد. بل لقد سمعنا منذ الآن أحد المتسبين إلى الإسلام من الهنود يتحدث في (مؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة) سنة ١٩٥٣ عن الإسلام الهندي الحديث (ص ٧٨، ٨١). وسمعنا سميت يروي عن أحد المسئولين من الترك في كتابه (Islam In Modern History) كلاماً يتحدث فيه عن إسلام تركي خاص (ص ١٩٣) «(١)» اهـ.

#### \* نقده لرفاعة الطهطاوي، وخير الدين التونسي:

أقام رفاعة الطهطاوي في باريس خمس سنوات من (١٨٢٦ - ١٨٣١ م) وأقام خير الدين التونسي بباريس أربع سنوات (١٨٥٢ - ١٨٥٦). وقد جلب الطهطاوي والتونسي الأفكار والبذور الغربية وألقياها في التربة الإسلامية.

«للمرة الأولى في البيئة الإسلامية نجد كلاماً عن الوطن والوطنية وحب الوطن بالمعنى القومي الحديث في أوروبا، الذي يقوم على التعصب لمساحة محدودة من الأرض، يراد اتخاذها وحدة وجودية، يرتبط تاريخها القديم بتاريخها المعاصر، ليكونا وحدة متكاملة، ذات شخصية مستقلة، تميزها عن غيرها من بلاد المسلمين وغير المسلمين. وللمرة الأولى نجد اهتماماً بالتاريخ القديم يوجه لتدعيم هذا المفهوم الوطني الجديد. وللمرة الأولى نجد عند كل

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» للدكتور محمد محمد حسين (ص ٥١ - ٥٨) - دار الرسالة - الطبعة التاسعة.

من الطهطاوي وخير الدين كلاماً عن الحرية بوصفها الأساس في نهضة أي أمة وفي تقدمها. ولأول مرة نجد دعوة إلى وضع مدونة فقهية واضحة محدودة، في صورة موادَّ قانونية، على غط المدونات القانونية الأوروبية. ولأول مرة تُنقل إلى المسلمين النظريات الثورية التي تريد أن تناقش الحكام الحساب فيما عليهم من واجبات، وتبصر الشعوب بما لهم من حقوق. ولأول مرة نرى عرضاً للنظم الاقتصادية الغربية التي تقوم على المصارف والشركات. عرضاً يبدو مجرداً من التعليق في بعض الأحيان، ومشوباً بالإعجاب والتساؤل عن إمكان تطبيقه بين المسلمين في أحيان أخرى. ونرى بعد ذلك كلاماً كثيراً عن المرأة، لا شك أنه من وحي الحياة الاجتماعية الأوروبية، مثل تعليم الفتيات، ومنع تعدد الزوجات، وتحديد الطلاق، واختلاط الجنسين<sup>(١)</sup>

□ كتب الطهطاوي كتابه «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» الذي كتبه أثناء إقامته في فرنسا وعرضه على أستاذه «جومار» قبل أن ينشره وألّف بعد ذلك في عصر إسماعيل «مناهج الألباب المصرية في مباحج الآداب العصرية» و«المرشد الأمين للبنات والبنين»، وكتب خير الدين التونسي «أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك».

تكلم الطهطاوي عن ما يسمى بالأخوة الوطنية التي تجمع بين ساكنيه على اختلاف دياناتهم في كتابه «مناهج الألباب» بل وتعدّي ذلك إلى ذكر صور من مجد الفراعنة والافتخار والاعتزاز بذلك فهو - على سبيل المثال - حين يتكلم عن ضرر البطالة والكسل، يقدم صورة من نشاط المجتمع الفرعوني القديم، الذي يتجلى فيما خلفوه من آثار ضخمة، ويتكلم عن التماثيل التي تصور الكسل في صورة بغیضة، والتي كانوا ينصبونها في

(١) المرجع السابق (ص ٢١).

الميادين العامة (ص ١٢٠ - ١٢١). ويشيد في موضع آخر بتقدم مصر وغناها وامتيازها في المعارف على عهد الفراعنة، وما تدل عليه آثارهم ومخلفاتهم وقوانينهم من الثروة والقوة واتساع العمران والتمسك بالفضائل الخلقية، ثم يقول: «فمنه يُعلم أنه كان بمصر إذاً ذلك أحكام عادلة وقوانين مرتبة وحدود مشروعة خالية من الأغراض والنفسانيات وهي نتيجة التمدن العام».

ويقول: «فلا يبعد على مصر في هذا العصر أن تستجلب السعادة، وتكتسب من القوة الملية الحسنى وزيادة، وتتحصل من وسائل الغنى على مقاصد الإفادة والاستفادة؛ لأن بنية أجسام أهل هذه الأزمان هي عين بنية أهل الزمان الذي مضى وفات، والقرائح واحدة، ووسائل هذا العصر الأخير متسعة ومتنوعة، فلا شك أنها مساعداً على اكتساب المنفعة لمن يريد حقيقتها (ص ١٧٠ - ١٨٧)».

وراجع مثلاً آخر أشاد فيه بأعمال الملك رمسيس الذي اشتهر باسم سيزوستريس (ص ١٨٨ - ١٨٩)<sup>(١)</sup>.

□ ولم يستطع الطهطاوي أن يدرك الأغوار البعيدة والجوانب المتعددة لكلمة الحرية على طريقة الغرب من نبذ الدين، وتسفيه رجاله، والخروج على حدوده، لم يدرك ذلك ولم يلاحظ إلا الجانب البراق الذي يأخذ نظر المحروم من الحرية، حين تمارس في مختلف صورها وألوانها وفي أوسع حدودها.

«والجديد في الكلام مما تأثر فيه الطهطاوي بالحضارة الغربية هو: أولاً: دعوته إلى وضع مدونة قانونية شاملة، على نمط المدونات الغربية الحديثة، وهي خطوة قد سبقت إليها تركيا بصدور (التنظيمات)، وسبق إلى

(١) المرجع السابق (ص ٢٣).

الدفاع عنها خير الدين التونسي في كتابه «أقوم المسالك». ثانياً: الدعوةُ إلى تنظيم أحكامِ للمعاملات ثلاثم العصر، والتماسُ الطريق إلى الاقتباس من نُظْم الغرب، التي قامت عليها المصارف والشركات. وهي فكرة قد بسطها خير الدين التونسي بسطاً أوفى وأعمقَ في كتابه «أقوم المسالك»، كما سنرى من بعد.

□ ولكن الخطير حقاً هو ما قرره الطهطاوي في كتاب «المرشد الأمين للبنات والبنين» في فصل عقده للكلام عن (تمدن الوطن)، حين ذهب إلى أن مدينة أوروبا الحديثة التي تقوم على العقل تُحقِّق النتائج نفسها التي تَهْدِي إليها مدينة الدين. فقال:

«ومن زاول علمَ أصول الفقه، وفَقَّهَ ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد، جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية، التي وصلت عقولُ أهالي باقي الأمم المتمدنة إليها، وجعلوها أساساً لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم، قلَّ أن تخرج عن تلك الأصول التي بُنيت عليها الفروع الفقهية، التي عليها مدار المعاملات. فما يسمَّى عندنا بعلم أصول الفقه يشبه ما يسمَّى عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية. وهو عبارة عن قواعد عقلية، تحسباً وتقيحاً، يؤسسون عليها أحكام المدنية. وما نسميه بالعدل والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية. وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والتولُّع بحمايته، مما يُفضَّلون به عن سائر الأمم في القوة والمنعة، يسمونه محبة الوطن (ص ١٢٤ - ١٢٥)».

□ وفي فصل آخر من الكتاب عقده للكلام (في الأحكام الطبيعية المستندة قبل التشريع إلى العقل) يسوغ القوانين العقلية التي تقوم عليها الحضارة الأوروبية الحديثة، فيقول: «ولما كانت أعمال كل نوع من أنواع المخلوقات، وكل عضو من أعضاء فرد ذلك النوع، منقاداً لنواميس طبيعية

عمومية خصته بها الحكمة الإلهية، كان لا يمكن مخالفة هذه النواميس بدون اختلال للنظام العام والخاص وهذه النواميس الطبيعية التي خصت بها العالم القدرة الإلهية عامة للإنسان وغيره (ص ١٣١) «فينبغي للإنسان أن لا يتجارى على هذه الأسباب، ويتعدى حدودها، حيث إن المسببات الناتجة عنها منتظمة محققة (ص ١٣٢)» «فعلى الإنسان أن يطبق أعماله على هذه الأسباب التي تقدم ذكرها ويتمسك بها، وإلا عوقب عقاباً إلهياً لمخالفة خالق هذه الأسباب (ص ١٣٣)» «وأغلب هذه النواميس الطبيعية لا يخرج عنها حكم الأحكام الشرعية. فهي فطرية خلقها الله سبحانه وتعالى مع الإنسان، وجعلها ملازمة له في الوجود. فكانها قالب له، نُسجت على منواله، وطبعت على مثاله. وكأنما هي سُطرت في لوح فؤاده، بإلهام إلهي بدون واسطة، ثم جاءت بعدها شرائع الأنبياء بالواسطة، وبالكتب التي لا يأتيها الباطل من بين يديها، ولا من خلفها. فهي سابقة على تشريع الشرائع عند الأمم والملل، وعليها في أمان الفترة تأسست قوانين الحكماء الأول وقدماء الدول؛ وحصل منها الإرشاد إلى طرق المعاش في الأزمنة الخالية، ما ظهر منها التوصل إلى نوع من انتظام الجمعيات التأسيسية عند قدماء مصر والعراق وفارس واليونان. وكان ذلك من لطف الله تعالى بالنوع البشري، حيث هداهم لمعاشهم، بظهور حكماء فيهم، يقننون القوانين المدنية، لا سيما الضرورية لحفظ المال والنفوس والنسل (ص ١٣٣)».

وبذلك مهد الطهطاوي، من حيث يدري، أو من حيث لا يدري، لقبول التشريع الوضعي الذي يستند إلى العقل - على قصوره، وعلى مخالطة الشهوات له - ووافق في ذلك خير الدين التونسي، الذي يمتاز - كما أشرنا من قبل - بأنه أعمق غوراً في فهم الحضارة الغربية. فهو يدعو إلى الاقتباس منها على وفقه وبصيرة، تختلف عن السذاجة التي تبدو في كتابة الطهطاوي.

\* اعجاب الطهطاوي بالمرح الفرنسي!!! ورقص الباليه واختلاط الرجال بالنساء:

□ قال الدكتور محمد محمد حسين:

والطهطاوي معجب بالمرح الذي لم يجد له اسماً عربياً، فسماه باسمه الفرنسي (السيكتاكل) أو (التياترو). وصفه في «تخليص الإبريز» فبدأ كلامه بقوله: «ومن العجائب أنهم يقولون مسائل في العلوم الغربية والمسائل المشكلة، ويتعمقون في ذلك وقت اللعب (ص ١٦٦)».

ثم قال بعد وصف الممثلين والمناظر: «وبالجمله فالتياترو عندهم كالمدرسة العامة، يتعلم فيها العالم والجاهل (ص ١٦٦)».

□ وقد كان لمشاهداته في باريس أثر في توجيه فكره إلى شئون المرأة، فتكلم في «تخليص الإبريز» عن الطلاق، الذي لا يتم عند الفرنسيين إلا أمام المحكمة بإقامة دعوى الزنى (ص ١٢٢). وتكلم عن عاداتهم في اختلاط الرجال بالنساء، فنفي أن يكون الاختلاط والتبرج داعياً إلى الفساد، أو دليلاً على التساهل في العرض، حيث يقول: «ولا يُظنُّ بهم أنهم لعدم غيرتهم على نساءهم لا عرض لهم في ذلك.. لأنهم وإن فقدوا الغيرة، لكنهم إذا علموا عليهن شيئاً كانوا شرَّ الناس عليهن وعلى أنفسهم وعلى من خانهم في نساءهم. غاية الأمر أنهم يخطئون في تسليم القيادة للنساء. وإن كانت المحصنات لا يُخشى عليهن شيء (ص ٣٠٤)»، ويعود فيؤكد أن السفور والاختلاط بين الجنسين ليس داعياً إلى الفساد، وأن مردَّ الأمر كله إلى التربية، فيقول: «إن نوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لا يأتي من كشفهن أو سترهن، بل منشأ ذلك التربية الجيدة والحسياسة، والتعود على محبة واحد دون غيره، وعدم التشريك في المحبة، والالتئام بين الزوجين (ص ٣٠٥)».

□ ودافع الطهطاوي عن مراقبة الرجال للنساء حين وصف (مَحَالَّ الرقص المسماة: «البال Ballet» فقال: «إن الرقص عندهم فن من الفنون، وقد أشار إليه المسعودي في تاريخه المسمى «مروج الذهب». فهو نظيرُ المصارعة في موازنة الأعضاء، ودفع قُوَى بعضها إلى بعض، فليس كلُّ قوَى يعرف المصارعة، بل قد يغلبه ضعيفُ البنية بواسطة الحيل المقررة عندهم. وما كلُّ راقص يقدر على دقائق حركات الأعضاء. وظَهَرَ أن الرقص والمصارعة مرجعُهُما واحد يُعرف بالتأمل.. ويتعلق بالرقص في فرنسا كلُّ الناس. وكأنه نوعٌ من العياقة والشلبنة لا الفسق<sup>(١)</sup>. فلذلك كان دائماً غيرَ خارج عن قوانين الحياء. بخلاف الرقص في أرض مصر، فإنه من خصوصيات النساء؛ لأنه لتهييج الشهوات. أما في باريس فإنه نَطٌّ مخصوص لا يُسمُّ منه رائحة العُهر أبداً. وكل إنسان يَعْرِمُ امرأةً يرقص معها، فإذا فرغ الرقص عَزَمَهَا آخر للرقصة الثانية وهكذا. وسواء كان يعرفها أو لا (ص ١٦٨)».

ويشيد الطهطاوي في مقدمة كتابه «المرشد الأمين» بفضل الخديوي إسماعيل في التسوية بين البنات والبنين في التعليم. «فقد سوى في اكتساب المعارف بين الفريقين، ولم يجعل العلم كالإرث، للذكر مثل حظ الأنثيين. فبهذا سَوَّقُ المعارف المشتركة قد قامت، وطريقُ العوارف للجنسين استقامت، وليلُ جهلِ النساء جلاه فجرُ المعارف، وفخرُ تمتعهن بالطرائف واللطائف..» وتكلم عن وجوب تعليم المرأة، لتكتمل لذة أنس الزوجية. «وهذا لا يكون إلا بالمشاركة بين الزوجين، والمجانسة بين القرينين، ولا سيما في الممالك المتعدنة، التي يعد فيها تعليم النساء من الشيم المستحسنة. فالمرأة على هذا محتاجة للتعليم لإرشادها، في أمور الزوجية والعشرة، وفي تربية الأولاد، إلى الطريق المستقيم (ص ٦٦)».

(١) العياقة والشلبنة عاميتان تعنيان: الأناقة والفتوة.

بل هو يذهب إلى أبعد من ذلك، فيجعل من مزايا التعليم أنه «يمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال، على قدر قوتها وطاقاتها. فكل ما يطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن. وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأقاويل. فالعمل يصون المرأة عما لا يليق، ويقربها من الفضيلة (ص ٦٦)».

□ ويتكلم في موضع آخر من الكتاب عن تعدد الزوجات، فيشترط فيه العدل، ويورد حديث «من كان له امرأتان فلم يعدل بينهما، جاء يوم القيامة وشقُّه مائل». ويورد أقوالاً للحكماء وقصصاً تحبذ الاقتصار على زوجة واحدة (ص ١٤٨). ومن ذلك نرى أن الطهطاوي قد أثار قضية المرأة في أكثر النواحي التي أصبحت بعد ذلك مثارَ الجدل والمناقشة<sup>(١)</sup> اهـ.

\* الدكتور محمد محمد حسين يُفرد الفصل الثالث من كتابه «الإسلام والحضارة الغربية» (ص ٦٧ - ١١٢) لنقد الأفغاني ومحمد عبده وكشف الستر عن حقيقتيهما:

□ يقول - رحمه الله -:

«الاهتمام بالأفغاني ومحمد عبده يستند إلى اعتبارين:

أولهما: هو أن الصورة الشائعة المعروفة عنهما بين الناس تخالف حقيقتيهما. وهذه الصورة الشائعة تستمد وجودها وقوتها من الدعاية الدائمة التي لا تفتقر، والتي تسهر عليها قوى ومؤسسات قادرة ذات نفوذ. ولذلك كان الكشف عن حقيقتيهما محتاجاً إلى مجهود كبير، وإلى مزيد من الدأب

(١) المصدر السابق (ص ٣٢ - ٤٢) ملخصاً.

يقابل دأب الدعاية المبذولة في تدعيم مكانيهما .

وثاني هذين الاعتبارين: هو أن جلاء حقيقة الرجلين يتبعه جلاء حقيقة كثير من الأوهام التي تأصلت في نفوس الناس تبعاً لاستقرار شهرتيهما فيها، فكشف الستر عنهما هو في الوقت نفسه الكشف للستر عن أباطيل كثيرة ترتبط بهما، وتستمد قوتها وبريقها الخداع من شهرتيهما ومن ارتباطها بهما»<sup>(١)</sup>.

□ ويتكلم عن تسمية الأفغاني أصله ونسبه فهو إيراني شيعي وليس شريف النسب كما زعم. وتكلم عن أن أكثر نشاط الأفغاني كان سرياً، وأنه أنشأ جمعيات سرية بعضها كان أغلب أعضائها من شبان اليهود<sup>(٢)</sup>.

□ ثم تكلم عن إنشائه محفلاً ماسونياً تابعاً للشرق الفرنسي<sup>(٣)</sup>. وإن الأفغاني صانع ثورات دموي حيثما حل، واتخاذة بطانة تضم خليطاً من المسلمين والنصارى واليهود.

□ وصف رشيد رضا الأفغاني بأنه كان يميل إلى وحدة الوجود، التي يشتهب فيها كلام الصوفية بكلام الباطنية، وقال إن كلامه في النشوء والارتقاء يشبه بكلام داروين<sup>(٤)</sup>.

وتكلم الدكتور محمد محمد حسين عن عقيدته وهي عقيدة الحلول ووحدة الوجود في كتبه وكتب تلاميذه إليه، وأن شيخ الإسلام حسن فهمي قال عنه إنه يسوي بين النبوة والفلسفة.

وأن علماء الأزهر هاجموا الأفغاني ومنعوه من دخول الأزهر.

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» (ص ٦٧).

(٢) «تاريخ الأستاذ الإمام» لمحمد رشيد رضا (١/٧٥).

(٣) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/٢٨٣، ٣٨٠)، (٢/٥٥٣ - ٥٥٨).

(٤) «تاريخ الأستاذ الإمام» (١/٧٩ - ٨٠).

□ ثم تكلم الدكتور محمد محمد حسين في كتابه القيم «الإسلام والحضارة الغربية» عن محمد عبده، وذكر أن حياة محمد عبده قسمان: قسم في خدمة الأفغاني، وقسم في صداقة كرومر<sup>(١)</sup>، وأن كرومر عوّل عليه في تدعيم الوطنية بمعناها الغربي في مصر<sup>(٢)</sup>، ويصفه بأنه لا أدري.

وصلته ببلنت. ودعوته إلى فتح باب الاجتهاد بقصد تطوير الإسلام والاقتراب به من قيم الحضارة الغربية. ورعايته للبذور التي غرسها الطهطاوي وخير الدين التونسي في القسم الثاني من حياته<sup>(٣)</sup>.

ودعوة الأفغاني التي ربي محمد عبده في أحضانها لها ظاهر وباطن. □ وذهب الدكتور محمد محمد حسين إلى وجود قوتين كبيرتين تروجان لآراء الأفغاني ومحمد عبده وهما الماسونية والاستعمار<sup>(٤)</sup>.

### \* الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر:

وهو كتاب قيم من مجلدين للدكتور محمد محمد حسين. يتكلم في الجزء الأول عن الأدب المعاصر منذ الثورة العراقية إلى قيام الحرب العالمية الأولى تكلم فيه عن الجامعة الإسلامية وغلبة النزعة الإسلامية على العصبية الجنسية، وكانت الخصومة بين الشرق والغرب هي استمرار

(١) «الإسلام والحضارة الغربية» (٨٢)، وتقارير كرومر السنوية ومنها تقريره عن عام ١٩٠٥ في الفقرة (٧) بعنوان «الشيخ محمد عبده»، وكتابه عن «مصر الحديثة» ومذكرات المستر بلنت «التاريخ السري للاحتلال البريطاني في مصر».

(٢) تقرير كرومر سنة ١٩٠٦، و«الإسلام والحضارة الغربية» (ص ٨٣).

(٣) انظر «الإسلام والحضارة الغربية» (ص ٨٦).

(٤) المرجع السابق (ص ٨٨).

للحروب الصليبية ودغم هذا ما يدور من حروب بين تركيا من ناحية وبين الدول الأوروبية الطامعة في اقتسام أملاكها من ناحية أخرى، وكان ساسة الغرب يصورون المسلمين في صورة الهمج المتخلفين، وأعان على ذلك ما كان تبذله إنجلترا من جهود دائبة للقضاء على دولة الخلافة.

□ ثم تكلم عن الجامعة المصرية، فتكلم عن الوطنية بمعناها الإقليمي أنها كانت صدى للاتجاه الأوروبي نحو فكرة القومية في القرن التاسع عشر، وأن هذه الدعوة الجديدة نشأت قبيل الثورة العرابية ولكنها لم تكن مناقضة لفكرة الجامعة الإسلامية، وأن مصطفى كامل كان لا يرى تعارضاً بين الجامعة المصرية والجامعة الإسلامية ثم ظهر فريق آخر من دعاة الوطنية حارب فكرة الجامعة الإسلامية، ورأوا أن الوطنية هي المصلحة المشتركة التي تجمع بين من يعيشون في وطن وإقليم واحد، ويدعو إلى أن يقصر المصريون اهتمامهم على مصالح مصر ومثل هذا: صحيفة «المقطم» التي تعمل لحساب الانجليز، وكانت صريحة في تأييد المحتل وتصويره في صورة إنسانية رائعة وعلى هذا المنوال كانت أكثر كتابات مجلة «المقتطف». ونشأ «الحزب الوطني الحر» على أيدي قلة من أعيان البلاد استهوتهم مصالحهم الشخصية فأيدوا نزعة الوطنية ومحاربة فكرة الجامعة الإسلامية في جريدتهم «الجريدة» الناطقة بلسان حزبهم وسيذكر التاريخ بالسوء مصطفى عمار ومحمد وحيد ولطفي السيد وعبد الحميد الزهاوي السوري، وولى الدين يكن الذي يشيد بالانجليز، وكذلك حزب الأمة ورجاله من أعيان البلاد.

□ وظهرت الدعوة الخيثة إلى فصل الدين عن الدولة وسود عبدالقادر حمزة في سنة ١٩٠٤م صفحات في جريدة «المقتطف» عدد مارس سنة ١٩٠٤ (ص ٢٣١ - ٢٤٠) داعياً إلى هذا ورد عليه رفیق العظم ومحمد كرد علي.

□ وكشف الدكتور محمد محمد حسين عن قيام عبدالرحمن الكواكبي

بالدعوة إلى فصل الخلافة عن السلطنة في كتابه «أم القرى» ودعا إلى موالاته الدول الأوروبية المستعمرة (ص ١٦٩)، والناظر في كلامه يريه ما فيه من تودد إلى الدول المستعمرة ومن تهوين لوقوع الأمم الإسلامية تحت حكمهم، وإسقاط فريضة الجهاد بعد أن فسرها تفسيراً غريباً كما تربيته الصلة الواضحة بين كلامه هذا وبين ما تكشف عنه الأيام من حوادث الثورة العربية بتدبير الإنجليز سنة ١٩١٦م<sup>(١)</sup>.

□ ومن هؤلاء الداعين إلى الفصل بين الدين والسياسة سليمان البستاني اللبناني في كتابه «ذكرى وعبرة - الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده»<sup>(٢)</sup> طبعة سنة ١٩٠٨ وصور عهد أتاتورك أنه وضع حداً للظلم والفضوى والإرهاب.

□ ثم تكلم عن الاتجاه الثالث وهو اتجاه ما يسمى بتحرير المرأة والذي تولى كبره قاسم أمين ورد أحمد محرم علي قاسم أمين (ص ٣٤٦)، ورد عبدالله النديم الساخر في مجلة «التنكيك والتبكيك» على قاسم أمين في مقال بعنوان «عربي تفرنج»<sup>(٣)</sup>.

□ ثم تكلم عن المتطرفين من أدعياء التجديد الذين يستخفون بالدين ويعلمائه مثل هذا المجرم المسمى «بولي الدين يكن» الذي يجاهر بالإفطار في رمضان مستخفاً بالصائمين<sup>(٤)</sup>، قال: «فلما انتهينا من الطعام وخرجنا إلى

(١) «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» للدكتور محمد محمد حسين (١/٢٦٣ - ٢٦٤) - مكتبة الآداب.

(٢) ومثله كتاب «ما هنالك» الذي أصدرته مطبعة المقطم سنة ١٨٩٦م ولم تصرح باسم كاتبه، والمعروف الشائع أنه المولحي - انظر «الاتجاهات الوطنية» (١/٢٦٤).

(٣) العدد الأول ٦ يوليو سنة ١٨٨١ سلافة النديم (ص ٨٢) مقال بعنوان «عربي تفرنج» - انظر الاتجاهات الوطنية (١/٣٤٦ - ٣٤٨).

(٤) راجع مقاله الذي نشر في المقطم «أكذوبة إبريل، وأكذوبة رمضان» الصحائف السود (ص ٢٣ - ٣٨)، انظر «الاتجاهات الوطنية» (١/٣٤٤ - ٣٤٥).

المكان المعد للتدخين دنا متي أحد المعممين، وهو رجل كالجرادة، له حية كقائمة الزاد، وعينان كزيتونتين. فنظر في وجهي ملياً ثم قال لي: لم لا تصوم؟... قلت: لا أدري. قال: كيف لا تدري؟... قلت: ككل من لا يدري».

وانظر إلى مروقه واستخفافه حين يسفّه ذبح الأضاحي في العيد فيقول: «لا أدري حكم الأضاحي فيما يرجع إلى الدين. فلا أتعرض له بشيء مجانية للشطط، ولكن ما هذا الإسراف؟.. أأنا نأر عند الغنم فتأر؟ أم الغنم كثيرة فتريد أن تقل؟.. ما روى لنا أحد المؤرخين أن جدّ الغنم نطح أبانا آدم، فنجعل عداءنا محمولاً على هذا السبب»<sup>(١)</sup>!!!

وانظر إلى تطاوله في ديوانه واستخفافه بعلماء الدين (ص ١٩، ٢٥، ٣٢)<sup>(٢)</sup>.

وفي الجزء الثاني من «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» من قيام الحرب العالمية الأولى إلى قيام الجامعة العربية:

تكلم في الفصل الأول عن الخلافة الإسلامية - وحزن المسلمين على سقوطها يقول حافظ إبراهيم:

«أيا صوفيا» حان التفريق فاذكري  
إذا عُدت يوماً للصليب وأهله  
ودقت نواقيس وقام مزمرٌ  
فلا تنكري عهد المآذن إنه  
عهد كرام فيك صلّوا وسلّموا  
وحلى نواحيك المسيح ومريم<sup>(٣)</sup>  
من الروم في محرابه يترنم  
على الله من عهد النواقيس أكرم

(١) انظر إلى مقاله «الإسراف! الإسراف!» الصحائف السود لولي الدين يكن ١٩١٠م مطبعة المتقطف بمصر - و«الاتجاهات الوطنية» (١/٣٤٥ - ٣٤٦).

(٢) ديوان ولي الدين يكن مطبعة المتقطف.

(٣) من تمام الإسلام الإيمان بنبوّة عيسى عليه الصلاة والسلام وأن أمه صديقة نبي الله ﷺ.

تباركت! «بيت القدس»<sup>(١)</sup> جذلان آمن  
أيرضيك أن تغشى سنابك خيلهم  
وكيف يذلّ المسلمون وبينهم  
نبيك محزون وبيتك مطرق  
عصينا وخالفنا فعاقبت عادلاً  
ولا يأمن «البيت العتيق» المحرم  
حماك وأن يمى «الحطيم» وزمزم  
كتابك يُتلى كل يوم ويكرمُ  
حياءً وأنصار الحقيقة نُومُ  
وحكمتَ فينا اليوم من ليس يرحمُ<sup>(٢)</sup>

□ والكتاب يدل على الفهم العالي للدكتور محمد محمد حسين وعودته  
للينابيع الصافية. . أتاه نهر الله فبطل عنده نهر معقل انظر إليه وهو يتحدث  
عن عصية الصليبيين عند سقوط القدس في يد النبي وهزيمة تركيا فيقول:

«ولم ينكر الإنجليز وجود ما يُقابل هذا الشعور الإسلامي من عصية  
مسيحية في بلادهم. وهذا هو اللورد ويفل وهو من كبار قوادهم وساستهم،  
ينقل عن إحدى المجلات الإنجليزية صورة رمزية للقائد الإنجليزي اللبني في  
عودته من حرب فلسطين، وقد كتب تحتها «العودة من الحروب الصليبية»<sup>(٣)</sup> ،  
وأخذت الصحف الإنجليزية تلح في المطالبة بإخراج الترك من الأستانة»<sup>(٤)</sup> ،  
ووقع مائة عضو من أعضاء البرلمان الإنجليزي على مذكرة اللورد روبرت  
سيسل التي تتضمن المطالبة بإخراج الأتراك من الأستانة»<sup>(٥)</sup> ، وأرسل «اثنان  
عشر أسقفًا في الأستانة برقية إلى رئيس أساقفة كانتربري يدعونه فيها إلى  
المساعدة على إخراج الأتراك من الأستانة، فأجابهم بأنه طلب مع غيره من  
الأساقفة البريطانيين إلى الحكومة البريطانية هذا الطلب، وأنهم سيبدلون

(١) يعني بيت القدس هنا «الكنائس» ويعني بالبيت العتيق المساجد.

(٢) ديوان حافظ إبراهيم (٨٨/٢ - ٨٩). و«أيا صوفيا» هو مسجد الأستانة الكبير.

(٣) Allenby in Egypt (ص ١١٣).

(٤) الأهرام - ٢٤ فبراير سنة ١٩٢٠ - التلغرافات العمومية.

(٥) الأهرام - ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٠ - التلغرافات العمومية.

مجهوداتهم لهذه الغاية، وأرسل أسقف نيويورك إلى رئيس أساقفة كانتربري تلغرافاً بهذا المعنى بالنيابة عن مائة أسقف، وشكره على المساعي التي يبذلها في «الحروب الصليبية» التي تُبذل ضد بقاء الأتراك في الأستانة فردّ رئيس الأساقفة معرباً عن أمله في أن تشترك أمريكا في القيام بنصيبها في حماية الشعوب الشرقية المظلومة»<sup>(١)</sup>.

ويُصرح القائد الفرنسي بير كيلر بهذه الدوافع الصليبية حين يقول في كتابه عن القضية العربية «إن مصالح فرنسا في الشرق الأوسط هي قبل كل شيء مصالح روحية. وتعود هذه العلاقات إلى عهد الصليبيين، حيث وقعت معاهدات لحفظ الأماكن المقدسة. وجددت هذه المساعدات على مرّ القرون، وتحملت فيها فرنسا مهمة حماية نصارى الشرق»<sup>(٢)</sup>.

### \* حذو القذّة بالقذّة:

□ وتكلم الدكتور محمد محمد حسين عن التجاوب الفكري بين أصحاب الدعوات الهدامة في تركيا ومصر، فحين كان الكماليون يتخذون الذئب الأبيض - الأغبز - وهو رمز أسلافهم الأقدمين من الوثنيين - شعاراً لهم ويرسمونه على طوابع البريد، كان المصريون يحذون حذوهم ويرسمون أبا الهول على أوراق العملة، وعلى طوابع البريد، وحين جعل الكماليون حذاً أدنى لسن الزواج في البنين والبنات اقتفى المصريون أثرهم في ذلك، وعندما ألغى الكماليون المحاكم الشرعية في تركيا أخذ بعض الكتاب في مصر يناقشون إلغاءها، وحين حمل مصطفى كمال نساء تركيا على السفور

(١) الأهرام - ٦ مارس سنة ١٩٢٠ - التلغرافات العمومية.

(٢) «القضية العربية في نظر الغرب» للجنرال كيلر ترجمة ميشال حجار (ص ١١٩) - بيروت

- انظر «الاتجاهات الحديثة» (٢/ ٢٠).

والاختلاط بالرجال ومراقبتهم، احتدمت المعارك في مصر حول هذه الموضوعات في الصحافة وفي الأندية. وحين ألزم مصطفى كمال الترك أن يلبسوا القبعة خاض بعض الكتاب المصريين في بحث ما سمّوه «مشكلة الأزياء» داعين إلى توحيدها، ودعا بعض أفراد منهم إلى اتخاذ القبعة، وحين استبدلت تركيا الحروف اللاتينية بالحروف العربية، أخذ كثير من الكتاب والصحافيين في مصر يناقشون ما سموه «مشكلة الكتابة والخط العربي» وهكذا نجد أن تأثير الرأي العام والمفكرين المصريين بأحداث الخلافة الإسلامية لم يكن إلا مظهراً من مظاهر التجاوب بين تركيا وبين العالم الإسلامي عامة ومصر خاصة<sup>(١)</sup>.

\* القديم والجديد: وفضح الدكتور محمد محمد حسين لسلامة موسى صاحب كتاب «اليوم والغد»:

ويعنون بالجديد انسلاخ الأمة من دينها و«أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لتكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يُحب منها وما يكره، وما يُحمد وما يعاب» كما قال طه حسين<sup>(٢)</sup>.

أما القديم فهو ما يمت إلى الإسلام بصلة، يُسمى أصحابه بالمحافظين، أو الجامدين، أو الرجعيين أو المتزمتين أو الظلاميين أو الإرهابيين أفرجعية أن يقف الإنسان في منزل الوحي يحاول السمو إلى أن يفهم كيف كانت صورته؟! أم رجعية أن يقف الإنسان عند آثار صاحب الوحي يلتمس فيها الأسوة والعبرة؟! فأحب بها إليّ من رجعية.

(١) «الاتجاهات الوطنية» (٢/٩٢ - ٩٣).

(٢) «مستقبل الثقافة في مصر» لطه حسين - الفقرة ٩ (ص ٤١).

«والمطرفون من أنصار الجديد ينزعون إلى التحرير من كل قيد وإلى تخطي كل حاجز، ولا يقفون في ذلك عند حد»<sup>(١)</sup>، يريدون أن يحطموا ما بقي في نفوس الناس من توقير للدين، ومن أبرع الأمثلة على ذلك - أو أخبثها إن شئت - قصة رمزية مترجمة نشرتها مجلة الهلال، تكمن بين سطورها سخرية لاذعة بالتدين وبال مقدسات الموروثة كلها<sup>(٢)</sup>.

□ وكان سلامة موسى صاحب كتاب «اليوم والغد» أكثر دعاة الجديد تطرفاً وهو عميل قميء قزم كاره للإسلام وكل ما يمت إليه بصلة. يقول الدكتور محمد حسين عن كتاب سلامة موسى «اليوم والغد»:

أما كتاب «اليوم والغد» فقد احتوى على مقالات نشرت في خلال سنتي ١٩٢٥، ١٩٢٦. ثم أضيف إليها مقالان عند نشر الكتاب سنة ١٩٢٧. وهو يلتقي مع كتاب «مستقبل الثقافة في مصر» في كثير من وجهات النظر. ولكن الأول يعرض آراءه في صراحة عارية لا يبالي معها سخط الناس أو رضاهم، بل لعله يقصد إلى إسخاطهم ويلتذ به. أما الثاني فهو يدور حول أهدافه ويعبر عنها في دهاء، محاولاً إقناع الناس وكسب رضائهم، سالكاً لذلك أحب السبل إلى نفوسهم وأقربها إلى قلوبهم، وكأنه لا ينسى ما تعرض له حين أخرج كتابه الأول «في الشعر الجاهلي».

□ وهدف المؤلف واضح في كتاب «اليوم والغد»، فهو يقول في مقدمته:

«كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة توضحت أمامي أغراض في الأدب كما أزاوله. فهي تتلخص في أنه يجب علينا أن نخرج من آسيا وأن نلتحق

(١) «الاتجاهات الوطنية» (٢/١٩٤).

(٢) انظر «الهلال» عدد مايو ١٩٢٦ - ١٧ شوال ١٣٤٤هـ (ص ٨٠١ - ٨٠٥).

بأوروبا<sup>(١)</sup> فإني كلما زادت معرفتي بالشرق زادت كراهيتي له وشعوري بأنه غريب عني. وكلما زادت معرفتي بأوروبا زاد حبي لها وتعلقني بها، وزاد شعوري بأنها مني وأنا منها. هذا هو مذهبي الذي أعمل له طول حياتي سرّاً وجهرة. فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب».

ويضرب الكاتب في هذه المقدمة أمثالا لهدفه، فهو يريد «حرية المرأة كما يفهمها الأوروبي، حتى نأمل يوماً ما في رؤية قاضيات وطبيبات وطيارات ومعلمات ومديرات ووزيرات وعاملات... إلخ».

وهو «يريد من الأدب أن يكون أدباً أوروبياً ٩٩ في المائة. قائم على المعنى والقصد لا على اللفظ كما كان الحال عند العرب».

ثم هو يريد: «أن تكون ثقافتنا أوروبية لكي نغرس في أنفسنا حب الحرية والتفكير الجريء».

وهو يهاجم الدين في المقدمة وفي أكثر من موضع من الكتاب؛ حتى ليخيل إليك أنه لا يبغض في هذه الشرقية التي يهاجمها إلا الدين. فهو في كل مثل من هذه الأمثال التي يضربها يهدم ركناً من أركان الأديان عامة والإسلام خاصة. فهو «يريد من التعلم أن يكون تعليماً أوروبياً لا سلطان للدين عليه، ولا دخول له فيه»، وهو «يريد من الحكومة أن تكون ديموقراطية برلمانية كما هي في أوروبا، وأن يعاقب كل من يحاول أن يجعلها مثل حكومة هارون الرشيد أو المأمون، أوتوقراطية دينية».

وهو يريد أن يبطل شريعة الإسلام في تعدد الأزواج في الطلاق «بحيث يعاقب بالسجن كل من يتزوج أكثر من امرأة. ويمنع الطلاق إلا بحكم محكمة».

(١) مصر ليست جزءاً من آسيا. والمؤلف يقصد بالخروج من آسيا الخروج من التفكير الآسيوي، أو بعبارة أخرى من الدين الذي جاءنا من آسيا، وهو الإسلام.

وهو يريد أن يقتلع من أدبنا كل طابع شرقي مما يسميه «آثار العبودية والذل والتوكل على الآلهة».

□ ويسط المؤلف القول في ذلك كله في خاتمة الكتاب الطويلة التي اتخذ لها عنواناً «على مفترق الطرق». فيتكلم عن تاريخ دخول الحضارة الأوروبية إلى مصر منذ نابليون. وما أفاض عليها من بركات - حسب تعبيره - ثم يتكلم عن محمد علي الذي جاء من بعده فاعتمد على أوروبا في تمدن مصر. ثم يتكلم عن إسماعيل، الذي «رأى بنافذ بصيرته أنه لا بد لنا من أن نتفرنج ونقطع الصلة بيننا وبين آسيا. فأنشأ مجلساً نيابياً. وأسس مجلس وزراء.. ثم جعلنا نلبس الملابس الأوروبية، ووزع بين أعيان البلاد فتيات من الشركس لكي يتحسن اللون ويقارب البشرة الأوروبية، وهو يرى أنه قد آن الأوان لكي «نعتاد الأوروبيين ونلبس لباسهم ونأكل طعامهم ونصطنع أساليبهم في الحكومة والعائلة والاجتماع والصناعة والزراعة، بل هو ينكر على مصر شرقيتها، ويزعم أن هذا الاسم إنما جاءنا «من أننا كنا تابعين للدولة الرومانية الشرقية، عندما انفصلت من الدولة الرومانية الغربية، وحقيقة الأمر عنده فيما يزعم أننا غربيون «فقد عشنا نحو ألف سنة ونحن جزء من الدولة الرومانية ثم نحن في هيئة الوجه أوروبيون.. والشعب الأول الذي سكن مصر لا يختلف ألبتة من الشعب الذي كان يسكن أوروبا قبل ٤٠٠ سنة».

بل هو يمضي في غلوه محاولاً عقد صلوات من القرابة بين لغة مصر القديمة وبين اللغة الإنجليزية فيزعم أن «بين المصرية القديمة والإنجليزية الراهنة مئات الألفاظ المشتركة لفظاً ومعنى».

وتأخذه نشوة الغلو فيذهب إلى أن «حقيقة الأزهر أنه جامعة أوروبية أسسها رجل أوروبي هو جوهر (الصقلي)».

ولا يأسف المؤلف على شيء أسفه على الدم الشرقي الذي تسرب إلى

عروقتنا من الإخشيديين والمماليك والعثمانيين.

□ يؤكد المؤلف أن مصر غربية، ويقول: «إن هذا الاعتقاد بأننا شرقيون قد بات عندنا كالمرض. ولهذا المرض مضاعفات. فنحن لا نكره الغربيين فقط ونتأفف من طغيان حضارتهم فقط، بل يقوم بذهننا أنه يجب أن نكون على ولاء للثقافة العربية، فندرس كتب العرب ونحفظ عباراتهم عن ظهر قلب، كما يفعل أربابنا المساكين أمثال المازني والرافعي، وندرس ابن الرومي، ونبحث عن أصل المتنبي، ونبحث في علي ومعاوية ونفاضل بينهما، ونتعصب للجاحظ.. وليس علينا للعرب أي ولاء. وإدمان الدرس لثقافتهم مضیعة للشباب وبعثرة لقواهم، فيجب أن نعودهم الكتابة بالأسلوب المصري الحديث، لا بأسلوب العرب القديم.. ثم يجب أن نذكر أن إدمان الدرس للعرب يشتم الأدب المصري ويجعله شائعاً لا لون له».

□ ويريد مؤلف هذا الكتاب أن يقطع كل صلتنا بالماضي ويهدمه هدماً يعفي على آثاره. يريد أن يهدم شرقيتنا، وأن يهدم عروبتنا، وأن يهدم إسلامنا، بل يهدم التدين جملة.

يريد أن يهدم شرقيتنا لأنه يقول: «إن الرابطة الشرقية سخافة.. فما لنا ولهذه الرابطة الشرقية؟ وأية مصلحة تربطنا بأهل جاوة؟ وماذا ننتفع بهم وماذا هم ينتفعون منا؟.. إننا في حاجة إلى رابطة غربية، كأن نؤلف جمعية مصرية يكون أعضاؤها من السويسريين والإنجليز والنرويجيين وغيرهم. نقعد معهم فنستفيد من شرعة إصلاحية نفذت في بلادهم يشرحونها لنا فننتفع بذلك، أو فلسفة جديدة ظهرت يعرفونها شيئاً عنها، أو آلة جديدة اخترعت نتفاوض معهم في استعمالها عندنا. مثل هؤلاء الناس النظيف الأذكياء نستطيع أن نؤلف رابطة معهم. ولكن ما الفائدة من تأليف رابطة مع الهندي أو الجاوي؟».

□ ويريد أن يهدم عروبتنا لأنه يقول في صراحة: «إن لنا من العرب ألفاظهم فقط، ولا أقول لغتهم، بل لا أقول كل ألفاظهم. فإننا ورثنا عنهم هذه اللغة العربية، وهي لغة بدوية لا تكاد تكفل الأداء إذا تعرضت لحالة مدنية راقية كتلك التي نعيش بين ظهرانيها الآن».

□ ويريد أن يهدم الإسلام والتدين جملة لأنه يقول: «ونحن في حاجة إلى ثقافة حرة أبعد ما تكون عن الأديان. ولا بأس من أن نعتمد على الترجمة إلى حد بعيد حتى يتمصر العلم وتتمصر ألفاظه، وعندئذ نسير فيه بالتأليف». والرجل لا يسخط على شيء في الاتجاهات السياسية مثل سخطه على الجامعة الإسلامية ورجالها. وكرهيته الشديدة للزعيم مصطفى كامل تصور هذا البغض الشديد. فهو يقول فيه: «وقد كان مصطفى كامل لجهله بروح الزمن يخبرنا، ولا يزال فلول المحررين من المؤيد والحزب الوطني يخبروننا، نحن المصريين، عن الإسلام في الصين تحت عنوان (أخبار العالم الإسلامي)».

ويقول: «ثم حدث ارتداد في الفكرة الوطنية بظهور مصطفى كامل والخديوي عباس والمؤيد. فإن كل هؤلاء عادوا إلى جامعة الإسلام، وكانوا يقولون إن مصر هي من أملاك الدولة «العلية» أي التركية.

وكانت الآستانة عندهم «دار السعادة»، أما القاهرة فهي القاهرة فقط. وكان المصري عثمانياً يجب عليه أن يحارب المقدونيين للدفاع عن عبد الحميد ورعيته. وكان عبد الحميد خليفة المسلمين الذي يجب على كل مصري أن يطيعه. وأوشك مصطفى كامل ومحررو جريدته أن يحدثوا فتنة بين الأقباط بهذا السخف والهراء».

وبقدر سخط الرجل على سياسة الجامعة الإسلامية التي يمثلها مصطفى كامل، تجد تقديره الشديد للطفي السيد، الذي يرجع إليه كل الفضل في بناء

الوطنية المصرية، إذ «أخذ يفشي المبادئ الأوروبية عن العائلة، وحرية المرأة، واللغة، والأدب، والسياسة. ورأى الأقباط - بعد أن كانوا لا يهتمون بوطنية الخديوي عباس ومصطفى كامل والمؤيد - أن وطنية لطفي السيد لا شائبة فيها. وأنها لا تزيغ بهم إلى الجامعة الإسلامية أو الجامعة العثمانية، فصاروا يؤمنون بالوطنية. حتى إذا كانت سنة ١٩١٩ هبوا مع إخوانهم المسلمين كتلة واحدة للدفاع عن مصر. فالاتحاد الذي نراه بين الأقباط والمسلمين يرجع إلى لطفي السيد، لا إلى الحرب الكبرى كما يظن بعض شبابنا».

□ وفي مقابل هذا السخط الشديد على كل ما يمت إلى الإسلام أو العروبة أو الشرقية بسبب، تجذ ثناء على الغرب والغربيين لا تحفظ فيه، ودعوة صريحة إلى الاندماج فيهم اندماجاً كاملاً. فهو يدعونا إلى أن «نرتبط بأوروبا وأن يكون رباطنا بها قوياً، نتزوج من أبنائها وبناتها، ونأخذ عنها كل ما يجد فيها من اختراعات أو اكتشافات، وننظر للحياة نظرها. نتطور معها في تطورها الصناعي، ثم في تطورها الاشتراكي والاجتماعي، ونجعل أدبنا يجري وفق أدبها بعيداً عن منهج العرب، ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها، ونؤلف عائلتنا على غرار عائلاتها».

ويدعو إلى تمصير الأجانب النازلين مصر «والتزواج بيننا وبينهم وحضهم على إرسال أولادهم إلى مدارسنا حتى يعرفوا لغتنا ويطرفوا صحفنا وكتبنا كما يجب أن نسمح لهم بالتوظيف في الحكومة والانتخاب للبرلمان، حتى تغدو عواطفهم مصرية لا يعرفون لهم وطناً ثانياً غير مصر».

وهو يرى أن: «اصطناع القبعة أكبر ما يقرب بيننا وبين الأجانب ويجعلنا أمة واحدة»، فالقبعة عنده «هي رمز الحضارة يلبسها كل رجل متحضر، سواء أكان يابانياً أم صينياً أم إنجليزياً أم أمريكياً. . فإن للمتحضرين عادات يتعارفون بها ويصطلحون عليها، واتخاذ القبعة من هذه العادات.

فلسنا نحب أن نخرج على العالم المتمدين بلبسا خاص يجعلنا في مركز من الشذوذ يجلب إلينا الأنظار، فيعمد السياحون إلى تصويرنا كأننا أمة غريبة عن الأمم التي جاءوا منها».

وهو ساخط لأن «الحركة التي قامت في العام الماضي وكانت غايتها اصطناع القبعة قاومها زعمائنا وقتلوها في مهدها، فأثبتوا بذلك أنهم لا يزالون آسيويين في أفكارهم لا يرغبون في حضارة أوروبا إلا مكرهين».

□ ويقول المؤلف في صراحة يحسد عليها: «إن الأجانب يحتقروننا بحق، ونحن نكرههم بلا حق»؟! ويختتم كتابه بالدعوة إلى إحكام علاقات الود مع الإنجليز مهاجماً الساسة الذين يضعون العراقيل في طريق هذا التفاهم، فيقول: «إن الزعامة السياسية في أيدي أناس ليست فيهم الكفاية للقيام بأعبائها، ودليل ذلك فشلهم العظيم في عدم الاتفاق مع الإنجليز وفي عدم إدراكهم قيمة اتخاذ القبعة. ولكنني لا أزال مع ذلك متفائلاً أرى أن الجمهور يسبق الزعماء ويجرئهم على السير بخطوات واسعة نحو الاستقلال بجميع أنواعه. فشبابنا قد سئم سخافة أدبائنا، وصار يطلب من الأدب شيئاً جديداً مغزياً غير الكلام عن العرب بلغة العرب. وشبابنا أيضاً يوشك أن يلبس القبعة؛ لأنه يجد هوائاً من الشذوذ في العالم المتمدين. وهو أيضاً قد أبصر أننا إذا أخلصنا النية مع الإنجليز قد نتفق معهم إذا ضمنا لهم مصالحهم. وهم في الوقت نفسه إذا أخلصوا النية لنا فإننا نقضي على مراكز الرجعية في مصر وننتهي منها. فلنول وجهنا شطر أوروبا».

□ ولعل أكثر ما يدعو إلى الدهشة في الكتاب جرأة المؤلف على الإسلام في هذه الخاتمة وفي سائر كتابه، وهي جرأة عجيبة من غير مسلم في بلاد المسلمين، فهو يسخر من وزارة الأوقاف، ومن المحاكم الشرعية، ومن الأزهر، بل ومن الإسلام نفسه، حين يقول: «وها نحن أولاء نجد أنفسنا الآن

متردد بين الشرق والغرب، لنا حكومة منظمة على الأساليب الأوروبية، ولكن في وسط الحكومة أجساماً شرقية مثل وزارة الأوقاف والمحاكم الشرعية تؤخر تقدم البلاد، ولنا جامعة تبعث بيننا ثقافة العالم المتمددين، ولكن كلية جامعة الأزهر تقف إلى جانبها تبث بيننا ثقافة القرون المظلمة. ولنا أفندية قد تفرنجوا، لهم بيوت نظيفة وبقراءون كتباً سليمة، ولكن إلى جانبهم شيوخاً لا يزالون يلبسون الجلب والقفاطين ولا يتورعون من التوضؤ على قوارع الطرق في الأرياف، ولا يزالون يسمون الأقباط واليهود «كفاراً» كما كان يسميهم عمر بن الخطاب قبل ١٣٠٠ سنة».

□ وهو ناظم على (الشيوخ) الذين يعلمون اللغة العربية، يناهز بأن يسلم أمر تعليمها إلى (الأفندية) حيث يقول: «ولكن تعليم العربية في مصر لا يزال في أيدي الشيوخ الذين ينقعون أدمغتهم نقعاً في الثقافة العربية، أي ثقافة القرون المظلمة. فلا رجاء لنا بإصلاح التعليم حتى نمنع هؤلاء الشيوخ منه ونسلمه للأفندية الذين ساروا شوطاً بعيداً عن الثقافة الحديثة».

□ بل لقد وجد المؤلف في نفسه الجزأ لأن يكتب «الجامعة الدينية وقاحة» عنواناً لفقرة من فقرات هذه الخاتمة. وقال تحت هذا العنوان: «إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة لأنها تقوم على أصل كاذب، فإن الرابطة الدينية وقاحة. فإننا أبناء القرن العشرين أكبر من أن نعتمد على الدين جامعة تربطنا».

□ والكتاب كما ترى من هذا العرض خليق أن يثير الناس على صاحبه ويملاهم سخطاً عليه ويصرفهم عن كل ما يقوله. ومن هنا كان الكتاب - على خطورة آرائه - هين الأثر قليل الخطر؛ لأنه يتولى بنفسه مهمة التفسير من نفسه. هذا إلى أن مهاجمة المؤلف - وهو مسيحي - للإسلام وللثقافة

الإسلامية، تدعو القارئ إلى أن يشك في حسن قصده وفي صدق نيته»<sup>(١)</sup>.

\* الدكتور محمد محمد حسين يكشف عن صناعة الزعماء «سعد زغلول صديق الإنجليز وكرومر»:

«أغلب الذين يوصفون بالقمم الشوامخ هم أولياء الثقافة الغربية، الساعون إلى تدويب ذاتية هذه الأمة في الأمية تحت اسم العصرية والتجديد والتقدم، وهؤلاء زيفوا إرادة الأمة وهم أشخاص لمعوا بالباطل وتوَجَّوا بالقداسة الكاذبة منذ أمد طويل، وكان من النصح لله ورسوله والمؤمنين أن تقوم الأقلام المتوضئة الساجدة لربها في كشف الزيف والبهرج.

ومن هنا تصدى الدكتور محمد محمد حسين في كتابه «الاتجاهات الوطنية» في الجزء الثاني لزعيم ثورة ١٩١٩ سعد زغلول.

□ قال الدكتور محمد محمد حسين في كتابه القيم:

«الذين يرجعون ثورة ١٩١٩ إلى أسباب سياسية، أو إلى أسباب اقتصادية ويهملون العامل الديني فيها يخطئون خطأ كبيراً.

وعلى هؤلاء أن يسألوا أنفسهم: أكان يُمكن أن تشتعل الثورة لو أن المصريين قد عانوا ما عانوا وضحوا ما ضحوا في سبيل هدف واضح تطمئن إليه ضمائرهم وتقتنع به عقولهم؟ أكانوا يثورون لو أنهم قاتلوا في صفوف تركيا دولة الخلافة استجابةً لدعوة الخليفة إلى الجهاد مثلاً؟

إن كثيراً من الحوادث التي وقعت في خلال الحرب ومن بعدها وفي إبان الثورة تدل على أن العامل الديني كان عنصراً أساسياً وسبباً مباشراً من أسبابها. وقد رأينا من قبل كيف نصح رئيس الحكومة لعلماء الأزهر بالإخلاء

(١) «الاتجاهات الوطنية» (٢/٢١٢ - ٢١٩).

للسكون حين همّوا أن يقوموا بحركة ضد الاحتلال لتأييد عباس.

وتكونت في مصر جمعيات سرية خلال سنة ١٩١٨ للاتصال بالسنوسي في طرابلس وإعانة جيوشه على مهاجمة الإنجليز في مصر، ونستطيع أن نضيف إلى هذه الحوادث ما يدعم دلالاتها وما يصور أن العامل الإسلامي لم يفتر خلال الثورة أو في بدئها على الأقل.

فلم يكن حادث الأرمني الذي أطلق النار من نافذة منزله على المتظاهرين وما ترتب عليه بعد ذلك من فتك الشعب بالأرمن في الطرقات إلا صدى لاضطهاد الترك للأرمن<sup>(١)</sup>. ولم تكن المعارك التي نشبت بين المتظاهرين وبين اليونان والطلّيان في مايو سنة ١٩٢١ بالإسكندرية إلا صدى للحرب التركية اليونانية في ذلك الوقت<sup>(٢)</sup> ولم يكن انشغال المصريين بما كان يجرى في تركيا من أحداث، وتبعهم للخلافة وتطوراتها في خلال ثورة ١٩١٩ وما بعدها إلا مظهرًا من مظاهر هذا العامل الإسلامي الذي لم يضعف أثره في النفوس، وقد اعترف بعض مؤرخي مصر الحديثة من الإنجليز بوجود هذا العامل الديني في الثورة<sup>(٣)</sup> «٤» ا.هـ. ويتكلم الدكتور محمد

(١) بلغ عدد القتلى من الأرمن أربعين، وبلغ من اندفاع الشعب في الانتقام منهم أن وضعتهم السلطات الإنجليزية تحت حمايتها في معسكرات اللاجئين. ولم يسكن هياج المصريين إلا بعد أن تدخل بطريكي الأرمن الأرثوذكس والكاثوليك، وقصد أعيانهم ومعهم جماعة من كبار اليهود إلى الجامع الأزهر معتذرين عما فرط من بعضهم ملتسرين صفح الشعب عن إساءتهم (راجع التفصيلات في حوليات مصر السياسية - المقدمة ١، ٣٢٣ - ٣٢٥، وراجع قصيدة لخليل مطران في هذه المناسبة بديوانه (٢/٢٢٦ - ٢٢٩).

(٢) تُبدل في هذه المعارك إطلاق النار بين المصريين والأجانب، حتى بلغ عدد القتلى من الفريقين أربعة وأربعين قتيلًا، وتجاوز عدد الجرحى مائتين - راجع حوليات مصر السياسية لأحمد شفيق المقدمة (٢/١٧١ - ١٧٥).

(٣) Great BriTain.. (ص٢١٤).

(٤) «الاتجاهات الوطنية» (٢/١٨ - ١٩).

محمد حسين عن مواقف سعد المربية<sup>(١)</sup> ثم يقول - رحمه الله - :

«على أن الناظر في حياة سعد يعجب من أن هذا الرجل كان هو الزعيم الذي سيطر على أكبر ثورة شعبية عرفتها مصر في هذا القرن، وهي ثورة سنة ١٩١٩، فقد بدأ الرجل حياته صديقاً للإنجليز، وختمها كذلك صديقاً للإنجليز، واستطاع بين هذه البداية وهذه الخاتمة، حين وثب إلي مكان الزعامة من الثورة أن يصرف سخط الناس وثورتهم المكبوتة التي كانت تريد أن تجد متنفساً فوجدته في الثورة، استطاع أن يصرف هذا السخط إلى الاشتغال بالتوافه وبما لا طائل تحته، فبعثر هذه الطاقة الضخمة وبددها، وفوت على الأمة أن تستفيد بها حين كان يمكن الانتفاع بها فيما يجدي ويفيد.

بدأ سعد حياته السياسية بمصاهرة أشهر صديق للإنجليز عرفته مصر في تاريخ الاحتلال الإنجليزي من أوله إلى آخره، وهو مصطفى فهمي باشا<sup>(٢)</sup>. ثم كان كرومر واضع أسس الاحتلال البريطاني في مصر هو الذي رشحه لوزارة المعارف في حكومة صهره ذاك<sup>(٣)</sup>. وظل سعد صديقاً للإنجليز يؤيد

(١) انظر المصدر السابق (٣٧٣/٢ - ٣٨٦).

(٢) مصطفى باشا فهمي هذا تركي الأصل. وقد كان سعد فلاحاً مصرياً خالصاً. ولا بأس بذلك ولا غبار عليه، ولكن العجيب في الأمر أن سعداً نفسه كان هو مبتدع التفرقة المشهورة بين المصري والتركي منذ ثورة سنة ١٩١٩ - ويراجع ما كتبه كرومر عن مصطفى فهمي في Modern Egypt (١ : ٢٦٥ ، ٢ : ٣٤٦).

(٣) يراجع في ذلك ما جاء في تقرير كرومر عن سنة ١٩٠٦، المقدم إلى البرلمان الإنجليزي في إبريل ١٩٠٧ - الفقرة ٣ تحت عنوان «الوطنية المصرية» (ص ٨) من النسخة الإنجليزية، وما يذكر في هذا المقام أن فتحي زغلول، أخا سعد زغلول كان قاضياً في محكمة دنشواي المشهورة. وقد كافأه الإنجليز على ذلك بتعيينه بعد ذلك وكيلاً لوزارة الحفانية «العدل». وهو المقصود بقول شوقي في وداع كرومر:

أم من صيانتك القضاء بمصر أن تأتي بقاضي دنشواي وكيلاً؟

سياستهم - كما يقول نيومان - حتى غضب لتخلي كتشنر عنه في إحدى مصادماته الكثيرة مع الخديو عباس، فاستقال وتحوّل منذ ذلك الوقت إلى المعارضة الواضحة الصريحة للسياسة الإنجليزية، لا سيما بعد انتخابه وكيلاً للجمعية التشريعية التي أنشأها كتشنر سنة ١٩١٣<sup>(١)</sup>. ثم إن سعداً عاد في آخر حياته إلى مهادنة الإنجليز، وبدأ هذا التحول الجديد - بعد فترة التطرف التي لم تزد على أربع سنوات - بعد مقتل السير لي ستاك مباشرة. فلم يكد اللورد لويد يصل إلى مصر في أكتوبر سنة ١٩٢٥ حتى سارع سعد إلى زيارته<sup>(٢)</sup>. ثم لم تلبث الصحف الوفدية أن مالت إلى مهادنة الإنجليز، وأخذت تدعو إلى مسالمتهم (للانتفاع بمزايا الدستور والحكم النيابي، والسعي في سلوك سبيل سياسة الإنشاء، لتوطيد ودعم حياتنا الاقتصادية والزراعية توطيداً ثابتاً يحقق استقلالنا الاقتصادي والزراعي الذي هو نواة الاستقلال السياسي، حتى تحين الفرص الملائمة للجهاد السياسي.. فإن ما لا ندركه اليوم سنظفر به غداً<sup>(٣)</sup>). ذلك هو ما دعا نيومان إلى إبداء أسفه؛ لأن سعداً قد مات «حين كان اتجاهه قد أصبح أكثر اعتدالاً، وحينما كانت الواقعية قد بدأت تنير طريقه خلال ضباب التعصب والتعلق بالأوهام». وهو يشير إلى تحوله عن طريق العنف قبيل وفاته، فيقول: «إنه قد استعمل نفوذه القوي في الحد من تطرف أعوانه. وقد جاء تحوله هذا حين كانت الظروف قد أخذت تعين على إبراز مدرسة جديدة في التفكير السياسي ذات مستوى عال لم تعرفه مصر من قبل. وقد كان من المأمول في مثل هذا التطور السياسي الجديد - لو أمتد بزغلول العمر - أن يكون لشخصيته أثر بعيد، فقد كانت

(١) Great BriTain.. (ص١٦٥، ٢٦٤).

(٢) الحولية الثانية (٨٥٥) وراجع نماذج من مهاجمة الصحف المعارضة في (٨٥٥، ٨٥٦).

(٣) الحولية الثالثة (٤٠٧ - ٤٠٨).

مصر كلها رهن أمره وإشارته». ويؤكد نيومان ما سبق حين يقول بعد ذلك بقليل: «كان من الممكن أن يكون سعد زغلول عاملاً قوياً في هذه الفترة من العلاقات المصرية الإنجليزية. وقد كان هناك أدلة لا تحتمل إلا قليلاً من الشك على ما ذهب إليه اللورد لويد والحكومة الإنجليزية من انتظار معونته وعطفه. وقد كان عطف زغلول على وجهة النظر الإنجليزية يعني عطف المصريين جميعاً»<sup>(١)</sup>.

□ ثم إن الذي يقرأ المذكرة التي دونها زعماء الوفد الثلاثة (سعد وشعراوي وعبدالعزیز فهمي) وأثبتوا فيها ما جرى بينهم وبين ونجت من نقاش في ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ يعجب من أن تكون هذه المقابلة وهذا النقاش بداية لثورة. فهم يتبرءون فيها من الحزب الوطني وأساليبه العنيفة، التي ترجع - كما قال عبدالعزیز فهمي في هذه المقابلة - إلى «طبيعة الشبان من كل جهة»، وهم يعترفون «بالأعمال الجلييلة التي باسرتها إنجلترا في مصر»، ويتعهدون لو نجت بأن «لا نلتجئ هنا لسواك ولا في الخارج لغير رجال الدولة الإنجليزية»<sup>(٢)</sup>.

والذي يقرأ خطب سعد الأولى يعجب من أن تكون هذه الخطب هي خطب زعيم ألقى إليه الثورة مقاليدها ليأخذ بزمامها. خذ لذلك مثلاً خطبته بدار حمد الباسل عضو الجمعية التشريعية في ١٣ يناير سنة ١٩١٩، وهي من أوائل خطبه السياسية<sup>(٣)</sup>. فهو يتكلم كلاماً قانونياً فارغاً لا مكان له في الثورات، عن أن الحماية «أمر باطل بطلاناً أصلياً أمام القانون الدولي، ومخالف مخالفته صريحة للمبادئ الجديدة التي خرجت بها الإنسانية من هذه

(١) Great Br:Tain.. (ص ٢٦٤، ٢٦٦).

(٢) راجع نص الحديث في تمهيد الحوليات (١/١٣٧ - ١٤٤)، ثورة ١٩١٩ (١/٧٠ - ٧٢).

(٣) راجع نص الخطبة في «تمهيد الحوليات» (١/٢٠٢ - ٢١١).

الحرب الهائلة» وعن أن البلاد «خلو الآن أمام القانون الدولي من كل سيادة أجنبية. وبعيد على مؤتمر السلام أن يرتب سيادة جديدة للأقوياء على غيره»<sup>(١)</sup> وهو يكيل الثناء لأمريكا ولرئيسها الدكتور ولسون دون تحفظ، بل يعلق آماله كلها عليها، حتى إنه ليختم خطبته بالثناء على «رجل الإنسانية الدكتور ولسون واعترافنا نحن المظلومين بنجميله على ما يعاني في الدفاع عن قضيتنا». ثم يقرأ على الحاضرين نص برفيقة مرسله إليه، يقول فيه: «إلى رئيس الولايات المتحدة، ذلك الرجل العظيم الذي قاد أمته في خوضها غمار المعترك الأوربي، لمجرد خدمة الإنسانية وتخليص العالم في المستقبل مما يعاني من أهوال الحرب.. إلى الفيلسوف الكبير السياسي القدير.. إلى رجل الديمقراطية الكبرى الأمريكية، الذي غادر بلاده لينشر على العالم لواء السلام المقيم يرفعه العدل الشامخ.. إلخ». ثم يردف ذلك بالهتاف للولايات المتحدة والدكتور ولسون، طالباً إلى الحضور أن يرددوا هتافه، فيرددونه متحمسين.

أليس عجيباً أن يبدأ زعيم ثورة كفاحه بالهتاف لدولة أجنبية هي حليفة للمحتل وأن يخدع بالتصريحات البراقة التي قال الإنجليز أنفسهم: هو أجل منها واحلى ألفاظاً في خلال الحرب؟! بلى، إنه لعجيب. وأعجب منه أن يدعو في خطبته هذه إلى قبول الأمر الواقع في الامتيازات الأجنبية، بل هو يبررها ويعتذر عنها بأساليب وأسانيد فصيحة بارعة، قد لا يستطيع خيال الأجانب أنفسهم أن يخترعها وينمقها على النحو الذي تفتق عنه خيال الزعيم. ويقرر أن مصر لا تستغنى عن الأجانب، ويشيد بما أدوا من خدمات<sup>(٢)</sup>.

(١) الواقع أن من سوء حظ مصر أن الزعماء فيها والمتزاعمين كانوا جميعاً منذ بداية الحركة الوطنية من محترفي المحاماة، فقد كان من آثار ذلك أن أكثرهم قد عالج القضية الوطنية كما يعالجون القضايا التي يوكلمهم فيها عملاؤهم، ذلك العلاج الذي يقوم على السفطة المنطقية والحيل القانونية وتجريح الخصوم.

(٢) «الانجازات الوطنية» (٢/٣٨٦ - ٣٨٩).

□ وقال - رحمه الله - :

«كان يوقع خطابه إلى الرئيس الأمريكي (ولسون) بـ «المخلص المطيع الخاضع سعد زغلول» تارة و«خادمكم المخلص المطيع سعد زغلول رئيس الوفد المصري» تارة أخرى، وكان يستجدي في هذه الرسائل تحديد موعد للمقابلة، ولا يمل من إرسال الخطاب تلو الخطاب، ولا يشبه تجاهل الرئيس الأمريكي لكل رسائله، ولكنه يزيده انحداراً إلى إظهار الخضوع والخنوع، حتى كلف الرئيس الأمريكي كاتبه الخاص في آخر الأمر أن يرد عليه - بعد تجاهل طويل - معترفاً عن المقابلة بضيق وقته<sup>(١)</sup>. ثم إن سعداً قد عمل منذ البداية على الاستئثار بالقضية الوطنية وكأنها غنيمة لا يريد أن يشاركه فيها أحد، فنحى عنها عمر طوسون بحجة أن الحركة يجب أن تظل شعبية. وذلك بالرغم من أن عمر طوسون كان هو البادئ بفكرة إرسال الوفد المصري إلى أوروبا للدفاع عن مصر والمطالبة بحقوقها أمام مؤتمر الصلح»<sup>(٢)</sup>.

□ وقال - رحمه الله - : «أصبح كفاح المحتل غير ذي خطر، بل قد دعت صحف الوفد في أواخر أيام سعد إلى مهادنة الإنجليز حرصاً على الدستور. وهذه هي صحيفة «كوكب الشرق» تتكلم عن «سياسة العنف والشدة التي من ذرائعها سياسة اللا تعاون والتحريض على المقاطعة وعلى الإضراب الوزاري»، فتصفها بأنها «سياسة لها عواقبها ونتائجها». فمن نتائج هذه السياسة أن تقابل إنجلترا الشدة بمثلها، فيصبح الخطر على الدستور وعلى الحكم النيابي قاب قوسين، سيما وأن لإنجلترا في مصر من القوة ومن الرجال ما يساعدها على العبث بالدستور<sup>(٣)</sup> وبالحياة النيابية»<sup>(٤)</sup> «اهـ.

(١) راجع نصوص الرسائل في «مقدمة الحوليات» (١/ ٤٣٠ - ٤٣٨).

(٢) «مقدمة الحوليات» (١/ ١٤٧ - ١٥١).

(٣) مات هذا الدستور في عمر الفطيم وصار العونة بيد الأحزاب والحكام.

(٤) كوكب الشرق ١١ يونيو ١٩٢٦ نقلاً عن الحولية الثالثة (ص ٤٠٧ - ٤٠٨).

□ وللهُ در أحمد محرم وهو يقول عن سعد ورجاله :

يقولون نواب ودار نيابة  
وحكام عدل شائع ووزارة  
وساوس أقوام مهاذير ما لهم  
ينادون باستقلال مصر ودولة  
أسائل نفسي وهي ولهي من الأسى  
جزى الله سعداً إنها شهواته  
أباح حمى مصر وسودانها معا  
يسامحُ أعداء البلاد ويعتدي

وملك ودستور من الحق واضح  
هي الشعب أو روح من الشعب صالح  
من الرأي هاد أو من اللب ناصح  
من الوهم لم يبلغ بها السمع صائح  
أرائك مالك ما أرى أم مذابح  
طغت ريحها فالشر غاد ورائح  
فأمعن مغتال وأوغل طامح  
على قومه شر الحماة المسامح<sup>(١)</sup>

\* وإن تعجب فاعجب .. فكم ذا بمصر من المضحكات !!

دعا سعد زغلول أعضاء البرلمان الإنجليزي من العمال للحضور إلى مصر والنزول في ضيافته، حتى يتأكدوا من التفاف الأمة حوله. وجاء الزوار إلى مصر، وطاف ممثلو الدولة المحتلة مع زعيم الأمة وسط الترحيب والزينات وهتاف الشعب. وجلس زعيم الأمة يصفق مع المصنفين لأحد هؤلاء النواب وهو يقول في وليمة فندق شبرد التي أقيمت في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢١، رداً على اعتراض الذين ينتقدونه لإقحامه البرلمان الإنجليزي في شئون مصر الداخلية: «فلم يبق إلا مؤاخذتهم لنا لأننا نتدخل في شئون مصر الداخلية. ولكن أليس صدور هذا الانتقاد مستغرباً بعد أن تدخلنا أربعين سنة في شئون مصر؟ ومع ذلك فهل هذا تدخل في شئون مصر الداخلية؟ أليست المسألة مما يهم إنجلترا؟ وإلا فكيف تعرض علينا الحكومة الإنجليزية كل سنة الميزانية لنوافق عليها، وفيها مصروفات تبلغ الملايين من الجنيهات للجيش الإنجليزي في مصر؟ إن جميع هذه الأقوال التي يبدونها لغو وهذيان».

□ قيل هذا الكلام في حضور سعد زغلول وأعضاء الوفد فصفقوا له - مع المصفقين - تصفيقاً طويلاً. ومكث نواب الدولة المحتلة ما مكثوا، ثم ودعوا بمثل ما استقبلوا به من الترحيب - كما تعودت الصحف أن تقول - ولم يفهم أن يرسلوا عند سفرهم برقية إلى سعد زغلول شاكرين<sup>(١)</sup>!!!

□ ولما رحل اللنبي عن مصر، وخلفه اللورد لويد. كان سعد وقتذاك خارج الحكم، منذ سقطت وزارته وحل البرلمان عقب مقتل سردار، فسارع إلى قصر الدبارة يهنئ المندوب السامي الجديد بسلامة الوصول<sup>(٢)</sup> «(٣)»!!!!

□ وختم الدكتور محمد محمد حسين كلامه بقوله: «فختم سعد حياته - كما بدأها - مسالماً للاستعمار»<sup>(٤)</sup>.

□ ولله در أحمد محرم حين يقول:

أُيخَذَلُ في الكنانة كل حر  
ويُمنع ذو القضاء الحق منها  
ويُرْمى ذو البراءة من ذوينا  
يُعباب المرء يصدق من يوالي  
ويحمد كل مختلف المساعي  
يريك ضحى لباس فتى أمين  
يكاد من التلصص والتخفي  
ويُنصَرُ كل صخّاب شغوب؟  
ويقضي كل أزور ذي نكوب!!  
بملء الأرض ن إثم وحب  
ويصبر للشدائد والكروب  
إلى الأقوام جيء ذهب  
فإن لبس الظلام فذو ديب  
يشق السبل في عين الرقيب<sup>(٥)</sup>

(١) «تمهيد الحوليات» (٢/ ٣٥٣ - ٣٥٨).

(٢) «الحولية الثانية» (ص ٨٥٥).

(٣) «الاتجاهات الوطنية» (٢/ ٤٠٣ - ٤٠٤).

(٤) المصدر السابق (ص ٤٠٥).

(٥) ديوان أحمد محرم.

□ يقول أحمد محرم متهمكاً من قول سعد في دار النياحة «دلوني على السبيل» كلما سامه نواب الحزب الوطني بعض المطالب الوطنية. وفيها يقول:

يا قوم ما ذنب الرئيد	س إذا تمسك بالدليل؟
ما كان من رسل الخيا	ل ولا دعاة المستحيل
إنجيله نشر السلا	م ودينه أخذ القليل
سعد رسول الخير وال	إصلاح، بورك من رسول
ما النيل والسودان؟ ما	طول التوجع والغليل؟
ما الملحقات؟ وما الجلا	ء؟ وما التماذي في العويل؟
يا قوم لوذوا في الجدا	ل بحكمة الرأي الأصيل
صدق الرئيس فقدسو	ه ونزهوه عن المثيل
أيصيح صائحكم بما	يؤذيه من قال وقيل؟
ويرى عليه لنفسه	حق الزميل على الزميل؟
اللَّهُ أكبر ما لكم	لا تتبعون ذوي العقول
يا معشر الشعراء لس	تم بالثقات ولا العدول
لا تظمعووا في شعب مص	ر فليس بالشعب الجهول
هو ما يقول زعيمه	ويريد من أرب ورسول
هو لا يظن بالف مص	ر في الفداء وألف نيل
فدعوا العناد وآمنوا	بزعامة الشيخ الجليل
نعم الزعيم، شعاره:	«دلوا الزعيم على السبيل»

رحم الله شعب الكنانة فهو أولى بالرياء وما أصدق قول شوقي فيه:

أثر البهتان فيه وانطوى الزور عليه

يا له من ببغاء عقله في أذنيه

رحم الله الدكتور محمد محمد حسين بما نصح لأمته ودينه . بما

خطّ قلمه الوضيء المتوضئ الذي ما هادن ولا حابى .

\*\*\*